د. غالب الفريجات

العولمة والهوية في الثقافة









طُبع بدعم من وزارة الثقافة
2 0 1 9

العولمة والهوية في الثقافة

العولمة والهوية في الثقافة (دراسة)

د.غالب الفريجات (كاتب وباحث أردني)

الطبعة الأولى 2020.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: جعفر العقيلي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، عمارة البيجاوي (69)، ط3.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

لوحة الغلاف: الرسام الأوزباكستاني تيمور أكميدوف

تصميم الغلاف: محمد خضير

المراجعة اللغوية: رفعت فرج

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية: (2018/5/2199)

ISBN: 978-9923-13-009-4



الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

د. غالب الفريجات

العولمة والهوية في الثقافة

دراسة



الإهداء

إلى جيل الشباب، حيث الثقافة وعي والتزام، لا بدَّ وأن يكون هذا الوعي مرتبطًا بقضايا الوطن، وملتزمًا بهموم الأمة، فأنتم أيها الشباب خير من يكون سندًا لبناء الوطن وذخرًا لنهضة الأمة.

مقدمة

تعدُّ الثقافة مشروعـاً تحررياً، ولأنها كذلك، فلا بدَّ من أن يعي كل إنسان ينزع إلى الحرية الدور الذي يمكـن أن تلعبه الثقافة، والحريـة ليست نزعـة فردية، بل هي نزعة وطنية وقومية وإنسانية، فالشعوب المضطهَدة المقموعة، تنزع إلى الخلاص من إيقاعات القمع والاضطهاد، والأمم التي تخضع للتجزئة والتفتيت، لا بدَّ أن تنزع نضالاتها من أجل نيل حريتها، إلى بناء وحدتها ومشروعها القومي وعلى الأمة العربية أن تسعى، من أجل تحقيق دولتها القومية المتحررة من التجزئة والتبعية والتخلف.

النزوع إلى الحرية ليس فيها أي مشروع عدواني، أو تجاوز على حقوق الآخرين، بل هو إعادة المواقع والمواقف، التي انتزعت إلى ما كانت عليه، أي إعادة الأمور إلى نصابها، وهنا تلعب الثقافة دورًا فاعلًا في عملية التحرر الوطني والقومي والإنساني، فالثقافة يمكن أن تكون وطنية وقومية وإنسانية، أي تلعب كل هذه الأدوار بنزعة تحررية وحدَوية إنسانية، لصالح الوطن والأمة وبمضمون اجتماعي تحرري.

الثقافة التحررية، هي ثقافة إنسانية ترفض العنصرية والعرقية والطائفية، وهي تنظر إلى الإنسان بوصفه قيمة، ينبغي أن تكون إنسانيته مقدسة، على العكس من الثقافات الإمبريالية والصهيونية والشوفينية والطائفية؛ لأنها

ثقافات إلحاقية، تريد أن تلحق الإنسان بما يخدم مشاريعها العدوانية للإنسان ذاته.

الثقافة ليست منتجًا استهلاكيًّا، إنها إبداع وخلق جديد للحياة، تؤكد أن الغاية والهدف من وجود الإنسان، هي عملية الخلق والإبداع، والمثقف كائن حي متحرك باستمرار نحو التطور والتقدم، وكذلك الأمم التي تملك ثقافة أصيلة، وإن بدت ضعيفة في وجهها السياسي، إلا أنها أكثر قوة من تلك التي لا ثقافة لها، أو أنها ذات ثقافة سطحية، فالمخزون الثقافي للأمة، يؤكد على حيوية الأمة، وأنها صاحبة دور في سلم التطور الإنساني يتقدم، وقد يتراجع أحيانًا، ولكنه لا يفنى ويغادر الحياة.

الثقافة ضرورة لا بدَّ منها، ولا بدَّ لكل فرد أن يعيشها في ذاته، ومع الآخرين؛ لأن الإنسان المنتج للثقافة لا ينتج لذاته، وإنما للآخرين/ المجتمع، الذي يجب أن يتفاعل مع هذا المنتج، وإلا كان هذا المنتج شيئًا نلقيه في حاويات القمامة، فقد يكون نافعًا، ولكنه يحتاج إلى عملية خلق جديدة، قد تختلف كليًّا عن صفاته الأولى.

المثقف هو من ينتج ثقافة لا ليستهلكها هو نفسه ، وإنما ليقدم غذاء نافعًا للمجتمع؛ لأن قطبي العالم الثقافي هما المثقف والعالم الاجتماعي، ولا تكتمل الثقافة إلا بهما معًا، ولا بدَّ من الحضور الدائم للمثقف، والحضور المدعوم والاستمرارية من العالم الاجتماعي، لهذا المثقف الملتزم بقضايا المجتمع، وصاحب النزعة التحررية.

إن الثقافة والسياسة وجهان لحالة واحدة، فالسياسة دون ثقافة ضياع وفوضى، والثقافة دون التزام هرطقة، وهلوسة كلامية، ولا بدَّ أن تكون السياسة منسجمة مع الثقافة الملتزمة لأنها كالبوصلة التي تهدي إلى الطريق المستقيم، ولأنها تملك رؤية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف.

إن العلاقة بين المثقف والسلطة هي علاقة تضاد، ومن أهم الأدوار التي يقوم بها المثقف، هو الدور المعارض الناقد للسلطة؛ لأن السلطة تنزع إلى الهيمنة والتسلط، والمثقف ينزع إلى التحرر، وتحرير المجتمع، والسعي للوصول به إلى أهدافه الوطنية والقومية والإنسانية، وما أحوج أمتنا إلى المثقف الملتزم، البعيد عن هيمنة السلطة، وما أحوجنا أيضًا إلى إنتاج سلطة الثقافة، بدلًا من أن يتم العبث في أوساط المجتمع، من انتشار لثقافة السلطة.

إن أمتنا ذات مخزون ثقافي إلى جانب بعده القومي فيه نزعة إنسانية، وقد استطاعت ثقافتنا أن تستوعب الآخر، دون أن تكون قد حرمته من كامل حقوقه، في ظل الدولة العربية الواحدة، وقد أنتج هذا الآخر، في ظل الدولة العربية بأفضل مما كان له في ظل ثقافته المحلية؛ لأن الدولة العربية، وفرت له فضاءات من الحرية، ساعدته على أن يبدع في مناخ الحرية هذا، إلى جانب أن هذه الثقافة كانت ثقافة تنويرية، تمكنت من أن تصيب بإشعاعاتها الحارة، كل دياجير الظلام المخيمة على الطرف الآخر، وتقتل كل الديدان المعششة في أرجاء مؤسساته المدنية والدينية.

لا بدَّ وأن يكون للثقافة دورها الفاعل والمؤثر في حركة المجتمع، وأن تقف دومًا في جانب المواطن الإنسان، وكامل حقوقه المدنية والسياسية، بإيمانها أن هذا الإنسان، هو الفاعل الأول في مسيرة تطور المجتمع، وأن لا تطور ورقي وتقدم، ما لم يملك الإنسان أدوات التطور، ويمارس حياته الحقيقية، بكامل حريته، بعيدًا عن هيمنة السلطة والمال، فالتحرر منهما شرط لممارسة الإنسان دوره بفاعلية وتأثير.

لا بدَّ وأن تكون ثقافة المجتمع ثقافة معادية لثقافة التطبيع مع العدو، الذي يحتل الأرض، ويسعى إلى تفتيت وتجزئة الأمة، ويقف في طريق وحدتها وحريتها، وتحررها من التبعية والتخلف، ومن الضروري جدًّا أن ترفض الثقافة الملتزمة ثقافة الخوف، أو المنتج الثقافي من القوى المعادية، سواء أكانت قوى داخلية أو خارجية؛ لأنها لا تأتي على فرد أو مجموعة بعينها، بل تصيب الأمة في أعز ما تملك؛ لأن الثقافة أقوى بكثير من الرصاصة، فالهيمنة الثقافية مدمرة وقاتلة، هيمنة إلحاقية، تهدف إلى إلغاء الذات الوطنية والقومية.

وترفض ثقافة الإقصاء، وثقافة العولمة، وعولمة الثقافة؛ لأنها تعني إلحاق الآخر بمركز القرار الإمبريالي العالمي، ومؤسساته الاقتصادية، التي تسعى لاحتكار السوق، وحرمان الإنسان من حقه في الوصول إلى المستوى اللائق من الحياة، لصالح شركات الاحتكار، التي لا يهمها إلا الربح على حساب حياة الإنسان، ورفاهيته وتقدمه.

فيما بين أيدي القارئ من صفحات، أخذت عنوان «العولمة والهوية في الثقافة في الثقافة»، تجولت في عشرين موضوعًا، تناولت فيها أنماطًا متعددة من الثقافة، واجتهدت أن أقدم للقارئ، ما يمكن أن ينير الطريق أمامه في هذه المواضيع، والتي كانت في مجملها أقرب إلى المقالة، وبعيدًا عن البحث، وإن جاء بعضها على طريق البحث، نظرًا لأن هذا الموضوع أو ذاك، تطلب أن أسلك فيه المسلك البحثي، متمنيًا أن أكون قد قدمت ما ينفع ويفيد، والله من وراء القصد.

حديث في الثقافة

إن الثقافة موقف ووظيفة وتشخيص للبيئة المحيطة، لاستيعابها من كل جوانبها، وفهم واستيعاب حقيقتها، من أجل الوصول إلى مخرجات قريبة من الصحة، نتمكن من بناء القناعات الثابتة والمرنة عليها، والمواقف والمطالبات، من خلال استيعاب الذات واستيعاب الآخر بشكل صحيح، بعيدًا عن الجهل والتقوقع والجمود، والثقافة تعني الأفكار الرئيسة للمجتمع، والتي تشمل عقائد ورموزًا وقيمًا وأعرافًا، وهي كبرى ميزات الجنس البشري، إذ منحته السيادة على الكون، والثقافة ليست فقط ما نعيش به، إنها وإلى حد كبير ما نحيا لأجله، الوجدان، العلاقة، الذاكرة، القرابة، المكان، المجتمع المحلي، الإشباع العاطفي، البهجة الفكرية، الإحساس بمعنى أساسي وجوهري.

إن أهم ثلاثة تعاريف متداولة أكثر من غيرها في علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا هي:

- تعريف إدوارد تيلور، وهو عالم أنثروبولوجي بريطاني في نهاية القرن التاسع عشر والذي يقول: الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والتقاليد، وأي قدرات وعادات أخرى يتعلمها الإنسان كعضو في المجتمع.
- تعريف لسلي وايت، عالم أنثروبولوجي أمريكي يقول: إن الثقافة هي القدرة الرموزية عند الإنسان، وهو يربط مفهوم الثقافة عند

الإنسان بقدرة الإنسان على إعطاء معانٍ للأشياء، ويخلقها ويستعملها وهي برأيه أنه لا يوجد إنسان دون ثقافة، ولا توجد ثقافة دون إنسان.

- تعريف الفرد كوبر، وهو عالم أنثروبولوجي أمريكي، إذ أبقى النقاش حولها مفتوحًا دون حسم خاصة في ظل المفاهيم المختلفة مثل أن ليس للثقافة حضور مادي، بل لها حضور مجرد، وبالتالي لا يمكن أن يوجد علم حول شيء لا يمكن رؤيته.

إن الثقافة قد بدأت مع الإنسان منذ أن وطأت قدماه الكوكب الأرضي، فهي الإنتاج المادي والمعنوي للإنسان، وهي جميع السمات المميزة للجماعة –الأمة– من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، كما جاء في تعريف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ويقول تيري إيجلتون وهو أهم من كتب عن الثقافة في بداية الألفية الثالثة –كتاب فكرة الثقافة– والذي أهداه للمفكر العربي إدوارد سعيد، حيث يرى «إيجلتون»: إن هناك علاقة جدلية بين الطبيعة والثقافة يتجلى فيها البعد التكويني للإنسان، أو الفعالية الإنسانية، والعمل الإنساني هو الذي يهيئ الفرصة للتأثير، فمن دون الطبيعة لا ثقافة، ودون الثقافة لا تغيير للطبيعة، وبرأيه أن جميع الثقافات متداخلة بعضها في بعض، لا ثقافة فريدة ونقية، الكل هجين متغاير الخواص، متباين على نحو استثنائي، ولا يمثل بنية متجانسة أحادية التكوين.

أما رايموند وليامز من اليسار السياسي يقول: إن أي ثقافة لا يمكن أن تكون ماثلة بالكامل ومكتملة في الوعي، إنها منفتحة في النهاية، وهي شبكة من المعاني والأنشطة المشتركة ونامية باطراد في اتجاه تقدم الوعي، ومن ثم إلى إنسانية كاملة لمجتمع كامل، والمشاركة التي يعنيها أنها كاملة من جميع أبنائها، نخبة وعامة، إنها صيغة جمعية على عكس ما يرى/ تي. إس. إليوت/ حول مفهوم الثقافة المشتركة، إذ يقسمها إلى ثقافة النخبة العليا، وثقافة العامة، والثقافة هي سلوك اجتماعي ومعيار موجود في المجتمعات البشرية، وتشمل نطاق الظواهر التي تنتقل من خلال التعلم الاجتماعي في المجتمعات البشرية، وتختلف طبيعتها وخصائصها من مجتمع لآخر للارتباط الوثيق الذي يربط بين واقع الأمة وتراثها الفكري والحضاري.

إن السعي إلى تجديد الفكر: أسلوب التفكير، والتعمق في دراسة وتحليل المؤثرات، على منتجات العقل والتفكير، من الوظائف الرئيسة للثقافة وإن أهم ما يجب أن نقوم به النقد الموضوعي لعقلنا العربي الإسلامي من أجل تطوير إدراكنا وتحديثه بشكل مستمر وتخليصه مما علق به من شوائب وأمراض كثيرة تحكمه وكما يقول الجابري: «وعندما ندعو إلى نقد الفكر العربي الإسلامي كوظيفة من وظائف الثقافة فإننا نرفض ما يسمى بالقطيعة المعرفية مع الماضي، فالماضي هو تراث الأمة ويجب أن نركز على هذا التراث، ونجعل الصالح منه يؤسس لعقلنا وفكرنا وذاتنا العربية وفق متطلبات العصر وكل عصر قادم»، وهو ما يحملنا مسؤولية تكريس النقد على أرض الواقع في مجالات التربية والأخلاق

والحقوق والقانون واحترام الرأي والرأي الآخر ومحاورته، إن كان داخل ذات الفرد، أو داخل الأسرة، أو داخل المجتمع»[1].

إن الثقافة على هذه الدرجة من الأهمية؛ لأنها قادرة في إحداث التغيير والفعل المؤثر في حياة الفرد والمجتمع، وهي تملك القدرة على قيادة التطوير في كل مجالات الحياة، وهي قادرة أيضًا على إنتاج الأفكار والرؤى والتصورات ونقد السلوك والأفكار، التي لا تتلاءم مع حركة التقدم وتصبغ المجتمع بما تقدمه له، وفي الوقت نفسه، فإنها تتسم بسمات المجتمع الذي أنتجها، وكما يقول الباحث السوري جاد الكريم الجباعي: إن الإنسان كفرد في المجتمع ينتج عالمه ويصنع تاريخه وينتج ذاته، وإنتاج الذات هو الثقافة، مع التأكيد أن الطابع الفردي للإبداع يتحول إلى ماهية اجتماعية ومجتمعية.

إن العنصر الثقافي من العناصر الأساسية في تقدم المجتمع ونهوضه، وعلينا أن نفهم تمامًا أن مثل هذا التقدم والنهوض ليس بفعل النخبة أيًّا كانت، فكرية أو علمية أو سياسية أو ثقافية؛ لأن الذي يصنع النهوض والتقدم هم أفراد المجتمع ومؤسساته، ومنظمات المجتمع المدني، والعاملون في القطاع الخاص، والقطاع الاقتصادي بأنواعه المتعددة، أي أن التقدم والنهضة يتحمل أعباء نهوضها المجتمع بكل أفراده.

---

(1) الجابري في كتابه نقد الفكر العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986.

إن الثقافة مهمة للفرد والمجتمع، فهي للفرد تمكنه من اكتساب مقومات شخصيته، واكتساب قيم واتجاهات وعادات وتقاليد ولغة وأنماط وأساليب حياة مجتمعة، وتحقيق هويته الوطنية والقومية، وتحقيق أمانيه وتطلعاته في الحياة، وإشباع حاجاته الأساسية، واكتساب قدرته على التفكير والإبداع، والاختيار من بين البدائل المختلفة المتاحة له، وعلى التعلم والتكيف مع من وما حوله، وعلى تطوير حياته وتطوير الحياة من حوله، من خلال تفاعله الإيجابي معها، واستفادته مما يُهيأ ويتوافر له فيها، من خدمات وجهود ومناشط تربوية وتعليمية وتدريبية وإرشادية وتوجيهية وتنشئة اجتماعية ورعاية شاملة، وهي بالنسبة للمجتمع والأمة، تعتبر الثقافة الصورة المميزة للمجتمع والأمة، والمجددة لهويتها، وملامحهما المميزة والمعبرة عن طموحاتهما وتطلعاتهما المستقبلية، وأصالتهما المتجددة، والأداة لتأكيد هويتها المتميزة، وتحقيق وتدعيم وحدتها المرغوبة[1].

إن هناك خطرًا شديدًا يتهدد جوانب كثيرة من حياتنا؛ لأن نسبة عالية من الإنتاج الثقافي مستورد من المصادر الأجنبية، وليس المطلوب الدعوة إلى الانغلاق، ولكن المطلوب فتح الباب وعدم تقييد الحراك المجتمعي، بل ودعمه وتفعيله أخلاقيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، وخاصة في مرحلتنا التي تحتاج

(1) عمر محمد التومي الشيباني، مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين ص483-583.

إلى وعي بذاتنا، والدفاع عنها بتفعيل ثقافة المقاومة، بكل معانيها وأنواعها ومتطلباتها.

إن الوضع الذي نعيشه في الوطن العربي نتيجة الإخفاقات والإحباطات، لما أصاب الأمة من العجز والضعف، وما تعاني منه، من فقر وجهل وما أصبح من سماتها من تخلف وتجزئة وتبعية، تحتم على الثقافة والمثقف أن يلعبا دورًا مركزيًّا، مما يجعلهما مختلفين في الدور والمسؤولية عن أدوار الآخرين، فالثقافة لا تستطيع إلا أن تكون في خندق المشاكل والهموم الحقيقية للناس، وأن تكون في ذات المسار لطموحاتهم وأحلامهم؛ لأن جوهر الثقافة الوطنية القومية، هو الوعي التاريخي للعصر والواقع معًا، وإدراك حقيقي للأخطار والتحديات، لأنه من خلالها نتمكن من الإدراك الحقيقي للأخطار والتحديات، ونستطيع أيضًا قراءة الأفكار والآمال للمستقبل، والإحساس بالمخاوف وقراءة التحديات[1].

إن الثقافة العربية في مواجهة بين خيارين وإرادتين: خيار يريد الهيمنة والإلحاق والاستغلال، وخيار وطني قومي دافعه الحرية والديمقراطية والتعددية واحترام إنسانية الإنسان مع مقاومة التبعية والسيطرة، ولهذا فإن دور الثقافة والمثقف أن تكون في خندق الأمة، في ممارسة الممانعة والمقاومة، لما تواجهه الأمة من قمع داخلي وهيمنة خارجية، من خلال تحريض القوى الحية في المجتمع.

(1) عبد الرحمن منيف، الثقافة والمثقف في المجتمع العربي.

إن الأمة في أمس الحاجة أن ينهض مثقفوها لحمل معول البناء والتقدم، لتكون ثقافتنا ثقافة تقدمية، تنهض بالمجتمع، وتأخذ بيده ليصل إلى أهدافه في الوحدة القومية والحرية والعدالة؛ لأن المضمون الثقافي لأمة تقدمية، لا بدَّ وأن يكون في خندق جماهير الأمة وطموحاتها وآمالها، حتى لا تكون ثقافة إلحاقية تبعية، لقوى الردة في الداخل، وقوى البغي والعدوان في الخارج، ونحن على يقين أن أمتنا من الأمم التي تحمل رسالة وطنية وقومية وإنسانية، تصلح لبناء المجتمع المحلي والقومي، وتعكس صورتها المشرقة على الإنسانية.

إن الثقافة العربية تحمل في أحشائها كل عناصر التقدم والازدهار، وهي في صالح الطبقات الكادحة، والتي تشكل القاعدة الأوسع في المجتمع، وتعبر بشكل واضح وجلي، عن تطلعات هذه القاعدة العريضة، فالثقافة الجيدة والتقدمية، هي ثقافة الجماهير الشعبية، ولم تكن ثقافتنا إلا ثقافة جماهيرية شعبية.

إن الوضع العربي يحتاج من الثقافة والمثقفين أن ينحازوا إلى خندق الفقراء والكادحين والمناضلين، وكل من يؤمن بمستقبل هذه الأمة، فالأمة بحاجة إلى ثقافة الممانعة والمقاومة، في كل بقعة من بقاع الوطن العربي، وعلى امتداد التواجد الجماهيري، حتى تساهم الجماهير في النهوض بالأمة، من خلال الفعل الثقافي، رغم نسبة الأمية المعششة في جسد الأمة على امتداد وطننا العربي، فالثقافة رافعة للفعل الذي تقوم به طلائع الأمة

وأبناؤها، ولا بدَّ لهذه الرافعة أن تكون في مستوى آمال الأمة وطموحاتها، وتضحيات أبنائها في ساحات المواجهة.

إن الثقافة ليست أداة في يد الطليعة فحسب، بل هي أداة في يد الجماهير، حتى تكون ثقافة ممانعة قابلة للاستمرار، وديمومة العطاء، فثقافة الجماهير القادرة على تحريك الفعل النضالي للأمة، واستثمار كل إمكانيات الأمة؛ لأن نهوض الأمة يتطلب أن يشارك جميع أبنائها في هذا الفعل التقدمي، وتحريك كل ما تختزنه الأمة من وعي وتاريخ وحضارة، من أجل أن تستعيد الأمة دورها الحضاري، الذي كان يشع على العالم برسالتها، التي تعانقت فيها إيحاءات السماء مع أفعال الإنسان العربي، الذي تحمّل وبجدارة مسؤولية الرسالة، التي كانت رسالة إنسانية، من خلال قيادة العرب وبذلهم وتضحياتهم.

على المثقفين العرب كافة في كل مواقعهم وتخصصاتهم وميولهم ومشاربهم، أن يضعوا نصب أعينهم، أنهم جديرون بالانتساب لأمة عظيمة، وأن مهمة إعادة كتابة تاريخ الأمة، والسعي لأخذ دورها بين أمم الأرض، تقع في المسؤولية الأولى على عاتق المثقفين كطليعة الأمة، وهم المعنيون في رفع راية التحدي في مواجهة سياسة الردة الداخلية، وسياسة الإلحاق الخارجية.

واقع حال الثقافة والمثقفين في الساحة العربية

الأصل في الثقافة أن يكون المثقف هو المعبر الصادق عن الطموح، والساعي الدؤوب إلى تحقيقه بمختلف السبل وشتى الوسائل، والثقافة موقف، وكل نشاط عقلي هو في حقيقة الأمر تعبير عن موقف من المواقف، وما نختلف فيه هو طبيعة الموقف المتخذ، والذي يعبر عن حالة من خيبات الأمل وأسباب الضعف والهوان، التي تمر بها الأمة، والعمل على توظيف كل ما يجري من قبل قطاع من المثقفين في غير صالح الأمة، وعلى حساب توجهاتها التاريخية وأهدافها المشروعة، بسبب من غياب مسائل مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، مما نلاحظ أن الساحة العربية في الدائرة الجغرافية السياسية مهددة بإشعال فتيل الفتنة، وتجد فئة المثقفين تقف دون مبالاة، وفي حالات كثيرة تراها بعين المتفرج، وربما الشامت أحيانًا، مما يؤشر على سقوط مروع في الذات الثقافية، وفي تربية المثقفين.

إن الموقف الوطني والموقف القومي هو الجواب، الذي يجب أن يهدي بوصلة مختلف القوى، فكل صمت أو لامبالاة للتدخل الأجنبي أيًّا كان لونه، أو الادعاء بفصل الثقافة عن السياسة، هو دون شك تقصير إلى حد الخيانة عن إدراك الواقع، ووصول بالثقافة والمثقفين أن يكونوا ذيليين وسماسرة، لتجارة ممسوخة، تستهدف الأمة في رسالتها القومية، وطعن في

الذات الوطنية، وفي السياق ذاته إلى جانب الثقافة المناضلة، لا بدَّ من الوعي والفهم أننا لا نسمح للإبداع غير الناضج وغير المكتمل أن يمر، وبقدر أن نكون جنودًا في خندق الدفاع عن الأمة في قضاياها الوطنية والقومية، فإن أدواتنا لا بدَّ لها من أن تكون في غاية الكمال.

إن المثقفين شريحة متميزة داخل المجتمع بالممارسة والفعل والأفكار والأذواق، تسعى دومًا أن تكون طليعة الأمة من أجل مبادئها وقضاياها، والمثقف هو ضمير الشعب؛ لأن مكانته داخل المجتمع توفر له نوعًا من الحماية، أكبر بكثير من عملية اللهاث وراء ثمن قطعة إنتاجية في صحف صفراء، وإصدارات مشبوهة، وعليه عبء تحمل المعاناة في ظل غياب المؤسسات الاجتماعية والسياسية، التي من واجبها احتضانه واحتضان خطابه وإنتاجه الفكري أيًّا كان لونه.

إن انغماس المثقف في الهم السياسي يعني ارتباطه العضوي بقضايا مجتمعه الأساسية، ويجعل منه في مقدمة القوى الداعية إلى التغيير السياسي والاجتماعي، مع الحذر والحيطة من حالة الانكسار، التي قد يتعرض لها أمام جزرة السلطة والأجهزة المتنفذة، وحتى الجهات المعادية، التي تسعى لتحقيق أجندة معادية، تحت كثير من المسميات في قاموس التمويل الأجنبي، أو ادعاءات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، التي تنهال على الساحة العربية من القوى الإمبريالية والصهيونية والنفس الشعوبي، وهي حالة تزكم الأنوف منذ كامب ديفيد، وحتى غزو العراق واحتلاله.

إن الصمت أمام الأسماء العديدة لمستعمر اليوم هو خيانة دون أي مواربة أو تبرير، مثل صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي أو مجموعة باريس أو مجموعة لندن، وغيرها من مجموعات التمويل الأجنبي، هي مسميات لإمبراطورية واحدة في عصر الإمبريالية الوحدانية الشاملة، وإن طوق النجاة من الوقوع في شرك هذه المؤسسات المشبوهة، وحتى في حبائل السلطات الرجعية، في العمل على خلق مؤسسات اجتماعية سياسية فاعلة، من قبل مؤسسات المجتمع المدني، وفي طليعتها الاتحادات المهنية وروابط الأدباء والكتاب، تضع نصب عينيها انتهاج الديمقراطية، لفتح الباب أمام حرية التفكير والتغيير والتنظيم السياسي، والعمل على تحقيق الحق بالمشاركة السياسية وتداول السلطة.

يقول فؤاد مرسي إنه لا حركة ثورية دون نظرية ثورية، وهو قول صحيح ويضيف إليه أنه لا نظرية ثورية دون ثورة ثقافية، تحضر لها وتصاحبها وتليها في الممارسة الاجتماعية، وفي ظل حالة العجز التي تضرب في أعصاب المجتمع، لا بدَّ من السعي لمعرفة أزمة المجتمع في أوضاع الثقافة والمثقفين في هذا المجتمع، وعندها سنكتشف أن أزمة المجتمع والتغير العربى، ليست سوى تعبير دقيق عن أزمة الثقافة العربية، والمثقفين العرب.

والمثقف هو من يحمل هموم الجماهير والفقراء والمحرومين والكادحين، وهو الذي يعيش هموم عصره، ويرتبط بقضايا أمته، وله دور في التغيير عندما يلتزم بقضية الوطن والمواطنين التزاماً حقيقياً.

إن الثقافة ليست مجرد تراكم مجموعة من القيم، بل تنطوي على التحرير الروحي للإنسان، من القيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تقف عائقًا أمام تطوره، وتحد من قدراته على الخلق، ولأن المثقفين هم ضمير المجتمع، ويحملون وعيه بالالتزام، ومنها مرتبة التطابق بين جوهر الإبداع الثقافي وجوهر حركة المجتمع، وخاصة التطابق بين وجدان المثقف ووجدان الشعب، مما يعني أن هناك تشابهًا بين إبداع المثقف، وإبداع المصلح الاجتماعي أو المناضل الثوري؛ لأن المصدر لكل هؤلاء هو الاستلهام الشعبي، ومعنى أن نفكر هو أن نعرف، ومعنى أن نعرف هو أن نفعل، أي أن نناضل في كل أوساط المجتمع.

إن المثقفين العرب في معظمهم، قد تخلوا عن دورهم الوطني والقومي، ولأن أحداثًا جسامًا مرت على الأمة وتمر بها، لم تجد من قطاع واسع من المثقفين الاهتمام اللازم، وكأن هذا القطاع يعيش في برج عاجي، على الرغم أن البحث عنه تجده في دهاليز مظلمة في أقبية السلطات الحاكمة، أو في الارتباط المشبوه مع مؤسسات التمويل المشبوهة، وهو ما يشكل سببًا من أسباب الأزمة الوطنية والقومية والأخلاقية، التي تمر بها الأمة فاحتلال فلسطين وغزو العراق واحتلاله، وجد لدى البعض تبريرات ديماغوجية أو تبريرات عدوانية، تنم عن ضيق في الأفق وضحالة في التفكير وتدنٍّ في المستوى الأخلاقي، وبعيدًا عن المفهوم الثقافي والدور المنوط بالمثقفين، فالاحتلال احتلال ولا تبرير أو تفلسف في تبريره، وإفرازاته عميلة مرفوضة

والتعامل معها لا يبرر إلا في التخندق الخياني، وعدم الوضوح في الموقف من مقاومة الشعب العراقي الباسلة هو طعن للأمة من الخلف، ولا تختلف مثل هذه المواقف من توجيه المارينز بنادقهم في وجه أطفال العراق، بل هي أشد خيانة، كذلك عدم الوقوف في وجه الشعوبية والطائفية هو تمرير للسياسات الإمبريالية والشعوبية المعادية التي تجري على أرض العراق، بالإضافة إلى ذلك اللامبالاة مما يجري على أرض فلسطين، من انتهاك لكل قيم الحق والعدالة من قبل الصهاينة المغتصبين.

إن المثقفين يجب أن يكونوا في طليعة من يقوم ضد ثقافة الخوف والتخويف، وسياسة الإرهاب الداخلي على أيدي أجهزة الأمن والمخابرات، إلى جانب ممارسات القمع والاحتلال الخارجي، على أيدي الدول الإمبريالية والكيان الصهيوني، وقد قال إدوارد سعيد: «المثقف الحقيقي هو من يقول الحقيقة للسلطة» وصحيح أن هذه الحقيقة جارحة، وهي لا تخرج عن إطار اللياقة واللباقة، وهناك فريق من المثقفين يغطي هزيمته الداخلية بتوجيه السهام إلى الدول الوطنية، التي منعت مواطنيها من الحرية والديمقراطية الحقيقية، لكن الصمت المريب لهذا التيار، تجاه التخويف القادم من الخارج، يجعله يحصر الخوف في أحادية الخوف الداخلي فقط، هذا التيار على حق في كشف الخوف والتخويف في الدولة الوطنية، ولكن صمته المريب إزاء عدوان الخارج يقلل من صدقيته، بالإضافة إلى عدم إدانته الواضحة والقوية، لممارسات الاحتلال الأميركي

للعراق وإفرازاته، وللكيان الصهيوني في ممارساته الدموية، هذا الأسلوب من المراوغة في هذا الموقف أو ذاك، هو إدانة صريحة لهذا التيار، أيًّا كانت البراقع التي يتستر بها؛ لأن المثقفين هم طليعة الأمة، فحري بهم أن يكونوا في الخندق الأمامي للدفاع عن هذه الأمة، في وجه العدوانين، القمع الداخلي والغزو الخارجي؛ لأنهما إرهاب منظم ضد الإنسان والفطرة التي فطر عليها، ورضي الله عن سيدنا عمر عندما قال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، كما أن سيد الخلق عليه الصلاة والسلام قد قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

المثقفون العرب مقعدون عن أداء الدور الوطني والقومي المنوط بهم، ومؤسساتهم فارغة من الحياة؛ لأنهم في كثير من مواصفاتهم لا تنطبق عليهم صفة مثقف، نظرًا للميوعة في منح العضوية في هذه المؤسسات لغايات بعيدة عن الهم الوطني والقومي والإبداعي، ولا يجوز تحت أي مبرر أن يكون لأي من الهمّين السياسي والإبداعي الأولوية على الآخر، فليس في ظروفنا مساحة لنظرية الفن للفن؛ لأنه لا بدَّ من الفن الملتزم، وليس هناك مجال في الساحة الإبداعية للسياسة كنضال سياسي مجرد من الإبداع، فالإبداع والالتزام وجهان لعملة واحدة، بالإضافة إلى ذلك سقوط المؤسسات الثقافية المدنية ولا أعني الرسمية، إلى أحابيل السلطات السياسية، وهي في وطننا العربي غير قادرة على أداء دورها، وفقدت مبرر وجودها، فالتبعية لها يلحق مؤسسات المثقفين بجوقة المزمرين

والمطبلين، إلى جانب كل هذا السقوط الأخلاقي لمن يطلق عليه لقب مثقف، عندما تخلى عن دوره الوطني والقومي لصالح السياسة الاستهلاكية، تحت مبررات وطأة الحياة وهمومها ومتطلباتها.

يشير فؤاد مرسي أيضًا إلى أن الأزمة في الظاهرة الثقافية على النحو التالي:

1. إنتاج ثقافي يتميز بالأمية وبضحالة الفكر، ويقوم على مسلمات غير مسلم بها، وليس له من وظيفة إلا الابتعاد عن الأمور الجوهرية، والانصراف إلى التفاهات.
2. محاولة تشكيل المثقفين ومن ورائهم المجتمع بروح القيم المادية والروحية الطفيلية.
3. سوء استخدام الأموال العربية المسماة بفوائض النفط لصرف المثقفين عن رسالتهم الثقافية الاجتماعية الحقيقية.
4. غزوة ثقافية أجنبية واسعة، وفتح الأبواب أمام مؤسسات مشبوهة، لتوريد أسوأ ما في ثقافة الغرب الرأسمالي، وقبول تمويل هذه الهيئات والمؤسسات للمعاهد ومراكز البحوث.
5. أزمة البحث في العلوم الاجتماعية والسياسية، مع محدودية الانتشار للدراسات القيمة والرائدة.

إن ثقافتنا في مأزق تنتج مثقفين بعيدين عن أداء الدور الثقافي المنوط بهم، ونحن في أمس الحاجة لأن نلتفت إلى الاهتمام بتلك المؤسسات

المنوط بها تشكيل الوعي الثقافي لدى الإنسان العربي، من أسرة ومدرسة وحزب ونقابة ونادٍ ومسجد وكنيسة، وكل ما له صلة بمؤسسات المجتمع المدني؛ لأن هذه هي حاضنة الثقافة، ومن بين جدرانها يولد المثقف، ونحن في أمس الحاجة أن تنسجم الثقافة مع أهداف الأمة، فليس من ثقافة مجردة، وليس من إبداع لذات الإبداع بل لا بدَّ من الأخذ بعين الاعتبار، أن الثقافة والمثقف في خدمة المجتمع، وقضايا الأمة الوطنية والقومية.

إن الكلمة بمثابة رصاصة توجه إلى صدر الأعداء، أعداء الأمة، فالثقافة ليست ترفًا، بل هي نضال ومعاناة، ومن لا يتحمل المعاناة في سبيل الموقف الوطني والقومي، والتخندق بخندق المجتمع وقضاياه، فهو ليس مثقفًا لأنه موظف يؤدي وظيفة يأخذ عليها أجرًا، كما يفعل الكثيرون من كتاب القطعة، فيستوي عندهم الموقف الوطني والموقف الخياني، كل ما يريدونه مقدار ما يدفع لهم على هرطقاتهم، التي لا تخدم أمة ولا تنهض بمجتمع ولا تسعى لإصلاح فاسد، بل هي تغطي رأسها حتى لا ترى بأم العين، ما يجري من تجاوزات قمعية داخلية، أو اعتداءات خارجية، فتبًّا لهذا النوع من الثقافة، وبؤسًا في وجه تجارها؛ لأنهم لا يفكرون إلا بما يفكر التجار، والثقافة ليست تجارة، بل خلق وإبداع ومعاناة، ومن لا يملك مواصفاتها، فليذهب إلى طريق آخر، لينضح من إنائه ما يشاء.

ثقافة المجتمع تحدد مصير ومسار هذا المجتمع، فإن كانت ثقافة ممانعة ومواجهة، فهي ثقافة تنوير حقيقي، تأخذ بالمجتمع نحو تحقيق

أهدافه في وجه كل ما يعوق حراكه الاجتماعي، والوصول بالتغيير نحو الرقي والتقدم، وإن كانت ثقافة استهلاكية تضع حاجزًا بينها وبين التغيير المنشود، فهي ثقافة معادية، تريد أن تحرف الأمة عن أداء دورها، في الوصول إلى الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، البوابات التي من خلالها يتمكن الإنسان العربي من تحقيق أهدافه في الوحدة والتحرير؛ لأن الأمة الممزقة لا تبني مجدًا، والعبيد لا ينهضون بمجتمع.

علينا ألا ننسى أن للتربية دورًا كبيرًا ومهمًّا في إنتاج الثقافة والمثقفين، مما يتطلب أن نوظف التربية بشكل صحيح، لأداء دورها في خدمة الإنسان القادر على صنع الثقافة وإنتاجها، بدلًا من الاقتصار على الاستهلاك؛ لأن الاستهلاك حالة غريزية حيوانية، والصناعة والإبداع حالة إنسانية، وقد كرمنا الله بالعقل والتفكير، فهل نحن في مستوى الكرم الإلهي؟ بأن نكون أعضاء فاعلين في المجتمع، والدفاع عن قضاياه وأهدافه الوطنية والقومية.

إن العلاقة بين التربية والثقافة علاقة تفاعل دائم وتأثير متبادل، إذ لا وجود لإحداهما دون الأخرى، فالتربية بمعناها العام ليست إلا الحياة الكلية للجماعة، تبدأ من نقطة خاصة هي التعلم للمعيشة في تلك الحياة التي تعبر عنها الثقافة، وبالمعنى الخاص تمثل التربية قوة ثقافية مؤثرة باستمرار من بين القوى الثقافية المختلفة في المجتمع، حيث لا يمكن أن تعمل التربية بمعزل عن المجتمع وثوابته ومتغيراته وقيمه ومقدساته،

وبعبارة أخرى لا يمكن التخطيط للتربية وتوجيهها على أساس سليم إلا في ضوء الفهم الواضح للأبعاد الثقافية.

التربية تغترف من الوعاء الثقافي العام للمجتمع، وتعتمد أهدافها على طبيعة وفلسفة وآمال ومشكلات المجتمع، وهي مؤسسة الثقافة، التي عن طريقها يبقى المجتمع ويستمر ويتقدم ويتطور، وتعتمد الثقافة على التربية اعتمادًا كليًّا متبادلًا، باعتبارها سلوكًا متعلمًا ومحصلة لها، وباعتبار أن عملية التنشئة الاجتماعية تشارك فيها جميع الدوائر الاجتماعية، التي تتمثل في وسائط الثقافة، ومن ثم فإن الثقافة تعتبر إطارًا تربويًّا عامًّا، يحافظ عليها وينقلها من جيل الكبار إلى جيل الصغار.

هل نحن إزاء ما سبق نلحظ أن أزمة الثقافة هي أزمة تربية أيضًا؟ ومن هنا نكون على صواب عندما ننعت بعض أدعياء الثقافة في سلوكهم، بأن السبب يعود إلى التربية، وهل ما يجري من حراك ثقافي على الساحات القطرية العربية؟ من تأزم وفقدان للبوصلة الثقافية والتربوية، هو وراء ما تعاني منه الأمة من فقدان لوزنها التاريخي والحضاري المنوط بها، من خلال رسالتها التي تحملها على أكتاف أبنائها، لبناء شخصية الأمة وشخصية الإنسان العربي، ومن خلال الأمة والإنسان للعالم أجمع.

هل يعي المثقفون العرب الدور المنوط بهم؟ وهل هم في وضعهم المتردي في مستوى هذا الدور؟ دور المقاتل في كل الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية، أم أنهم متقاعسون بالإرادة أو

بالقوة عن أداء هذا الدور، وهل في مقدورهم أن يخرجوا من شرنقة السجن الإرادي أو القسري؟ بالإيمان بالتضحية؛ لأنهم طليعة أمة وقدرهم التضحية والمعاناة، وما عدا ذلك فإنهم موظفون يقبضون أجورهم ولا يستحقون دور المثقفين، الذين يحملون على أكتافهم طموحات أمة تتعرض كل يوم للاغتصاب، في شرفها الوطني والقومي، وسحق كل تطلعات أبنائها نحو الوحدة والتحرر، لنا كل الأمل في مثقفينا على الساحة القطرية، وعلى امتداد الساحة القومية، أن يكون مكانهم الطبيعي خندق الأمة، وبشكل خاص مع المقاومة العراقية الباسلة، وانتفاضة شعب فلسطين العظيم، ومع كل ساحات المواجهة والصمود في وطننا العربي.

أمام ظاهرة الانفلاش والتميع في المشهد الثقافي، ومواقف المثقفين وعمليات الاختراق العديدة والخطيرة، من كل ما هو معادٍ للأمة، وممن يعمل جاهدًا لنشر ثقافة اليأس والتيئيس والإحباط في صفوف أبنائها، ممن ينفصلون عن الواقع، ويرتبطون بخارج سياج الوطن والأمة، يفضلون العيش على فتات موائد الأعداء والغرباء، نهشًا في جسد الأمة وتدميرًا لروحها، يعملون تحت يافطات عديدة ذات ألوان مزركشة، من مسميات الطابور الخامس وكتاب المارينز العرب وكتبة القطعة، وهؤلاء جميعًا ودون استثناء لا يمتون بصلة إلى الثقافة؛ لأن الثقافة موقف ومعاناة وإبداع، وليس لهؤلاء من نصيب من كل ذلك.

إن كثيرًا ممن يدعون الانتساب إلى فئة المثقفين هم من دون ثقافة، وهم انتهازيون متسلقون ينصبون من أنفسهم واجهات وعناوين باهتة، وفارغة من الإبداع والمواقف، وهؤلاء عقبة في طريق بناء ثقافة وطنية قومية، تلتزم بقضايا الوطن وأهداف الأمة، ومع ذلك ترى أن كثيرًا منهم ينصب من نفسه وصيًّا على الثقافة والمثقفين، ولا يخجل من أن يتصدر المهرجانات الخطابية والانتخابية، في المواقع التي يتواجد فيها عمل قطاع المثقفين.

إن على المؤسسات الثقافية أن تبادر إلى كنس كل الأجسام الغريبة من بين صفوفها، الذين تسللوا إليها من هذا الباب أو ذاك، ووضع معايير عضوية وانتساب دقيقة، تنطبق على التمثيل الحقيقي للعضو المنتسب، حتى لا تستغل هذه المؤسسات كيافطات يتم رفعها في كل زمان ومكان، لتمرير المواقف الانتهازية، حتى يتم دفع هؤلاء إلى الانتساب والادعاء بكل شيء ما عدا الثقافة؛ لأن الثقافة كما قلنا وكررنا القول موقف وإبداع، وهؤلاء بلا موقف ولا إبداع، ومن جهة أخرى على الذين يتصدرون المواقع الثقافية ألا يفسحوا مجالًا لكل كاتب استدعايات في رسم هلوساته على هذه المواقع، مع قناعتنا أن حال الثقافة من حال الأمة، ولكن على الرغم من حالات التردي، التي تنخر جسد الأمة، إلا أن هناك مواقع تنوير ثوري في بقع عديدة من الوطن العربي، متمثلة بالنضال الاستشهادي في العراق وفلسطين ولبنان، والعديد من ساحات الممانعة والمواجهة في بقع عربية أخرى، يجب أن نستلهم منها مواقفنا وإبداعاتنا، حتى نكون في

مستوى الحدث الجاري على الأرض ومستوى التحديات التي تواجهها الأمة، وإلا فإن حالات التدهور والانكسار هي التي سيكون لها الغلبة، وعندها لن يكون في مقدورنا جميعًا من كافة فئات المجتمع لوم الآخرين؛ لأننا لم نقم بالدور المطلوب منا على مستوى النضال الوطني والقومي، وفي المقدمة قطاع المثقفين، الذين عليهم مسؤولية مشعل التنوير كطليعة أمة، ولن نترك لأطفالنا ومستقبل أبنائنا أي زوادة، يسدون بها رمق الجوع الذي يصيبهم، جراء الخواء الذي يضرب الساحة من الثقافة الملتزمة والمثقفين الملتزمين.

إننا نرى ما يلي:

1. لا بدَّ من ربط الإبداع بالالتزام، فليس هناك مكان لفلسفة الفن للفن في أمة تتعرض للعدوان الدائم والمستمر، والتي تناضل في سبيل نهوضها وتقدمها.
2. رفض فصل الثقافة عن السياسة؛ لأن السياسة حراك يومي دائم، في مجريات ما يواجه الوطن، والثقافة تعبير عن هذه الحياة، ولا بدَّ من أن يكون المثقف سياسيًّا، كما يفترض في السياسي أن يكون مثقفًا، دون أن يكون لأي منهما الغلبة على الآخر.
3. محاربة كل المؤسسات الطفيلية، وتلك الممولة من الجهات المشبوهة، تحت يافطة التمويل الأجنبي المشبوه.

4. الحذر من الانزلاق وراء المواقف المعادية للوطن والأمة، فالثقافة رفض للهيمنة الخارجية، والقمع الداخلي، ولكل إفرازات العدوان والاحتلال.
5. كشف كل المواقف الانهزامية وتعرية أصحابها، ورفض تبريرات الخيانة الوطنية والقومية، تحت يافطة الادعاءات الكاذبة من الأطراف الإمبريالية والصهيونية، كالحرية والديمقراطية، وعدم التعامل مع الأطراف الخارجية، تحت يافطة حقوق الإنسان.
6. تعرية السلطات المحلية القمعية، التي تريد توظيف المثقف، لتبرير عدوانيتها على الحريات العامة، ورفض تبريرات المثقف بالعمل كموظف، وليس كحق مشروع في مؤسسات الوطن والدولة.
7. العمل على خلق مؤسسات ثقافية إبداعية لحماية المثقف المبدع والملتزم، من تغول السلطة المحلية، ومحاربة أساليب الهيمنة الخارجية بحق المثقفين.
8. تحصين الثقافة والمثقفين من الاختراق الداخلي والاستهداف الخارجي.
9. تحرير المثقفين من مؤسسات دور النشر التجارية، التي تتغول على جهد وإبداع المثقف، ومساعدة المثقفين أنفسهم على تأسيس دور نشر، تعني بإنتاجهم في ظل ظروف أكثر إنصافًا.

10. خلق حالة تواصل بين كل الساحات العربية، من خلال حق الكاتب المبدع والملتزم أن يتواجد في كل الساحات العربية، دون أي عقبات.
11. إلزام كل المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية ومؤسسات المجتمع الأخرى، في اقتناء الكتاب الوطني، لمساعدة الكاتب على الانتشار إلى جانب الدعم المادي.
12. سد الأبواب في وجه كل الانتهازيين والمتسلقين في التصدر لقيادة المؤسسات الثقافية، من خلال الالتزام الأدبي والأخلاقي في انتخاب من يملك القدرة على الوفاء بشروط الالتزام.
13. الإيمان بدور الأمة وحقها في النهوض، والعمل بعيدًا عن بث ثقافة اليأس والإحباط.
14. محاربة الأمية الثقافية في كل المؤسسات الثقافية والوقوف في طريق حامليها ومروجيها.
15. التأكيد على حق المثقف بالعيش الكريم، من خلال توفير فرصة عمل له في مؤسسات القطاع العام، وإعطائه هامشًا من الحرية، من أجل مساعدته في الاستمرار بالعطاء.

ثقافة البحث العلمي

لقد أصبحت الحاجة إلى الدراسات والبحوث في التعليم أشد منها في أي وقت مضى، نظرًا لأن العلم والعالم في سباق، من الوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعرفة الدقيقة، المستمدة من العلوم التي تكفل الرفاهية للإنسان، وتضمن له التفوق على غيره، خاصة وأن قوة الدول أخذت تعتمد على مقدار تقدمها العلمي، وحجم الاختراعات العلمية ومستواها، بالإضافة إلى حجم الإنفاق والاستثمار في مجال البحث العلمي، ويحتل البحث العلمي في الوقت الراهن مكانة مميزة في تقدم النهضة العلمية، حيث تعتبر المؤسسات الأكاديمية، هي المراكز الرئيسة للنشاط العلمي الحيوي، بما يتوفر لها من وظيفة أساسية في تشجيع البحث العلمي، وتنشيطه وإثارة الحوافز العلمية لدى الطالب والدارس، حتى يتمكن من القيام بمهمته على الوجه الأكمل.

إن تنمية البحث العلمي وتشجيعه لا بدَّ وأن تبدأ بالطالب، منذ جلوسه على مقاعد الدراسة في مراحل تعليمه الأولى، وقبل أن يدخل بوابة الجامعة، وأن تستمر سنوات إعداده في الحياة، حتى بعد تخرجه من الجامعة، ومن الواضح أن توظيف أساليب البحث العلمي والتدرب على استخدامها، تهيئ للإنسان سبل الإبداع وحسن توظيف معارفه وعلومه المكتسبة، وتعمل على تنمية قدراته، بحيث تساعده على تجاوز العقبات وحل المشكلات، التي تعترض حياته اليومية.

إن العلوم والتقنية لا يمكن لها أن تزدهر في أي مجتمع دون بناء القاعدة الأساس لأنشطة البحث العلمي، فمثل هذه القاعدة هي نقطة الانطلاق والوسيلة الوحيدة لتطوير المعرفة والمخترعات والتجديدات، ولا يتطور المجتمع وينجح في خططه التنموية وإنجاز مشاريعه في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، دون تطبيق المعرفة والمهارات التقنية.

يشهد تطور العالم أن التقنية والعلوم هي أسلحة الدول المتقدمة للسيطرة على الدول النامية، والعمل على إخضاعها، ونهب ثرواتها، والحكم عليها في موقع التبعية، وفي ضوء ذلك ليس أمام الدول النامية، ومنها دول وطننا العربي إلا العمل الجاد في سبيل اللحاق بالثورة التقنية، التي تسود العالم، من خلال بوابة البحث العلمي؛ لأن البديل عن ذلك هو التخلف، الذي يضر بالدول والمجتمعات والأفراد.

يعاني عالم الدول النامية من عدم المساواة في نمط الاستثمار في البحث والتطوير، حيث يتركز الاستثمار في الدول الأوربية واليابان والولايات المتحدة الأميركية، في الوقت الذي لا يزيد الاستثمار في عشرات دول العالم عن أصابع اليد الواحدة، من نسبة الاستثمار الكلي، ويظهر ذلك جليًّا في التقدم النسبي لدرجة النمو في هذه الدول.

يبرر القائمون على تسيير الأمور في الدول النامية، التعثر في سياسة البحث العلمي بقيود، تتمثل في الإدارة السياسية التي تتولى توفير الموارد: القوى العاملة المدربة، المؤسسات، الأموال، الخدمات، وعزلة خطط التنمية عن الدراسات حول العلوم والتقنية، ويضع آخرون اللوم على

الاستعمار قديمه وحديثه، والدور الهدام للشركات عابرة القارات، والنظام الاقتصادي الدولي غير العادل والمتحيز للدول المتقدمة.

إن كل هذه التبريرات مجتمعة صحيحة، ولكن الأهم منها جميعًا هو تقاعس القائمين على تسيير الأمور في الدول النامية، في السعي لرسم سياسة بحث علمي في أوطانهم، وبشكل خاص تدني النظرة لأهمية ودور البحث العلمي، على الرغم أنهم على علم ودراية أن المفتاح الحقيقي لتطور الدول المتقدمة هو الإنجازات العلمية، التي يتم تحقيقها يوميًّا على أرض الواقع، بفضل البحث العلمي، وما يلاقيه من دعم وتشجيع وإنفاق مالي، واحترام وتقدير للعاملين في مجاله، والعمل على إيجاد مجتمع علمي، من خلال القراءة والمتابعة، في الوقت الذي نجد أن مجتمعات الدول النامية تلهث وراء رغيف الخبز، وتكد وتتعب في سبيل غذاء البطون، دون إدراك ووعي لأهمية غذاء العقول.

كثيرًا ما نشكو أن عادة القراءة شبه معدومة في أوساط مجتمعنا، وكثيرًا ما يعيش الكتاب والمؤلفون والباحثون فقراء، دون أن يكون هناك أي اهتمام ودعم من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، ومع أننا أمة بدأ كتابها بكلمة اقرأ، إلا أننا أصبحنا أمة لا تقرأ، والسبب وراء ذلك تقصير في السياسات التربوية، وجهل في القائمين على التربية والتعليم والتعليم العالي، وكل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، المعنية في أهمية أن يكون لدينا مواطن قارئ، يملك القدرة على استخدام العقل، ويستطيع استثمار سعة المعرفة.

إن التفرغ للبحث العلمي في بلادنا تعني الفقر والجوع، على الرغم أن الكثير من الباحثين يهتمون بطموحاتهم التعليمية والثقافية، أكثر بكثير من المردود المادي، والبحث من أجل البحث ينظر إليه بعين من الارتياب، إن لم يكن بالاستياء؛ لأن حب الاستطلاع الذي يصاحب الباحث، يجب أن يخضع للتوجيه، وأن المجتمع يجب أن يكون له القول الفصل في التحكم في وجهة البحث العلمي، وفي سرعة انطلاقه وتطبيق نتائجه. (ديكنسون)

ومع محاولات البعض منا في بث ثقافة البحث العلمي في أوساط المجتمع، إلا أن فهم ثقافة البحث العلمي هذه ما زالت متدنية؛ لأننا لم نتمكن من التخلص من سلوكياتنا اليومية، التي نتعامل فيها مع الحياة والناس، فالمصداقية والشفافية والموضوعية والأمانة العلمية مفردات كثيرًا ما نرددها، ولكن عند الممارسة العملية تغيب تمامًا؛ لأنها غير متجذرة في وعينا، ومن هنا كان تعاملنا مع الباحثين بقدر من عدم الفهم لقدراتهم ومجهوداتهم، مع أن ما يقوم به الباحثون من جهد يشكل عنصرًا في تكوين الثروة، ومن هذا المنطلق لا بدَّ من الاعتراف بالبحث العلمي، وتقدير الباحثين وتوفير احتياجاتهم ومستلزمات عملهم وطرق معيشتهم؛ لأنهم ثروة وطنية تتجاوز مجهوداتهم الفردية، والبحث العلمي يجب أن يعامل على أنه نشاط له أهميته في تكوين الثروة القومية، وأن الباحثين هم الذين ساهموا في تكوين مثل هذه الثروة للمجتمع بكل عناصره، وبالتالي لا بدَّ وأن يتوفر لدينا مهنة العمل في البحث العلمي، وأن يتوفر لهذه المهنة والمنتسبين إليها حقوق مادية ومعنوية، تقوم الدولة والمجتمع على

تحقيقها، مع عدم إغفال ما يجب أن يلتزم به هؤلاء من واجبات، يفرضها عليهم الانتماء للمجتمع، وتحقيق شروط هذا الانتماء.

إن الدائرة التربوية الواسعة التي تشمل البيت والمدرسة والإعلام والمؤسسات العلمية ومواقع العمل والنشاطات اللامنهجية والجمعيات والروابط، هي المسؤولة عن تنشئة جيل من العلماء، والعمل على تنمية قدراتهم الإبداعية، وعلينا أن ندرك أن النظام التربوي في أي مجتمع هو نتاج للعوامل والمؤثرات والمعطيات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي تحكم ذلك المجتمع، وهي البيئة التي تشكل النظام التربوي، وبالقدر الذي تكون فيه هذه البيئة متطورة يرقى النظام، ومن هنا يتحمل هذا النظام مسؤولية حالة التخلف والتبعية التي نعاني منها، مما يعني، أهدافًا تربوية، واستراتيجية وسياسة تربوية جديدة لا بدَّ منها، يصاحبها إعداد متكامل في جميع الجوانب العملية التربوية، من إدارة ومعلمين ومناهج وطرق تدريس... إلخ، حتى نتمكن من تشكيل بنية علمية حقيقية هدفها ومحورها الطالب، الذي يجلس على مقاعد الدراسة في المراحل التعليمية المختلفة.

إن البلدان المتقدمة تقوم على تدريب طلابها على كتابة التقارير والبحوث حسب القواعد المرعية، بحيث يتمكنون من استعمالها بسهولة ويسر، عند التحاقهم في المراحل التعليمية المتقدمة من التعليم، وخاصة الجامعي لمتابعة علومهم، ولهذا فهم ينشؤون على دراية بالنماذج والقواعد لكتابة التقارير والبحوث، وهم يتعلمون أسلوب التفكير العلمي وطرق حل

المشكلات بطريقة علمية منظمة، ومع ذلك فإن الأساليب النظرية في تعليم الطلبة على البحث العلمي وكتابة التقارير غير كافية، ولا بدَّ أن يتبعها جهد في التطبيق العملي، والتمرن على استعمالها لإجادتها، مما يفرض متابعة واهتمامًا متزايدًا، من قبل الطلاب وأعضاء هيئة التدريس (المعلمين)، والقائمين على البحوث والتقارير، وتضافر جهودهم مع دعم ومؤازرة الإدارات التعليمية في مختلف مستوياتها.

إن البحث العلمي محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها والعمل على تنميتها وفحصها وتدقيقها بتقصٍّ دقيق ونقد عميق، من أجل عرضها عرضًا مكتملًا بذكاء وإدراك، لتسير في ركب الحضارة العالمية، وتسهم فيه إسهامًا إنسانيًّا حيًّا شاملًا، وهو ما يحتاج المعلم اليوم، بديلًا عن أسلوب حشو المعلومات، فالتعلم الذي أصبح السمة الرئيسة لأسلوب التعليم، الذي بقدر ما يجعل من المتعلم/ الطالب، هو محور العملية التعليمية، يجعل منه عنصرًا فاعلًا في التعليم والتعلم، بمشاركته الفعالة وتشجيعه على البحث عن المعلومة والتبصر بها وتحليلها والتعليق عليها، وإن البحوث القصيرة التي يكتبها الطالب في المدرسة، تساهم في تعويده على التنقيب عن الحقائق، واكتشاف آفاق جديدة من المعرفة، والتعبير عن آرائه بحرية وصراحة، ولا بدَّ أن يمتلك طالب العلم القدرة والمعرفة والرغبة، القدرة اللغوية والعلمية للبحث عن الموضوع المعني بالبحث، فمن غير المعقول أن يقوم الطالب بكتابة بحث غريب اللغة، أو الكتابة في موضوع غير معروف لديه، إذ لا بدَّ من توفر عنصر المعرفة.

لا بدَّ من الفهم أن التعليم تراكمي وسلسلة متصلة ومتكاملة، فكل مرحلة مهيأة ومكملة لما بعدها من مراحل، فمخرجات الثانوية العامة تؤثر في مدخلات التعليم الجامعي، كما أن مخرجات التعليم الأساسي، تؤثر في مدخلات التعليم الثانوي، مما يعني أن تكون سياسة تعليم ثقافة البحث العلمي عملية متدرجة، تبدأ بالتعليم الأساسي بكتابة التقارير، والعمل على أسلوب النقد والتمحيص والتحليل، بالقدر الذي يتناسب ومستوى هذه المرحلة، وهكذا في المرحلة الثانوية، حتى يصل الطالب إلى الجامعة، يكون في مقدوره أن يتعامل مع البحث بيسر وسهولة.

علينا أن نعي تمامًا أن الطالب على مقاعد الدراسة سواء أكان في مرحلة التعليم الأساسي أو الثانوي، يحتاج إلى توعية وإرشاد ومتابعة، مما يتطلب وجود معلم قادر على بث ثقافة الوعي بالبحث العلمي، وأن يكون على دراية تامة بخطوات البحث العلمي، ومعرفة حقيقية بإمكانية توظيف الفعاليات والنشاطات المدرسية، باتباع الأسلوب العلمي في التعامل معها، والقدرة على توليد الأفكار، وحث الطلاب على الإبداع والابتكار، فدون وجود معلم كفء في تناول مادته التعليمية بالأسلوب العلمي، واستخدام وسائل وطرق البحث العلمي، فإننا لن نصل إلى نتيجة إيجابية في توعية طلابنا بالبحث العلمي، إلى جانب ذلك وجود إدارة تعليمية متعاونة ومستعدة لتوفير كافة مستلزمات البحث العلمي، من مكتبة ومختبر، والعمل على تذليل العقبات، وتوفير السبل للاتصال بالمؤسسات وشرائح المجتمع ومؤسساته، لمساعدة الطلاب على القيام بواجباتهم البحثية.

إن المدرسة قادرة على زيادة الوعي بالبحث العلمي بين طلابها، من خلال مساهمتها في النشاطات والفعاليات اللامنهجية، والتعاون مع المؤسسات ذات العلاقة خارج أسوار المدرسة، كالنوادي العلمية والمعارض والندوات والمحاضرات وورش العمل والجمعيات... إلخ، بحيث تساهم في تعزيز هذه الثقافة، ومن أجل بناء جسور في ما بين النشاطات المدرسية المنهجية والفعاليات والنشاطات اللامنهجية، في مجالات تخدم البحث العلمي.

علينا أن نعي دائمًا أن ثقافتنا وديننا، قد جعلا العلم والإيمان صنوان لا يفترقان، حتى قال عنهما رسول الله (ﷺ) إنهم ورثة الأنبياء، وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- أنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

علينا أن نسعى لكي نكون أهلًا للانتساب لأمتنا، التي خدمت العلم والعالم بإنجازات علمية مشهودة، وإننا لقادرون أن نربي أبناءنا تربية علمية حقيقية، من خلال فهم أساليب البحث العلمي، والتدرب على استخدامها منذ نعومة أظافرهم، ومع بدايات جلوسهم على مقاعد الدراسة.

وحدها التربية القادرة على خلق علماء ومبدعين، ومن خلالها نستطيع أن نمتلك ناصية العلم، وعن طريقها يمكننا أن نلج بوابة التقدم والتطور، فالعلم والمعرفة والبحث العلمي، ليس مرهونًا بالجنس أو العرق أو المذهب أو الدين، فالإنسان الذي حباه الله بالعقل قادر على أن يستخدم

هذا العقل، ولكنه يحتاج إلى بيئة يعيش في كنفها سبل وطرق التعامل مع الحياة، والقدرة على استخدام العقل في مواجهة المشاكل، وإيجاد السبل العلمية القادرة على تخطيها، والتمكن من الإبداع في ما يخدم أمته ومجتمعه والإنسانية.

إن التربية بوجهيها المدرسي واللامدرسي معنية في التعاون والتعاضد في نهج سياسة علمية، حتى يتمكن من هو على مقاعد الدراسة ومن هو خارجها، من استثمار ما لديه من طاقة، وحتى لا تضيع جهود وإمكانيات الكثيرين؛ لأنهم خارج الأسوار المدرسية النظامية؛ لأن النشاطات اللامنهجية لا تقل فاعلية وأثرًا، عن تلك التي تحدث داخل الغرف الصفية، وفي مختبرات التعليم الرسمية.

لسنا بحاجة إلى أن نضرب العديد من الأمثلة لأبناء الدول النامية، الذين لم يوفر لهم نظامهم التربوي، ولم تتوفر لهم البيئة الصالحة لاستثمار مجهوداتهم العقلية، وتوظيف إبداعاتهم وعبقرياتهم، إنهم قد أبدعوا في الغرب، وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأميركية، عندما توفرت لهم إمكانيات استثمار هذه الطاقات الخلاقة، التي يتمتعون بها، فأبدعوا في جميع المجالات العلمية.

الثقافة والهوية

يبدو أن هناك إشكالية لدى الكثيرين في التمييز بين الثقافة والهوية، إذ تبدوان أنهما وجهان لحالة واحدة، فمن الصعب تناول الهوية بمعزل عن الثقافة، ورغم أن لمفهوم الثقافة ومفهوم الهوية -إلى حد كبير- مصيرًا مترابطًا، إلا أنه لا يمكن التطابق بينهما دون قيد أو شرط، فالثقافة تخضع إلى حد كبير إلى صيرورات لا واعية، أما الهوية فتستند على معيار انتماء واعٍ.

استخدم مصطلح الثقافة بأوسع معنى له، إذ يشتمل على المؤسسات وأشكال السلوك، التي تنتقل داخل المجتمع، والتي تتضمن السلع المادية، وكذلك العلاقات الاجتماعية والسياسية، وتؤكد على وجود بعد ثقافي لكل جانب من جوانب الحياة والنشاط الإنساني، والتي ترتكز إلى المعايير والمؤسسات الثقافية.

إن الثقافات الإنسانية المختلفة يمكن تميزها بشكل عام بعضها عن بعض، إلا أن كلًّا منها يتسم بتنوعه الذاتي الداخلي، وتأثيره المتبادل في علاقته بغيره من الثقافات، ومن الخطأ الافتراض أن التاريخ والسياق الخاص لا معنى لهما تمامًا، كإنكار إمكانية وجود قيم ومؤسسات وملامح مشتركة، وواقع التنوع عبر الثقافي يجعل من الممكن الحديث عن ثقافات خاصة محلية، وقومية، وإقليمية، أو عن الثقافات المعرّفة باللغة، والعرق، والدين، وغيرها، وتمنح المعايير والعادات والتاريخ المشترك داخل

الجماعة تماسكًا لفكرة الثقافة المشتركة، حتى مع وجود تداخلات مع الجماعات الأخرى، ولا يجب أن يكون ذلك على حساب الاعتراف بالتنوع والتناقض داخل كل ثقافة، وفي الوقت نفسه لا ينبغي أن يقود الاعتراف بالفروق بين الثقافات إلى حسبان أن بعضها شديد الاستثناء والتفرد، لدرجة تنفي إمكانية التحليل المقارن مع غيرها من الثقافات.[1]

يعرف مجمع اللغة العربية الثقافة بأنها: «العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها».[2]

ومن منظور علم الاجتماع يشير إلى طريقة الحياة التي تتمكن جماعة بشرية من تأسيسها لتكون مقبولة من جميع أفراد الجماعة، وملائمة لهم كمجموع، وتشمل أساليب الإدارة وآلياتها، ونمط التفكير، وآداب السلوك والمعتقدات، أو منظومة الأخلاق والقيم التي تحكم الجماعة، وكذلك اللغة، ونمط العيش بما يتضمنه من مسكن ومأكل ومشرب، ومن علاقات وأنظمة وسلوك تؤسس التواصل بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، وبين الفرد والطبيعة، وبينه وبين الوجود.

الثقافة إذن هي جماع الأنظمة المادية والروحية التي ابتكرها الإنسان لتحكم سلوكه في ما هو ذاهب إلى الارتقاء بهويته وذاته ونمط حياته، والإعلاء من شأن وجوده في الحياة عبر الانخراط في صيرورة هي الثابت الوحيد في هذه الحياة، ومن خلال الاحتفاظ بأبنية ثقافية تحملها اللغة إلى الأجيال اللاحقة كي تسكنها وتتولى تعديلها أو إعادة إنتاجها وفق حاجاتها وشروط تطورها.

في العام (1985)، عرفت منظمة اليونسكو الثقافة بأنها جميع معارف الإنسان المتعلقة بالطبيعة والمجتمع.[3]

لقد أحصى إدوارد تايلور ما يزيد على مئتي تعريف للثقافة، وخلص إلى تعريف شامل تمثل في مقترح مفاده، أن: «الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفنون والآداب والأعراف والقوانين وغير ذلك من منجزات الإنسان كفرد أو كمجتمع».

الثقافة أوسع من مجرد الإبداع الأدبي والفني أو الفكري لتصبح حاضنة لإبداعات وابتكارات جديدة ولوسائل وأدوات وأساليب وطرق عيش مبتكرة أو منقولة، تشبع حاجة ضرورية أو تكون كمالية تتوخى الترفيه أو التزيين أو التجميل، هادفة في كل حال إلى تيسير الأمور وتسيير الحياة وحل المشكلات وحفظ المآثر والمنجزات وإشباع الرغبات وتلبية الأشواق.[4]

يستدعي مصطلح الهوية ليشير إلى شيء يتميز بالوضوح والثبات والاستقرار، ومن الواضح أن الناس ينظمون حياتهم لتكون أكثر انفتاحًا ومرونة، مما يتيح لهم مدى أوسع من بدائل السلوك، والتي يمكنهم تبريرها، من خلال المعاني والمنظومات الثقافية والدينية، وتكون الهوية وتحولها ليس أمرًا ثابتًا أو محتومًا، بل هو عملية دينامية، تتطلب اختيارات متروية مدروسة، فالأفراد يكوّنون المعاني والقيم من خلال الرموز الثقافية، التي تتشاركها جماعات معينة لكنه ليس نادرًا أن يتنقل الفرد بين تلك الرموز، في مسيره بين الهويات الثقافية الاجتماعية المتنوعة، وتتضمن تلك الرموز علاقات بدائية، كالانتماءات اللغوية والدينية، والتي يتم تعلمها أو

تكونها في مرحلة مبكرة من العمر، وكذلك رموزًا حديثة يتم تعلمها في مراحل لاحقة من العمر.

يعرف محمد عمارة: (الهوية العربية الإسلامية) «بأنها جوهر وحقيقة وثوابت الأمة العربية التي اصطبغت بالإسلام منذ أن دانت به غالبية هذه الأمة، فأصبح (هو)، الهوية المتمثلة لأصالة ثقافتها، فهو الذي طبع ويطبع، وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته»، فعاداتها وتقاليدها وأعرافها وآدابها وفنونها وسائر علومها الإنسانية والاجتماعية، وعلومها الطبيعية والتجريبية، ونظرتها للكون، وللذات، وللآخر، وتصوراتها لمكانة الإنسان في الكون، من أين أتى؟ وإلى أين ينتهي؟ وحكمة هذا الوجود ونهايته، ومعايير المقبول والمرفوض، والحلال والحرام، وهي جميعها عناصر لهويتنا».[5]

تعرف الهوية أيضًا بمعنى «التفرّد»، فالهوية الثقافية تعني التفرد الثقافي بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة.[6]

وتعرف الهوية بأنها «مركب» من العناصر المرجعية والمادية والذاتية المصطفاة، التي تسمح بتعريف خاص للتفاعل الاجتماعي.[7]

ويفسرها تركي الحمد في كتابه «الثقافة العربية في عصر العولمة»: الهوية طالما أنها مركب من عناصر فهي بالضرورة متغيرة، في الوقت نفسه تتميز فيه بثبات معيّن، مثل الشخص الواحد يولد ويشبّ ويشيخ، وتتغير ملامحه وتصرّفاته وأحيانًا ذوقه، لكنه يبقى في الخير هو نفس الشخص وليس شخصًا آخر.[8]

الدكتور أحمد بن نعمان يذهب في تعريفه للهوية إلى أبعد من ذلك، إذ يحدد مفهومها لغويًّا أولًا، ثم مفهوميًّا: إن مفهوم «الهوية» من ناحية الدلالة اللغوية هي كلمة مركبة من ضمير الغائب «هو» مضاف إليه ياء النسبة، لتدل الكلمة على ماهية الشخص أو «الشيء» المعنى كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها، والهويّة عنده بهذا المعنى هي اسم الكيان أو الوجود على حاله، أي وجود الشخص أو الشعب أو الأمة، كما هي بناء على مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه، دون اشتباه مع أمثاله من الأشياء.

وفي كتابه «التعريفات» يعرف الجرجاني الهوية بأنها: الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق.[9]

أما قاموس أكسفورد، فإنه يعرف الهوية بوصفها «حالة الكينونة المتطابقة بإحكام، أو المتماثلة إلى حد التطابق التام أو التشابه المطلق»، والكينونة تتعلق بالشيء المادي أو بالشخص الإنساني.

إن مفهوم الهوية لا يجب أن يؤخذ بالبساطة العفوية، إذ لا يزال يلقى الكثير من الغموض، فهناك من المفكرين من يصل به الأمر إلى حد القول بأن الهوية لا وجود لها أصلًا، ذلك أن الهوية الشخصية تفترض أن يبقى الإنسان نفسه على مر الزمن، أما الهوية الجماعية فهي أكثر إشكالية، الهوية الجماعية تفترض التماثل التام، في ال (نحن) الجماعية، بينما البشر مختلفون تبعًا لطبيعة الظروف التي تكونوا في إطارها، وتبعًا للبيئة التي يحيون فيها ومكوناتها الحضارية والثقافية والاجتماعية، وهذا ما عبر عنه

الفيلسوف «ديول ريكور» بالقول (إن أهواء الهوية متجذرة فينا بعمق، وليس هناك أي شعب يعاني منها أكثر من شعب آخر).

يبقى سؤال الهوية في مقدمة الأسئلة الفكرية الأكثر إلحاحًا، بل والمعرفية عندنا نحن العرب:

- من أنا.
- ما علة وجودي وما غايته؟
- ومن هو الآخر؟
- ما الذي يميزني عنه؟
- ما يربطني به؟
- ما وجوه الاختلاف بيننا؟

ولكم نخطئ عندما نحصر سؤال الهوية في صيغة: من نحن؟ ومن هو الآخر؟ ولا نحصره في الآتي: كيف نحن؟ وكيف هو الآخر؟[10]

السؤال في الصيغتين هو سؤال الهوية، فالصيغة الأولى تحيلنا إلى ماهية «الهوية» وجوهرها، أما الصيغة الثانية فتحيلنا إلى الواقع والتاريخ، الصيغة الأولى تدعو إلى التأمل وإعمال الفكر، في حين أن الثانية تدعو إلى التحرك الإيجابي الفعال والمشاركة ليس في صياغة التاريخ، بل في صنعه إلى جانب الآخر.

هناك صيغة تحصر «الهوية» في مجال الفكر والثقافة، بل هناك من يغلب عليها «التراث والفلكلور والثقافة الشعبية»، وصيغة ثانية تضعها في مجال التاريخ والصيرورة الاجتماعية للتاريخ المتحرك أمامًا وليس خلفًا، تاريخ إنتاج البشر لوجودهم في جميع مجالات الحياة، فيرتبط لديها مفهوم

«الهوية» بالفاعلية الإنسانية الحيّة وبفكرة التغير والتقدم، الصيغة الأولى تقليدية في نظرتها إلى «الهويّة» ترفض الاختلاف والتعدد، نافية للواقع الفعلي، نافية للحرية الفردية، فالجماعية، ولا يمكننا تناول موضوع الهوية بمعزل عن جملة من المسائل المتداخلة وجملة من التأثيرات الداخلية داخل المجتمع الواحد، والحراك الدولي والتداول الاقتصادي والمالي والثقافي، والصراع على النفوذ والسلطة داخل المجتمع وعلى الصعيد الدولي: فالهوية لأي مجتمع ليست أمرًا ثابتًا سرمديًّا داخلي المنشأ، بل يرتبط تطورها بالمؤثرات الخارجية وبالتداول الدولي للأفكار والثقافات والحضارات وبالصراع على السلطة داخل كل مجتمع.[11]

لقد أتى سؤال الهوية بمدلولاته المختلفة محمولًا على ثلاثة أمور:

1. طرح الحداثة الغربية كنموذج يجب تمثله والتزامه.
2. ما جد من أسئلة وجدل حول دوائر الانتماء الثقافية والجغرافية المختلفة.
3. صعود عصر القومية دوليًّا وعربيًّا، وتصورات الأمة –الدولة كطريق للوحدة– وخاصة التصور اللغوي والثقافي لها.

بعيدًا عن التصور اللغوي والتقليدي والذي غلب على استعمال المفهوم في علوم اللغة والفقه –مقابلًا للهيئة– أو الهوية في بحث الأسماء والصفات، حمل مفهوم الهوية مضامين أخرى عليه وإن ارتبطت بمعناه الثقافي، جعلته يمتد ويؤكد على اكتشاف أمرين مهمين:

1. عناصر التميز للجماعة عن الآخرين، وهي عوامل الثبات فيها.

2. تصورات الجماعة للآخرين وعناصر الاندماج معهم، وفق موقع الذات الذي يحدده العنصر الأول، وهي فعل الثبات في التاريخ وممكناته.[12]

لقد ذاع مفهوم الهوية عالميًّا وعربيًّا منذ ستينيات القرن الماضي، ومع الصعود القومي في منطقتنا بفعل شدة الصراع الدولي أو الثقافي منذ هذا التاريخ، واهتمام العديد من المجالات العلمية بدراسته، والهوية تتحقق في مجال الاتصال بالآخرين حتى يصح القول إن هوية الفرد الواحد تتبدل حسب اتصالاته ومواقفه ومواقعه المختلفة، فالهوية معطى من الآخرين وانعكاس ظاهر وكامن لمواقفنا منهم وردود فعلنا عليهم، فهي رغم ثباتها فإنها صيرورة في التاريخ كذلك.[13]

إن العلاقة بين الثقافة والهوية علاقة تلاحم، وكل خلخلة أو اختراق للثقافة يؤدي إلى إضعاف لمكونات الهوية، وقد يؤدي إلى تفتيت لها في المستقبل، والخطاب في ما يتعلق بـ «الهوية» أصبح عامًّا وشاملًا في جميع مساحات العمل الفكري، سواء في الدول الضعيفة أو في الدول المتقدمة، لقد قال المؤرخ غروسير «إن هناك كلمات قليلة أخذت هذه الأيام البعد الذي أخذته كلمة الهوية، فالهوية تحتل الصدارة في النقاشات الفكرية»، والفرد من خلال الثقافة يتعرف على هويته، والثقافة هي البوصلة للمجتمع، مما يعني أن المساس بأحد عناصر الثقافة، أو التأثير عليها هو مساس بـ «الهوية».

الثقافة ذات بعد وطني ومجتمعي عظيم فهي صانعة هوية يصنعها الإنسان وتصنعه، وهي بانية للأوطان والمجتمعات والأمم، وهي حافظة

تراثها وتاريخها، وسجل حاضرها، وقاعدة تطورها المستقبلي ونمائها، وإذ تدين الهوية للثقافة بوصفها صانعتها، فإن للثقافة أن تلعب دورًا بالغ الأهمية في تجنب خلط الأمة بالدولة، وذلك لأن الثقافة من الرحابة والاتساع ما يمكنها من استباق الدولة، ومن تحديد الهدف النهائي لدستورها.

الثقافة في كل التعريفات التي تتناوله فهو مفهوم، أما الهوية فهي مفهوم يتعلق ويتماهى مع مفهوم من خلال ثقافته، التي يعيش فيها، فدور الثقافة والأخلاق والسيكولوجيا ثقافي تاريخي يتكون لدى الفرد والمجتمع، هو تكريس هوية خاصة بكل تكوين ثقافي من خلال عملية تمثل وجودي ووجداني السائدة في كل أمة، وطبيعة الثقافة بالنسبة للفرد بتثقفه بثقافة وأخلاق وسيكولوجيا معينة نتيجة انتمائه، وتفرضه اندماجات تاريخية وثقافية ونفسية، لكن هذا الاندماج يحتاج على الدوام إلى تفاعل التكون النفسي مع عملية التاريخ في خلق الهوية، بصفته الرحم الذي تنمو فيه واقتصادية تستغرق زمنًا ليس بالقصير مما يؤكد أهميته، ودونها يمكن تصور وجود هوية طبيعية وسليمة، يقول الدكتور منيف الرزاز: «التراكم التاريخي ضروري لصنع الهوية الثقافية لأنها في النهاية هي المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها وبين الظروف الطبيعية والتاريخية التي مرت بها والتي نسجت في ما بينها روابط مادية روحية مشتركة، أهمها وأعلاها رابطة الدين واللغة».[14]

إن اللغة شرط لقيام الهوية الثقافية لا سببًا من أسبابها، ومتى صارت لغة جماعة أو جماعات معينة أصبحت حاملة الميراث الأدبي الثقافي لهذه

الجماعة أو هذه الجماعات ومخزون هويتها وهنا يكمن سر أن اللغة أهم عنصر من عناصر الهوية، واللغة تختزن ثقافة الأمة وتشكل الأداة الرئيسة للتفاهم بين أبنائها ولهذا فهي العنصر الأبرز في تشكل هوية أمة من الأمم وتميزها عن غيرها، يتمكن الإنسان بصفته عضوًا في جماعة متكونة أن يعبر عن ذاته فإنه يدرك أنه بحاجة للاتحاد مع بقية أبناء أمته، الذين يشاركونه اللغة والمناخ السيكولوجي والثقافي منذ آلاف السنين، من هنا كانت اللغة أبرز مظاهر الهوية بالنسبة للأمم والشعوب، لكن هذا لا يعني أنها العنصر الوحيد، بل هناك الدين وجماع الأنظمة الروحية والمادية وما يرتبط بها من ثقافة ومعتقدات لدى كل أمة من الأمم.

إن الهوية وجود اجتماعي ثقافي لمجموعة من البشر تربطهم لغة مشتركة ومصالح مشتركة وتقاليد مشتركة وأرض مشتركة، وفي عالم اليوم لا يمكن لإنسان أن يعيش فيه إلا إذا كانت له هوية مميزة تقررها لغته بوصفها المظهر الأول الذي يتعامل معه الإنسان.[15]

المصادر

1. موقع المنتدى العربي الموحد، الشريعة والحياة، دروس في الشريعة، الإسلام والشريعة، الساعد الشخصي الرقمي.
2. انظر مادة «ثقف في مختار الصحاح»، و «المعجم الوسيط»، أو في غيرهما من معاجم اللغة العربية.
3. انظر: (إدوارد تايلور، ما الثقافة؟ (1985) واليونسكو، باريس).
4. مجمع اللغة العربية (الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث) المعجم الوسيط.
5. محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، (2000)، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر.
6. محمد سمير المنير، العولمة وعالم بلا هوية، (2000)، دار الحكمة للنشر والتوزيع، مصر، المنصوره.
7. إليكسي ميكشيلي، (1993)، الهوية، دمشق، دار الوسيم.
8. تركي الحمد، (2001)، الثقافة العربية في عصر العولمة، بيروت، دار الساقي.
9. الجرجاني - السيد الشريف علي بن محمد- (1938)، التعريفات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

10. جاد عبد الكريم الجباعي، (1985)، حرية الآخر، نحو ديمقراطية للمسألة القومية.
11. محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، عشر اطروحات، المستقبل العربي، السنة (20)، العدد (228)، شباط، فبراير، (1988)، ص14–ص22.
12. هاني نسيره، مفهوم الهوية. . بين الثبات والتحول، موقع مؤسسة فلسطين للثقافة.
13. An introduction of the Cocept of Identyt, Martin Rost, Independent Center of privacy Protection (ICPP. 2003)
14. منيف الرزاز، الأعمال الكاملة، (1985)، ج 5، ص25، مؤسسة الرزاز، بيروت.
15. عبد السلام ولد حرمة، (الثقافة والهوية)، موقع الدرب.

ثقافة الاستشهاد

الشهداء شموع تضيء لنا دروب مسيرتنا، كلما أرجَفَنا الوقت، وتكالبت علينا صنوف القهر والضغط والحصار نشتدّ بهم؛ لأنهم الذين قدموا أرواحهم ودماءهم وأمنياتهم رخيصة من أجل أن نحيا، وهؤلاء العظماء بقرارهم، وبقدرتهم على البذل والعطاء غير المحدود، الحاملين مشاعل الأمل، والحالمين بحياة حرّة كريمة لنا ولأجيالنا، الصاعدين تباعًا إلى العلا، مؤمنين بما وعدهم ربهم، منهم من لبى نداء ربه، ومنهم من ينتظر.

عندما يختلّ ميزان القوّة بين الغازي وصاحب الدار، إلى درجة يصبح مجرد تصوّر تكافؤ القدرات، بالمواجهة والتصدي أمرًا بعيدًا عن المنطق والعقل، تبرز الحاجة إلى ابتكار وسائل جديدة وحديثة ومختلفة، لإقامة حدّ أدنى من القدرة على المواجهة والصمود، غير ذلك معناه الاستسلام والرضوخ، وإعلان الهزيمة، إذ لا يعقل أن نقيم مقارنة بين من يحمل عصا، وبين من يتحصّن في دبابة أو طائرة، ويملك أفتك الأسلحة القادرة على التدمير والقتل الجماعي، والمشبع ليس للبشر فقط ولكن للشجر والحجر.

وليست الشهادة بذاتها غاية، إذ لا يعقل أن يقدّم كائن روحه، وهي أغلى ما يملك جزافًا، ودون أثر ودون سبب، بل هي وسيلة لتحقيق غايات نبيلة تمسّ روح الحياة، من قضى في سبيلها فهو شهيد، ومن بقي على قيد الحياة فهو شهيد حيّ، ويبقى ذلك النبيل.

وهل هناك أنبل من إقامة الدفاع عن العقيدة والأرض والعرض؟

يقـول «أبـو ذر الغفـاري» الصـحابي الجليـل رضـي الله عنـه: (أعجـب لامرئ لا يجد قوتًا في بيته، ولا يخرج شاهرًا سيفه على الناس)، فكيف إذا كان الأمر في فقد وطن، بكل ما يحمل هذا الفقد من أبعاد ورواسب.

نحن أمة تكالبت علينا غوائل الغزاة، طمعًا في ثرواتنا وأرضنا، ومرتعًا لترويج صناعاتهم ومنتجاتهم، وفوق ذلك كلّه في مساعيهم، التي لم تتوقف يومًا على تذويبنا كأمّة، وطمس وجودنا وهويتنا الدينية والإنسانية، فهل بعد هذا كله تستقيم لنا الحياة؟

لقـد اسـتطاعت هـذه الأمّـة أن تسـتولد في كـل وقـت وسـائل صـمودها وتصديها، ثقافات تتوالد كما تتوالد النسور، كلها تصبّ في نسيج الوطن؛ لأن الـوطن هـو الأرض التـي تنمـو عليهـا كرامـة مالكيهـا، ولأنهـا الرمـز والمنطلق والمحور لتأصيل الانتماء.

ومن قال إن الثمن رخيص؟

الموت حق، وقد يكون الحقيقة الأكبر في هذه الحياة، (من لم يمت بالسيف مات بغيره... تعددت الأسباب والموت واحد)، ولا يستطيع أحد أن يدّعي الخلود، ولن يستطيع أحد أيضًا أن يقف في مواجهة من يسعى إلى النصر، ويحمل روحه على كفّه.

من يتطلع إلى حياة كريمة في ظل وطن حر، له ولأسرته ولمجتمعه، تهون في نظره كل التضحيات، حتى التضحية بالروح، وهي أغلى ما يملكه كائن على الإطلاق، وقد منّ الله سبحانه علينا بنعمة الإسلام، وعلّمنا بأن الشهادة خلود، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ومن هذا المنطلق أيضًا

تخرج الروح من الجسد، لتحيا من جديد برزق من الله سبحانه، ومتى وصلت درجة الإيمان، بأن لا حياة مع بقاء المحتل والمستعمر، تصبح التضحية أمرًا عاديًّا يجعلنا جميعًا على سلّم التضحيات، ومقولة النضال، مشاريع شهداء.

ووسائل النضال أكثر من أن تعد وتحصى، ولا تقتصر على بندقية أو سيف أو خطاب، بل هي مجموعة ثوابت تتلاحم وتتفاعل، من أجل تحقيق غاية واحدة.

هو القرار والاستعداد للتضحية بكل شيء، حتى بالروح من أجل الخلاص من القهر والذل والمهانة، هو أول طريق للشهادة، من يخرج إليه، ويمشي في مسالكه، فقد ينالها، ويسكن في ضمير الحياة، ومن يقطف ثمار الحريّة والانتصار، فهو الحيّ الشهيد[1].

إن التدقيق أكثر وأكثر والغوص في أعماق الحياة الإنسانية، ومن ثم السير في مواكب الشهداء، التي بدأت برفاق الشهيد، واتسعت لتشمل كل المدينة أو القرية أو المخيم، الذي ينتمي إليه ذلك الشهيد، أو أولئك الشهداء، يجعلنا نسجل علائم التوهج في وجود المشيعين، وإشارات النار المستعرة، التي تطوق كل أجسادهم وأياديهم وأقدامهم، لتعكس الأمل بالنصر القادم، من خلال الأهازيج الوطنية والهتافات الملتهبة، ولتعبر بشكل حي ومباشر، أن كل مواكب الشهداء لا تجعلنا نجزع من التضحية،

---

(1) كنفاني، عدنان (2008) ثقافة الاستشهاد، التجديد العربي.

بل تزيد من إيماننا وإصرارنا، وترفع من جاهزية قرارنا، أن نُري كل العالم التصميم والصبر والتضحية، رغم التعرض لكل الأهوال، فلا عجب عندئذ أن هذا الشهيد الذي نشيع، قد شيع هو بذاته شهداء آخرين، ولا غرابة وقتئذ حين نعلم أيضًا، أن كل موكب لشهيد، يجعل من عشرات المشيعين مشاريعَ استشهادية جاهزة للتنفيذ، ولكن كل حسب وقته، الذي قدره الله.

إن الشهادة ومفهومها لدى الجماهير الشعبية، هي التي جعلتهم يقاومون العذاب بالإيمان والتضحية، وإن كل مواطن يتسلح بالصبر، أملًا بنيل الشهادة وشرفها ونبلها، ليكون ممن اصطفتهم المقادير، لتجعل منهم أساتذة في فن التضحية والفداء.

ويمضي الناس، ولا يستحوذ على أحاديثهم وأقاصيصهم سوى حياة الشهداء، الذين يودعونهم أرض الوطن، ووصاياهم، وأعمالهم، ولحظاتهم الأخيرة في كنف الحياة الدنيا، وبداياتهم الأولى في ظل الحياة الآخرة، وغيرها من محطات الشهداء وكلماتهم، التي قالوها وقيلت عنهم، وعن بطولاتهم، وما يضاف إلى ذلك من اهتمام صحفي في كل الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية، والتي تروي قصص الشهداء على كل المستويات.

وبقليل من التركيز نجد أن الشعب، بدءًا من الأسرة ومرورًا بالمدرسة وانتهاءً بمؤسسة الوطن، ينمي في الطفل ثقافة أصيلة هي ثقافة الاستشهاد، التي تنمو بداخله وتترعرع معه، دون معوقات، ودون أدنى تردد، وأن تعامل المجتمع مع الشهداء، من لحظة التحاقهم بالرفيق الأعلى، وأثناء التعامل مع ذويهم، وما تتميز به هذه المعاملة، من رقي واحتضان معنوي

ومادي، يملؤها التمجيد لهم والتكريم الدائب لذكراهم الدافئة العطرة، جعل من ثقافة الاستشهاد عنوانًا عريضًا لكل تائه، يبحث عن ثقافة متنوعة، تتمحور مفرداتها حول البطولة والقوة والعظمة والأمانة والصبر، ومن ثم النفس الفائزة المطمئنة، التي يملؤها كل النبل والطهارة.

والشعب بكل تفاصيله يعبر عن الثقافة الاستشهادية، بما يحمل من جوارحه ومكتنزات ضميره، كجزء أساسي من حضارته العظيمة، ويتكرس ذلك من خلال مشاهداتنا لصور الشهداء، التي قد تم صياغتها في أبهى رسم إبداعي، خطته أيادي الفنانين والرسامين التشكيليين، في سابقة لم تكن معروفة عند غيرنا من الشعوب الأخرى.

وصور الشهداء تملأ شوارع المدن وأحياءها، وكل أماكن التجمع الديمغرافي، التي ينتمي إليها الشهيد أو لا ينتمي، هي التجسيد العملي للثقافة الأصيلة، التي تجددت جذوتها، وانتشرت فصولها، وترامت أطرافها، وأججت شوق الشهادة، وأنفاسها الحارة، في قلوب الآلاف من أبناء الشعب.

والتأثر الواضح الذي بدا عند اختصاصيي الحاسوب ممن يعرفون بالمصممين، يعطي دلالة عميقة على هذا النوع من الثقافة، في أذهان الشعب، لكونهم أدخلوا فيها كل ما استطاعوا من تقنيات وبرمجيات وفنون ومونتاج، أسهمت في إبراز الثقافة الاستشهادية، من خلال ما قدموه من فن البوستر، الذي يحمل صور الشهداء، التي نراها تقريبًا في كل سيارة، وعلى واجهة كل مكتب خاص أو عام، وفي ردهات كل مدرسة أو جامعة، بل وفي

كل حقيبة مدرسية للصغار والكبار، مما يساهم بدوره في خلق بيئة ثقافية، تعتمد على التفاعل الحسي والعقلي، بطريقة معنوية ومادية، تتيح المجال لفتح الأبواب على مصراعيها، لتغذية موارد الفهم الحضاري، الذي أصبحت ثقافة الاستشهاد، جزءًا أساسيًّا في بنائه الواسع العريض.

والاهتمام الواضح الذي أبداه الشعراء والفنانون، ممن يكتبون الكلمات، ومن يغنون لهم، في تركيز جل اهتمامهم للتغني بالشهداء، ومنازلهم الرفيعة العالية، مما يضعهم وبصورة دائمة في مصافِّ الناس المتقدمين على المستوى الشعبي، إذ إننا لا نكاد نجد أغنية أو قصيدة، تتحدث عن ثورة ونضال، إلا وتم الحديث فيها عن مكانة الشهيد.

إنه من المستحيل أن يتم فصل الجماهير الشعبية عمومًا، والمقاتلين منهم على وجه الخصوص عن ثقافتهم الأصلية، التي حملوها عبر تاريخ النضال، وتجددت في معركة الدفاع عن الوطن؛ لأنها أصبحت تراثًا آهلًا بكل المقومات، التي تحقق كل أنواع الدفاع عن الدين والوطن[1].

تتمثل القاعدة الأساسية لإرادة المقاومة، في شجاعة اتخاذ قرار الموت في وجه من يهابونه؛ لأن اعتقادهم بأن الموت شهادة، وطريق للحياة الخالدة، هو الذي يجعلهم ينتصرون دائمًا، على الذين يعتقدون أن الموت فناء وضياع، فثقافة الاستشهاد سلاح جماهيري نضالي، لا يمكن أن ينتزعه أحد، والتاريخ يؤكد أن المقاومة والجهاد هو الطريق للحرية واستعادة

(1) ملتقيات كتائب الشهيد أحمد أبو الريش، 2006.

الذات، ومن حق الشعوب، التي ترزح تحت الاحتلال، أن تدافع عن نفسها بكل ما أوتيت من وسائل، لتحقيق حريتها واستقلالها، وهي ثقافة شعبية وليست أعمالًا فردية، حيث يؤكد رأي الناس في الشارع، قيمة استراتيجية المقاومة والاستشهاد، كما تحولت العمليات الاستشهادية إلى مطلب اجتماعي ضروري لحماية وجود الشعب، وتعد التضحية بالنفس نقلة نوعية في مستوى الوعي بقواعد الصراع، فالاستشهاد حركة فكرية ونفسية، قبل أن يكون حركة جسدية في ميدان المعركة، والقنبلة البشريّة ظاهرة اجتماعيّة سياسيّة شاملة، تخترق شرائح كبيرة من شعب كامل، حيث أصبحت أمتدادًا طبيعيًّا لثقافة المقاومة، ونشأت كنتيجة للتّفاوت العسكريّ بين قوات الاحتلال ورجال المقاومة[1].

العمليات الاستشهادية تجد صدى إيجابيًّا هائلًا في العالمين العربي والإسلامي، فثقافة الاستشهاد، قد تكون اليوم أوسع الثقافات انتشارًا في الشرق العربي، ولأنها مبنية، في الأعم الأغلب، على أساس ديني، وقد ترسخت مع الوقت، فإنها غير قابلة للمناقشة.

ولعل أمضى الأسلحة ليس أحدثه أو أكثره تطورًا في سوق السلاح العالمي، بل تصدير الاستشهاد بحد ذاته على أنه أقرب الطرق إلى الجنة، وبأنه الفريضة الواجبة على كل مؤمن ينشد خلاص أمته وخلاص نفسه.

---

(1) عبد الصبور، صلاح (2008)، ثقافة العمليات الاستشهادية وسيكولوجية الاستشهاد.

إن الفكر الاستشهادي السائد حاليًا، هو في معظمه، إن لم يكن كله تراث فكر مستحدث لا سوابق له في التاريخ العربي الإسلامي، فصحيح أن فكرة الجهاد فكرة مكرمة في الإسلام، وذات مقام رفيع في تراثه، إلا أن فكرة الاستشهاد والعمليات الاستشهادية، مهما جرى تأصيلها والبحث لها عن مرتكزات دينية أو فقهية، فكرة طارئة كما هي فكرة خلافية، ويرحب بها لعل بإمكانها أن تزحزح العدو عن احتلاله وغطرسته، أو تدق مسمارًا في نعش الاستعمار الجاثم في بلادنا[1].

هناك بُعد مهم يتصل بظاهرة الاستشهاد، التي أخذت تشيع في الأوساط العربية بتأثير الحالة الفلسطينية، ويتمثل ذلك البعد في حجم الكراهية لسياسات الولايات المتحدة، والتحدي لها كلما بالغت في إذلال العرب، كما جرى في غزو العراق واحتلاله، وما يقوم به الكيان الصهيوني في فلسطين، بدعم ومساندة أمريكية.

ثقافة الاستشهاد ثقافة جديدة، وهي بهذا المستوى غير مسبوقة، وستكون لها تداعياتها على المنطقة، وهي ظاهرة إيجابية إذا تم ترشيدها، غير أن ذلك لا يتم عبر سلاح الفتاوى المضادة، حين تتبنى نظرية المقاصد الشرعية، وإنما عبر الحوار بشأن البوصلة والجدوى، فهي ثقافة مقبولة،

---

(1) فاضل، جهاد (2007)، العمليات الاستشهادية، جريدة الراية، (27 ـ 8 ـ 2007)، شركة الخليج للنشر والطباعة، الدوحة.

حين تسير في الاتجاه الصحيح، وغير ذلك حينما تفعل العكس، وتضرب على نحو لا يخدم الهدف المعلن.

يبقى الجانب الداخلي من مسار العنف، فدروس هذا المسار تقول بكل وضوح إنه نتاج الانسداد السياسي والعنف الرسمي والفساد المتعدد الأشكال، ولذلك فإنه لا مجال لمواجهته إلا بفتح الآفاق نحو فضاء سياسي معقول يسمح بمحاسبة المسؤولين، كما يسمح للأفكار بالتعبير عن نفسها، من دون عنف ولا إقصاء[1].

إن العمليات الاستشهادية ثقافة بطولية، أحدثت انقلابًا في المجتمع الفلسطيني، وذلك بترسيخ العمليات الاستشهادية، كسلاح استراتيجي رادع، وهؤلاء الاستشهاديون لا يشكلون ظاهرة هامشية، بل يعكسون نموذجًا اجتماعيًّا يجسد الثقافة الفلسطينية الجديدة، إنها ظاهرة تحظى بتأييد الشارع الفلسطيني، ليس في استطلاعات الرأي فحسب، وإنما عبر مظاهر الفرح التي تلي كل عملية، وفي جنازات الاستشهاديين، وفي صورهم المعلقة في كل زاوية في الشوارع، وفي الأغاني التي تمجدهم، وتنعكس تعابير هذه الثقافة أيضًا، في المؤتمرات وفي المسيرات التي يشارك فيها عشرات لابسي الأكفان الذين يعلنون: نحن اللاحقون، وكذلك في المدارس والمخيمات.

---

(1) الزعاترة، ياسر (2004)، ظاهرة العنف والاستشهاد.. الصواب والخطأ، المعرفة، وجهات نظر.

لقد أحدثت هذه الثقافة البطولية، انقلابًا في المجتمع الفلسطيني، ذلك أن العمليات الفدائية لم تعد تعتبر عمليات، تنم عن اليأس أو الخيبة والانتقام، وإنما أصبحت عمليات تزرع الأمل، وحسب مفهومهم أن الهدف من الاستشهاد، هو ليس القتل من أجل القتل، وإنما وسيلة من أجل تحطيم قوة الصمود «الإسرائيلية»، وتقويض المجتمع وتدمير الاقتصاد الصهيوني، وقد تمكن الفلسطينيون أنهم نجحوا في إحداث هزة أرضية خفيفة، شققت الجدارين الاجتماعي والاقتصادي في «إسرائيل».

إن الاستشهاديين هم السلاح الاستراتيجي من أجل تحقيق الردع والتوازن، وأن الفلسطينيين يخلقون حياة جديدة عبر بوابة الاستشهاد، والهجمات الاستشهادية تمثل سلاحًا فعالًا، كلفته قليلة، ويسبب قتل الكثيرين، ولا يمكن مواجهته بسهولة[1].

---

(1) ملتقيات كتائب الشهيد أحمد أبو الريش (2006)، الفلسطينيون وثقافة الاستشهاد، عاشق الموت في سبيل الله.

ثقافة الممانعة والمقاومة

في الوضع العربي الراهن، الذي يعيشه الوطن العربي، الذي تحول إلى كتلة من البشر، فقدت الوزن والاتزان، في ما تواجه من استهداف إمبريالي صهيوني إلى جانب المد الشعوبي، لا بدَّ من أن يكون توجه النخب الثقافية العربية على وجه الخصوص لمواجهة هذه الحالة، وهذا الوضع، الذي يستهدف الوطن والمواطنين وتاريخ أمة ووجودها، إلى تبني ثقافة الممانعة والمقاومة، إذ ليس هناك من بديل عن خط المقاومة للدفاع عن الأمة، وتغيير حالة الوضع المزرية، التي أصابت جسد الأمة، ولن تكون المقاومة إلا وليدة في الوقت نفسه مرافقة لحالة الممانعة، التي يجب أن تقف في وجه هذا المد العدواني، خاصة وأن الأمة بشعوب أوطانها كافة في أمس الحاجة لمن يتصدى لقيادتها.

إن حالة الممانعة التي تبديها بعض الأطراف في الساحة العربية تحتاج إلى تعزيز صمودها، إلى جانب العمل الدائب والمستمر في رفد حركة المقاومة في فلسطين والعراق على وجه الخصوص، حيث تشكل الخندق الأمامي لمواجهة العدوان، فالنخب الثقافية مطلوب منها العمل على نشر ثقافة الممانعة والمقاومة، دون الوقوف والالتفات إلى المبررات واختلاق الأسباب وخلق المناكفات السياسية، التي تسللت لصفوف العديد ممن يحسبون على قطاع المثقفين، حتى وقع البعض منهم في خندق الطابور الخامس؛ لأن العدوان والعدو واضحة أهدافه ومراميه، وهو لن يستثني

أحدًا من الخضوع لتحقيق أهدافه، فاحتلال فلسطين لا يمكن أن يواجه إلا بالمقاومة، واحتلال العراق لا يمكن الخلاص منه إلا بالمقاومة، والقطران العربيان المقاتلان لا بدَّ وأن يستندا إلى جدار الأمة، والعمل على توعية أبنائها لجعل قضية الاحتلال والخلاص منه واجب الجميع يجب مواجهته، فالنصر على الولايات المتحدة في العراق يقدم خطوة على طريق تهميش المشروع الصهيوني في فلسطين، وتعزيز انتفاضة أبناء فلسطين يقف عقبة كأداء في وجه المخطط الصهيوني واندفاعاته، لابتلاع كامل الأرض وتشريد المزيد من أبناء الأمة في فلسطين.

إن ثقافة الممانعة والمقاومة ثقف في طريق تعزيز صمود الجماهير في وجه النظم السياسية المرعوبة والسائرة في فلك استحقاقات الأهداف الإمبريالية الأميركية على وجه الخصوص، وفي وجه أولئك الذين يلهثون وراء الاستسلام، ويقدمون للعدو اعترافًا مجانيًّا على الرغم من أنه لم يتراجع خطوة واحدة عن مبادئه وأهدافه، إلى جانب أنه مجرد وجوده ككيان غاصب لا بدَّ وأن يقاوم، ولا يعطي أي نوع من الاعتراف بالوجود؛ لأنه وجود غير شرعي وباطل وما بني على باطل فهو باطل.

إن ثقافة الممانعة والمقاومة تحمي الجماهير العربية أيضًا من تغول السلطات الرسمية الحاكمة، التي لا تعترف بحقها في ممارسة دورها السياسي والثقافي، والتي تغتصب السلطة، وتضع كل القوانين لخدمتها، سادرة في غيها وطغيانها، فاقدة لتمثيل الجماهير، من خلال حرمانها من ممارسة الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، ملطخة أياديها

بالفساد الإداري والمالي، ضاربة عرض الحائط بالوجع الناجم عن الفقر والبطالة الصادر من غالبية أبناء الشعب.

أصبحت سياسة الإملاء الدولية موجهة لما تتطلبه سياسة الطاقة الأميركية، لخلق مبررات للأعمال العسكرية والعدوانية التي تتطلبها، سواء في العراق أو في غيره من المناطق التي توفر لواشنطن مصادر الطاقة وخطوطها، مما يعني انتهاك واشنطن المادي السافر لمقومات الكرامة والمقاومة الوطنيتين، ولوسائل الممانعة المحلية، لأفعالها العدوانية، ولطروحاتها السياسية، وكان بديهيًّا أمام الهجمة العسكرية الإمبريالية الأميركية، الذي بدا للكثيرين كاسحًا وعصيًّا على المادة العسكرية، أن تظهر الممانعة الفكرية والثقافية، باعتبارهما من أهم مقومات الممانعة والمقاومة المتاحة، في مواجهة العدوانية الأميركية، وأن تبدو للكثيرين كخط دفاع أخير في مواجهتها، على اعتبار أنها الأساس والمرتكز التعبوي لكافة الأشكال الأخرى للمقاومة والدفاع والممانعة.[1]

لقد كشفت الأحداث عجز القوة الأميركية عن تحقيق أغراض منطق سياستها في الهيمنة والمواجهة الشاملة سواء من خلال الانقسام الدولي، أو عبر مواقف الرأي العام الدولي والغربي على وجه الخصوص، أو عبر تحليلات المراقبين من الخبراء الأكاديميين والسياسيين، إلا أن الأهم في كل ذلك سرعة بروز المقاومة الوطنية العراقية، الزخمة عسكريًّا والمدعومة سياسيًّا، والمخطط لها قبل الغزو والعدوان ضد احتلال العراق، ولقد أظهرت الأحداث الدولية الطابع الدعائي للادعاءات السياسية الأميركية

عدم مصداقية الإدارة الأمريكية، سواء في ما يتعلق بوجود أسلحة الدمار الشامل، أو ممارسة الاحتلال الأميركي في العراق، في مقولات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ومع ذلك بقيت السياسة الخارجية الأميركية تتبنى شعار فرض منظومة القيم الديمقراطية كإطار لما تسميه ثقافة «الإرهاب» العربية الإسلامية، فالمهمة الدعائية للسياسة الخارجية الأميركية ستظل معنية باستهداف المشهد الثقافي العربي الإسلامي، ومنظومته الفكرية، استهدافًا عدائيًّا؛ لأن مثل هذا الاستهداف يوفر غطاء دعائيًّا لتطويع واستنزاف الفعاليات الثقافية، خاصة في المجتمعات التي تنبع منها قوى الممانعة والمقاومة لسياسات الهيمنة والاستتباع الأميركيتين.(2)

هناك ثقافتان متضادتان: هما ثقافة ممانعة ومقاومة من جهة، وثقافة استسلام وتماهٍ من وجه آخر، وهاتان الثقافتان تنهضان على نصاب غير متكافئ، إما لأنهما وليدتا تحولات في معادلات القوى على امتداد نصف قرن من الصراع العربي الصهيوني، أو لكونهما تنتسبان في الغالب إلى بيئة مشتركة، شكل الكفاح الوطني ضد الاستعمار بصنوفه المختلفة محركها العام، وبسبب من الضغط، فقد نما لدى النخب وعي سالب غالبًا ما رأى أحوال الأمة بوصفها أحوالًا ناشئة من أرض مهزومة، بينما لم ير أحوال العدو، إلا أنها أحوال غلبة وتفوق، تتوالى آلياتها وتتراكم بلا هوادة، ولقد أسست المراحل السابقة من النزاع العربي الصهيوني، ومواجهة العرب للعمليات الاستعمارية لأيديولوجيا الهزيمة، وهيأت للمراحل التاريخية الراهنة، والصورة التي ظهرت عليها البيئة الثقافية العربية أفصحت عن رغبة

عامة للتكيف مع الأمر الواقع، حيث قامت الصورة السياسية العربية في زمن السلام على مفارقة لافتة مؤداها: أن العرب لا يستطيعون خوض الحرب بعد مصر والعراق، ولأنهم قادرون على الذهاب بعيدًا في سلام يراد له أن يصب ثمراته في الوعاء الصهيوني.[3]

إن التطبيع بمفهومه العام والثقافي خاصة، هو اصطلاح جاءت به الهزيمة، وهو أحد مستودعات الهزيمة، التي أصابت العقل العربي منذ حزيران (1967)، ومع انفراط عقد الحرب الباردة والنتائج التي آلت إليها حرب الخليج الثانية، ومنها انعقاد مؤتمر السلام في مدريد (1990)، أخذ يتشكل الأساس الموضوعي لثقافات التحول في البيئات العربية، وقد نشأت بيئات عربية على مستوى الحكومات والمجتمع المدني، راحت تنادي بتقبل الأمر الواقع وتتماهى معه، وبعضها راح يدعو إلى التكيف الإيجابي، مع التحول الجديد، والتعامل مع النظام العالمي والإقليمي من داخله، على أمل تغييره.

إن استعادة روح الممانعة لدى المواطن العربي، من طريق إلغاء العنف الأهلي، وتعميم الديمقراطية، وإطلاق الحريات، هي السبيل لمقاومة أي نوع من أنواع التطبيع مع العدو، وهي السبيل الذي يؤسس لقيام كتلة تاريخية تقاوم منطق الهزيمة وتداعياتها، في الفضاء العربي بأجمعه، وأن وعي الهزيمة ومصطلحاتها هو قبل كل شيء بداية لوعي الممانعة ووجوبها؛ لأن الإدراك يسقط الأوهام في ما يمتلكه العدو من قوة مفعلة، وفي ما نملكه من قوة ساكنة، ولوجوب وعي ثنائية الهزيمة والممانعة في آن،

فإن ذلك يعني إقامة حد فاصل بين ثقافة المقاومة وثقافة الاستسلام، وهو ما يمكّن النخب العربية الثقافية من استعادة قضاياها الغائبة، أو تلك التي غيبت في أجواء الهزائم والتراجعات السابقة.[4]

إن المقاومة فعل غريزي طبيعي، وهي موجودة عند الإنسان كما هي عند الحيوان، وفي سائر المخلوقات الأخرى عندما تتعرض لعدوان، وقد حث الإسلام عليها في كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وطالب بإعداد القوة لإرهاب العدو؛ لأن ترك الاستعداد يغري بالعدوان، ومن رغب أن يوقف المقاومة فما عليه إلا أن يوقف العدوان وينهيه، وعند توقف العدوان وزواله، فإن ذلك لا يعني نهاية المقاومة أو زوالها؛ لأنها غريزة فطرية تكوينية قابعة في أعماق النفس البشرية.

إن المقاومة الثقافية هي الأساس في رد العدوان ورفض التغريب والمحافظة على الهوية؛ لأن الغزو العسكري يأتي في دور لاحق بعد أن تم التمهيد له بغزو ثقافي، وغزو اقتصادي، وغزو اجتماعي... وكل هذه الأنواع من الغزو تحتاج إلى مقاومة، وحصر المقاومة أو الجهاد في معناه القتالي تفريغ للجهاد من معناه الأصلي، وعندما توقفت الممانعة الثقافية، امتد الخرق إلى الواقع، فالغزو الحقيقي يبدأ مع الاختراق الثقافي؛ لأن الوعي الثقافي يشكل الجدار الأساسي في وجه الاستعمار، وأنه الوعاء الحاضن لفكرة المقاومة، التي تشكل حصن ممانعة يبدد كل مخططات الاختراق، التي تستهدف أمن الأمة السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.[5]

إن المقاومة نموذج نضالي تستمد منه الشعوب قوتها، من أجل الوقوف في وجه الظلم بكافة أشكاله، وفي مختلف الأزمنة والأماكن، وقد تطورت المقاومة كمفهوم سياسي وثقافي وشرعي تبعًا للمتغيرات السياسية والاجتماعية، التي تنشأ فيها وتبرز من خلالها، وحتى الآن لم يتم الاهتمام بالمقاومة كمشروع حضاري له أسسه المنهجية وأدواته النظرية والعملية، وفي ما يتعلق بتعريف المقاومة هناك من يعرفها بأنها شكل من أشكال المواجهة المدنية أو العسكرية، من أجل الوقوف في طريق الظلم ومواجهته، وتحقيق العدل والسلام لأفراد المجتمع، وهناك من يرى أنها التزام أخلاقي لدى أفراد المجتمع لنيل حقوقهم المشروعة، والتعبير عن آمالهم وطموحاتهم، والسعي للحصول عليها، متحدية بذلك الأنظمة السياسية، التي تعمل على الانتقاص من حقوق وحريات الشعوب. إن المقاومة المدنية تأخذ أشكالًا عديدة ومتنوعة، وتتطلب أنواعًا من الإبداع الخلاق والمستمر، وهي تعتمد في الأساس على الأساليب السلمية الخالية من العنف، وهي تحتاج إلى جهد عقلي وتنظيمي أكبر من المقاومة العسكرية؛ لأن هذا النوع يحتاج إلى جهد ووقت كبيرين، والأهم من ذلك هو وجود الشخصية القيادية، التي تتميز بقدرات كاريزمية في تعاملها على مستوى الحدث والشعوب.[6]

إن المقاومة هي الخيار الوحيد من أجل مواجهة السياسة الاستكبارية، التي تريد الولايات المتحدة من خلالها فرض سيطرتها على مقدرات الشعوب، وهي بمعناها الشمولي تقوم على مناهضة الظلم وتحقيق العدل،

مستخدمة في ذلك كافة الإمكانات والعمل على زرعها في نفوس الشعوب، لكي تصبح ثقافة المقاومة جزءًا أساسيًّا في حياتهم ويتم ذلك من خلال الاعتراف بمشروعية المقاومة كمشروع حضاري يساهم فيه مفكرو الأمة ومثقفوها في إرساء قواعده وأسسه النظرية، التي تقودنا إلى منهج عملي في التعامل مع ظروفنا الحالية، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي. إنه يمكن زرع نموذج المقاومة في شعوب الأمة جميعًا، واعتبارها روحًا تسري في جسد الأفراد والجماعات، ويصعب إنهاؤها؛ لأنها ليست تنظيمًا يمكن تفكيكه وتفتيته، ومن أجل ذلك لا بدَّ من طرح ثقافة المقاومة باعتبارها مشروعًا نهضويًّا يهدف إلى إعادة صياغة بنية الفرد، وفقًا لمتطلبات الحاضر وضرورات المستقبل، والبنية النفسية لدى أبناء الأمة مواتية لتقبل ثقافة المقاومة، نتيجة حالة الاستقواء التي تفرضها الولايات المتحدة على الشعوب، فقد عمقت لديهم شعورًا حقيقيًّا يناهض هذه السياسة الإمبريالية المستندة على شريعة الغاب، واستراتيجية الردع الاستباقي التي وضعتها حكومة الإدارة الأميركية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.[7]

هناك صراع بين ثقافتين يستمد منطقه وأطروحاته من معطيات واقعية، إذ كلما كان واقع الأمة يتعرض للردة والانكسار، بفعل العوامل والمؤثرات الخارجية والداخلية، تزدهر ثقافة تبرز واقع الهزيمة التي تعاني منها الأمة، وتظهر الأصوات الداعية إلى التراجع والنكوص، والعدمية الداعية إلى الواقعية والتعامل مع واقع الاستسلام، واللامبالاة بشأن ما يجري، وكلما كانت حالة الأمة في تحقيق إيجابيات على أرض الواقع، تبرز ويستيقظ

الواقع على المعطيات السلبية، وتبدأ حركة الفعل والإرادة، تبحث عن المعطيات الإيجابية لتبديد الصورة والوضع الانحطاطي، الذي أصاب الأمة، وكانت ترافق ذلك ثقافة ووعي، يعظم النقد ويثير الأسئلة، ويطرق الأبواب لتكون مشرعة في وجه الجماهير، ويعود التوازن للعقول، وتتحمس الجماهير للدفاع عن الذات.

إن ثقافة المقاومة تقدم أطروحتها ومنطلقاتها على اعتبار أنها اجتهاد نظري، ورؤية للوجود تبحث عن إيجاد قاعدة نظرية يستند إليها هذا الوجود، إنها وعي هذا الوجود والدفاع عنه، وهي تقدم الواقع على النص، وترسم الواقع قبل النص؛ لأنها فعل إرادة يسبق التدوين، وهي تدون خبرتها للأجيال القادمة، إنها في مرحلة تأسيس وتعميق وعي وطني وقومي، وتأكيد ثوابتها ومرجعيتها في رؤية الصراع بين الأمة وأعدائها، وتنطلق من كون هذا الصراع صراعًا حضاريًّا وليس خلافًا سياسيًّا بين الإدارات والحكومات، وهي تعبير عن الأمة بكليتها، مما يعني أن على الأمة واجب المشاركة فيها بشتى الطرق والوسائل وبالإمكانيات المتاحة، فهي فرض عين على كل مواطن ينتمي لهذه الأمة تحت العدوان، إنها مرتبطة بالواقع وتقرأ ظواهره المرتبطة بأفقها التاريخي، فهي تبحث عما في الأمة من إيجابيات لتعزيز دورها، وترفض الالتفات إلى الواقع السلبي على أنه واقع الأمة، الذي يجب أن تستسلم إليه وتقع في دهاليزه المظلمة، التي لا تقود إلا إلى المزيد من تعميق حالة اليأس لدى الجماهير، مستندة إلى ما للأمة من تاريخ نضالي غني بثقافة المقاومة، المنبثقة مما قدمته لنا رسالة الأمة في جانبها

الروحاني، التي وردت في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، فالمقاومة تعي ثقافة الأمة، وتعي دور رسالتها، وهو ما نطق به قادتها وهم يواجهون الموت، شهداء في محراب الحرية.(8)

على المثقف المسؤول تاريخيًّا عن دور الكلمة ومكانتها، ألا ينهزم من الداخل، فليحق الهزيمة بالآخرين، وألا يغرس الإحباط وروح الهزيمة بالنفوس، وألا يضع ثقل الوعي الثقافي في خدمة العدو، أو في فعل سلبي المردود يقوي من جبهة العدو ويضعف جبهة الوطن ويدمر الإرادة الوطنية والقومية وعليه ألا يخون الأمانة التي اؤتمن عليها كطليعة أمة ولا يقوض الثقة والاعتماد المتبادلين بين ثقافة ومجتمع كي يتكامل الأداء والاستشراف المستقبلي.

إن الثقافة التي تتبنى الهزيمة وتدعو لها ثقافة تقوم بدور الطابور الخامس في ثنايا المجتمع وتعمل على خلق حالة الإحباط والوقوف في طريق الممانعة والمقاومة بدلًا من تعزيز موقعيهما وإسنادهما، وهي تكسر ظهر الشعب بالغفلة أو بالتغفيل والتضليل وتتآمر على قيمه ومعتقداته وتاريخه وتسلم الوطن والأمة إلى الضعف والضياع والهزيمة، وترخي العنا للفساد والمفسدين وتفسح المجال لممارسة الظالمين لأفعالهم وممارساتهم المعادية وتترك الفرصة لمن يبيع ويفسد ويظلم ويستبد ويعتدي ويغزو أوطان الآخرين ويعمل على تشويه نضالهم وتاريخهم ويدوس على قضاياهم وصورهم وثقافتهم وعقائدهم، مطلق اليدين والقرار موفور القوة، مكشوفة أمامه السبل والمواقع ليفعل ما يشاء وبهذه الصورة يكون

المثقف والثقافة في خندق العدو بدلًا من خندق الوطن وبشكل خاص في مواقع الوطن الداخلية وفي الخلايا الحساسة من جبهة الوطن والأمة.

إننا بحاجة لتوظيف الثقافة بالاتجاه الذي يخدم الوطن والمجتمع وبالاتجاه الذي يعزز دور الممانعة والمقاومة ويرفع من شأن الوطن ويعلي من مكانة الأمة، وبحاجة لتوظيف الثقافة في خدمة ثوابت الأمة والعقيدة، ومستقبل النضال الوطني والقومي لأجيال الأمة وأن تستظل بها ونحن قابضين على جمر بنادق الجهاد وتحرير الإرادة، إرادة الأوطان والمواطنين، وتحرير عقول الجماهير وقلوبهم من تسلط وقهر المتسلطين باستخدام الكلمة والوعي والمعرفة استخدامًا لا يهدف إلا لمصلحة الأمة وشرفًا يحقق مصلحة الإنسان والوطن.

إن أداء المثقف أداء شبه نبوي في الاستشراف المستقبلي، وهو من يحمل بندقية المقاومة على كتفه، كفدائي يتحمل المسؤولية، وعقلاني أثناء مواجهة الواقع، وعملاق في التضحية على أرضية الانتماء الصادق الواعي، والتمسك بالحق وإضاءة الطريق للناس، لتراه كشمعة يحترق، ليسير الآخرون في طريق مضيء نحو غد مشرق، وإلى غد فيه الكرامة والسعادة والحرية، وأهل الكلمة من بين أهل الثقافة، مسؤولون عن الفعل والإرادة والإيمان، وتحمل مسؤولية الأداء في الظلمة، في مواجهة سطوة العدوان والبطش العنصري والاستعمار البغيض، وفي مواجهة الجهل الذي يستغله الآخرون، لتعميق حالات الظلم والحرمان.[9]

على أرض العراق المحتل تتصارع ثقافتان متناقضتان واحدة تمثل شعب العراق بقواه الوطنية المتمثلة بالمقاومة الوطنية وأخرى تمثل أسلوب السيطرة والهيمنة يدعمها عملاء الاحتلال وخدمه وعبيده ممن جاؤوا مع دبابات الغزاة.

إن المقاومة الوطنية التي يقوم بها شعب العراق قد أذهلت الاحتلال وأوقعت به خسائر لم يتوقعها ووضعته في مأزق كان يظن نفسه أنه في مأمن عن الوقوع فيه لأنه كان يظن واهمًا أن غزوه للعراق مجرد نزهة خالية من أي مقاومة وقد برزت بعض المفارقات تنم عن سياسة الكذب والتضليل التي مارستها الولايات المتحدة بحق جنودها الذين زجت بهم في أتون المعركة ومن هذه المفارقات قول (مايك ستيفن) أحد جنود المارينز الذي قال: «لا أعرف لماذا يقاوموننا وقد جئنا لنحررهم ونطعمهم وننشر الديمقراطية بينهم».

إن ما يجري على أرض العراق يمثل ثقافة المقاومة، وفي الوقت نفسه ثقافة الهيمنة والاحتلال، ثقافة المقاومة والمواجهة وثقافة السيطرة والهيمنة، الأولى تكاد تشمل كل أنحاء العراق، وتتخلل كل فئاته ومجموعاته، وعلى امتداد الوطن العراقي، والثانية تمثل قوات الاحتلال والمرتزقة المتعاونين معها، إنه لجدير بالملاحظة أن ثقافة السيطرة والهيمنة قد اندثرت، وأصبحت من مخلفات الاستعمار القديم، وإن الإدارة الأميركية التي تحاول إحياء العهد الاستعماري البغيض، غير قادرة على فرض ثقافة معادية لأماني وطموحات الشعوب، كما أن ثقافة المقاومة لدى

العراقيين غنية بتاريخها، ومن العسير اجتثاثها من التاريخ الوطني العراقي، ولم تدرك الإدارة الأميركية الحقيقة التي تدمغ وجه كل الأنظمة والدول المتكبرة، «إنه ما من احتلال مهما امتلك من أسباب المنعة والقوة قادر على استلاب شعب بأكمله من إرادة الممانعة والمقاومة»، فثقافة الممانعة والمواجهة ليست حالة نخبوية في العراق، ومقصورة على فئة معينة من نسيج المجتمع العراقي، بل هي حالة عامة تتواجد في كل شرائح المجتمع العراقي كافة، ومهما واجهت هذه الثقافة من صعوبات واعترضتها المعوقات، فستبقى قوية وسائدة حتى يتم تحقيق أهدافها، في دحر ثقافة الاحتلال المتمثلة بالسيطرة والهيمنة الأميركية، التي ستكون معزولة، ولن يلتف حولها إلا فئة قليلة، لن يكون في مقدورهم منحها أسباب الحياة.[10]

لقد كان للنضال العربي على أرض فلسطين دوره الفاعل في الحفاظ على الشخصية الفلسطينية، أمام هجمات العدوان الإمبريالي الصهيوني، وكان للمغناة الفلسطينية الدور الفاعل والكبير للحفاظ على الذاكرة الفلسطينية، وقد لعب المثقفون الفلسطينيون دورًا بارزًا في تعزيز الصمود الوطني، وإبقاء جذوة النضال مشتعلة، على الرغم من أن العدو الصهيوني يملك طاقات هائلة، أرادت وبكل ما تملك أن تغتصب التراث الوطني الفلسطيني، وأن تنسب ثقافة فلسطين إلى ما تدعيه من خزعبلات تاريخية واهية، بالإضافة إلى أن الثقافة العربية في الجزائر قد استطاعت أن تحافظ على عروبة هذا القطر، رغم ما حاولت فرنسا من ممارسات إمبريالية لفرنسة الجزائر، وها هم أدباء وكتاب ومثقفو العراق الذين يواجهون

الاحـتلال الإمبريـالي الأميركـي ومحـاولات عملائهـم، لطمـس تـاريخهم الـوطني القـومي، قـد اسـتطاعوا أن يبـزوا دور المقاومـة العراقيـة الباسـلة، في مواجهـة أعـدائها في الـداخل والخـارج، وتكـاد تكـون الثقافـة سـياج الأمـة وعنـوان وحـدة الـوطن، وهـي قـادرة بتفعيلهـا أن تبقـي علـى جـذوة النضـال مشـتعلة؛ لأنهـا كينونـة الإنسـان وعنـوان هويتـه، ولا أحـد قـادر أن يخـرج الإنسان من ذاته، رغم محاولات التهويش والتغريـب والإقصـاء والطمـس، التي يمارسها العدو.

ثقافة المقاومة تنهض رغم حالـة السـوء التـي تعـاني منهـا الأمـة، وبشـكل خـاص في الجانـب السياسـي، فالجمـاهير وطلائعهـا المثقفـة تملـك الحـس المرهف، لالتقاط نسمة الريح التي تحمل معها مقاومـة الأمـة، في أي طـرف مـن أطرافهـا، فهـي لـم تبخـل رغـم كـل العقبـات علـى أن تكـون في خنـدق الانتفاضة الفلسطينية، وفي خندق النضال الـوطني لمقاومـة العـراق الباسـلة، رغم أن الإمبريالية والصهيونية تملك الأدوات الإعلاميـة الهائلـة، لمحاولـة طمس فعاليات وأثر المقاومة، ولكنهـا بـاءت بالفشـل؛ لأن الإنسـان العربـي مشـبعة روحـه بـروح الجهـاد والمقاومـة، لكـون ثقافتـه هـي ثقافـة جهـاد ومقاومـة، وبسـبب ذلـك لـم تسـتطع كـل قـوى الشـر في الجانـب الأميركـي والصهيوني، أن تمنع الجمـاهير العربيـة مـن الانتصـار للمقاومـة اللبنانيـة، في مواجهتهـا مـع الكيـان الصـهيوني، رغـم مـا جندتـه مـن كتـاب وحكـام، ومـا حاولـت أن تشـوه الصـورة في ذهنيـة الإنسـان العربـي المشـبعة روحـه بثقافـة المقاومة.

إن الأمة التي تنهض فيها ثقافة الممانعة والمقاومة وتزدهر، هي أمة حية قادرة على النهوض، رغم ما تواجهه من نكسات، ورغم ما يحاول الأعداء أن يعملوا لحرمانها من أن تاخذ دورها التاريخي، في بناء حاضر ومستقبل أبنائها، فلقد كاد الجهاد أن يكون فريضة سادسة على الأمة، فقد أكدت الرسالة على المقاومة، مقاومة الظلم والهيمنة والاعتداء على الحقوق، والوقوف في وجه الظلم، كما أكدت وبقوة على مواجهة العدوان الخارجي، ورد العدوان وعدم التخاذل في مواجهته؛ لأن التخاذل رذيلة، والنهوض في وجه العدوان فضيلة، وشتان بين الرذيلة والفضيلة، فالأولى صفة منبوذة يبتعد عن ممارستها الإنسان السوي، والثانية يقدم على فعلها الإنسان صاحب الرسالة والعقيدة والمبدأ، والأمة العربية أمة الرسالة والعقيدة والمبدأ، ومن هنا كانت ولا تزال ثقافتها ثقافة جهاد ومانعة ومقاومة، وإلا ما كانت تنتسب إلى نفسها لا المادية الفاعلة، ولا الروحية الدافعة للفعل.

المراجع

1. سعيد خالد الحسن، مداخلة في مؤتمر مؤسسة الفكر العربي حول «العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة»، مراكش، (2 ديسمبر2004).
2. المصدر السابق نفسه.
3. شبكة نداء القدس، بين حزيران العربي (1967)، وحزيران الفلسطيني - اللبناني (2002)، ثقافتا الهزيمة والمقاومة بكلام جديد، (16/ 4/ 2002).
4. المصدر السابق نفسه.
5. محمد صهيب محمد الشامي، شمولية مفهوم المقاومة، محاضرة ألقيت على مدرج المركز الثقافي في حلب، (19/ 8/ 2006).
6. زينات أبو شاويش، كيف نبني ثقافة المقاومة، موقع إسلام أون لاين، (12 أكتوبر2003).
7. المصدر السابق نفسه.
8. إسماعيل أبو البندورة، المقاومة تكتب مفردات ثقافتها، جريدة المجد الأردنية، (2017)، عمان الأردن.
9. علي عقلة عرسان، دراسات في الثقافة العربية، مؤسسة الدعوة الإسلامية، (2004)، طرابلس، ليبيا.
10. صالح أبو اصبع، ثقافة المقاومة، جامعة فيلادلفيا، (2004)، الأردن.

الثقافة والسياسة

ثمة من يجادل في العلاقة الجدلية بين المثقف والسياسي، حيث يرى البعض أنه لا بدَّ للمثقف أن يبتعد كلية عن دائرة السياسيين؛ لأنها بمثابة محرقة أخلاقية قليلًا جدًّا من يخرج منها بسلام، وأن هناك عالمين منفصلين بعضهما عن بعض، عالم السياسة بما فيه من مراوغات وألاعيب وتكتيكات تدوس على القيم والإيجابيات في السلوك الإنساني، وعالم الثقافة والمثقفين الذي يتزين بطهارته، التي لا تقبل أن تكون إلا في إطار قداسة الموقف وصدق الكلمة.

هناك من يرى أن المثقف يجب ألا يعيش في صومعته الخاصة به، وهو ليس بمثابة دودة كتب تأكل لذاتها، فلا بدَّ أن يقرأ ليستفيد ويفيد، بمعنى أن تكون ثقافته في خدمة المواطن الإنسان، أيًّا كان موقع هذا المواطن من الحياة؛ لأن المثقف يهدف لبناء مجتمع وكيان وطن وأمة، ومن واجبه أن يكون في خدمة الإنسان والوطن والأمة، وبالتالي أن يكون هناك حد فاصل في ما بينه وبين السياسي؛ لأن السياسي ليس بالضرورة في خدمة الإنسان، بقدر ما هو في خدمة نفسه الذاتية، التي تتناقض في كثير من الأحيان مع مصالح الجماهير، وفي أحيان أخرى تتقاطع مع مصالح الوطن والأمة.

هناك رأي يقول إذا أراد المثقف أن يكون له دور في خدمة الجمهور، فلا بدَّ أن يكون قريبًا من السياسي؛ لأن مصالح الجماهير بيد هذا الأخير، وخير

للمثقف أن يكون لـه دور في توجيه مسارات السياسي أن يكون قريبًا منه، بدلًا من ترك الحبل على الغارب، ليرتع السياسي في ممارسات لا تخدم، بقدر ما هي ذات انعكاسات سلبية تعوق مسيرة تقدم الحياة والمجتمع، وبالتالي هي مسؤولية المثقف في كثير من جوانبها، لابتعاد المثقف أن يكون في خدمة السياسة.

رأي وجيه يقول إن المثقف لـه دور ووظيفة تنويرية في المجتمع، والسياسي له دور في إدارة دفة الحياة في هذا المجتمع، فليس عيبًا أن يلتقيا معًا في ما يخدم المجتمع، على أن يكون المثقف أكثر وعيًا، بحيث لا يضع نفسه في خدمة أهداف السياسي، بحيث يكون تابعًا، بل أن تكون هناك مسافة في ما بينهما، حتى يتمكن المثقف من الاحتفاظ باستقلاليته، وحتى لا يتلوث بالسياسة وأحابيلها؛ لأن كثيرًا من المثقفين من وقعوا في إغراءات السياسة للكسب المادي والمعنوي، فأضاعوا البوصلة ولم يهتدوا إلى طريق الصواب، رغم الصراخ العالي الذي تسمعه منهم، فهم يمارسون الصراخ دون ممارسة الفعل، وهم قد أساؤوا لدور المثقف، ولم يقدموا شيئًا لا للوطن ولا للمواطنين، عندما تم استخدامهم من قبل السلطة السياسية استخدامًا ذكيًّا، فغرقوا في المنصب والجاه والمكاسب المادية، ضاربين عرض الحائط بكل ما له علاقة بمصالح رفاقهم في الثقافة.

في العالم الثالث ونحن كجزء منه، لم يتمكن المثقف أن يؤدي دورًا تنويريًّا، ولم يستطع أن يقود دفة سفينة الحياة، ووقع في براثن السلطة

السياسية وانقاد لها، وبدلًا من أن يؤثر فيها إنسته دوره الطليعي، الذي يجب أن يكونه، ولـم يتمكن أن يضع خيطًا رفيعًا يفصله عن السلطة، التي يشارك في خدمة فرسانها، وهكذا نجح السياسي في تطبيع المثقف خدمة لأهدافه، وأضاع المثقف نفسه ووظيفته ودوره المنوط به.

المثقف في الوطن العربي صاحب رسالة، ويجب أن يكون في طليعة المناضلين، الذين دومًا في خندق الجماهير ومصالحها، بعيدًا عن السلطة إلا في ما يخدم هذه الجماهير، على أن يكون واعيًا متى يكون قريبًا منها، ومتى يكون بعيدًا عنها، حتى تتمكن الجماهير من معرفة الدور الإيجابي، الذي يمارسه، ومن أجل ألا يبحر في غير محيطه التعبوي والتنويري.

المشكلة في الوطن العربي وفي نظامه السياسي، الإصرار التام من قبل النظام السياسي ألا يترك مساحة من الحرية للمثقف، فهو مطالب أن يكون تابعًا وبوق صراخ ودعاية لألاعيبه السياسية، والتي في كثير من الأحيان متناقضة مع نفسها، يمكن تبريرها بالأحابيل السياسية، ولكن لا يمكن للمثقف أن يصمد في مثل هذا التبرير أمام الجمهور، والمثقف العربي محكوم عليه أن يكون فقيرًا محرومًا من الحياة، يلهث وراء لقمة العيش؛ لأن الوطن مزرعة للسياسي، أما المثقف إن كان يحمل رؤية سياسية مغايرة أو وجهة نظر، فإن سيف السلطة السياسية يغلق كل صنابير الرزق عنه.

مشكلة الوطن العربي أن المثقف فيه بلا دور وأصبح بلا هوية وطنية؛ لأن الهوية الوطنية مرتبطة بالرغبات والميول التي تخدم النظام السياسي،

وعلى الرغم أنه ليس بالضرورة أن يكون المثقف في الخندق المعارض دومًا؛ لأن مثل ذلك معارضة عدمية، بل إنه لجدير به أن يتناول الأمور ويفسر القضايا بما لا يدع مجالًا للشك في موضوعيته وشفافيته، فليس هناك من عيب أن يكون مع السلطة في المواقف الوطنية، وبما يخدم الجماهير، وأن يكون في صفوف المعاضة، حتى مع السلطة نفسها في المواقف السلبية، التي تمارسها وتلعب دورًا سلبيًّا فيها.

إن المثقفين يجب أن يكونوا في طليعة الحركات والتيارات السياسية التنويرية، وفي حدوث غير ذلك، فإنهم لم يعودوا مثقفين؛ لأن الثقافة لا بدَّ وأن تكون في خدمة المجتمع، ومن يقبع في صومعته ويعتزل المجتمع، لا يمكن أن يؤثر فيه، ولا حتى أن يتحسس ما يدور في خلجات نفوس أبنائه، مما يعني أنه لا يمكن أن يكون معبراً عن تطلعاته من جهة، ولا يمكن له أن يدعي أنه طليعة هذا المجتمع من جهة أخرى، وباستقالته من المجتمع لا يختلف كثيرًا عن الدور الذي يمارسه المثقف، عندما يضع نفسه في خدمة السلطة السياسية، لتحقيق أهداف ومآرب شخصية بعيدًا عن مصالح الشعب، فكلاهما لا صلة له بهذا الشعب.

لا بدَّ أن يكون السياسي مثقفًا؛ لأنه إن لم يكن كذلك فهو وبال على الوطن والناس، وستكون كل قراراته في الاتجاه المعاكس لطموحات الوطن وأماني ورغبات الجمهور، ولا بدَّ للمثقف أن يكون سياسيًّا، ولكن في ما يخدم قضية وطن ومصلحة أمة، وليس مقبولًا أن يضع نفسه في خدمة

أعداء الشعب، فليس مقبولًا أيضًا ألا يضع المثقف عصارة فكره وجهده في خدمة الناس، ومن هنا فإن المثقف ملزم أن تكون له نظرية سياسية على ألا تطغى هذه النظرية على الشفافية والموضوعية في تناول الأمور ومعالجتها.

إن الحاكم المثقف والسياسي المثقف يملك القدرة على صناعة القرارات ذات المردود الإيجابي أكثر، إن كان مخلصًا لحركة الجماهير، على ألا يسعى لتطويع الثقافة والمثقفين في ما يخدم أهدافه وطموحاته الشخصية؛ لأن عددًا من الساسة المثقفين يصاب بالغرور، والتعالي على المثقفين، ويحرمهم من أداء دورهم التنويري، في اغتصابه لهذا الدور، وفي جعلهم مجرد قطيع لا يملكون إلا أن يزينوا أفكاره وتنظيراته، وهذا لا ينفي وجود حاكم يملك نظرية سياسية، وعلى اطلاع واسع وثقافة متميزة ومتنورة، تسعى لبناء وطن وخدمة أمة، ويسعى لأن يكون النضال السياسي والثقافي من أجل إنجاح مشروعه الوطني والقومي الذي يسعى إليه.

يستطيع أي نظام سياسي أن يكون في خدمة المثقف، ويستطيع المثقف أن يسهم في بناء المجتمع، وتوجيه النظام السياسي بما يخدم المجتمع، في حالة إعطاء المثقف مساحة أوسع من الحرية، فالأمم تنهض من خلال انطلاق الحريات في صفوف أبنائها، وبمزيد من الديمقراطية يمكن أن نسمح لكل من أراد أن يكون فاعلًا ومؤثرًا في المجتمع، وبالإيمان بحرية الرأي والرأي الآخر، نملك القدرة على تزاوج الأفكار وتفاعلها، في ما يخدم حركة المجتمع وتوجيهها، نحو التقدم المنشود.

نحن في الوطن العربي في أمس الحاجة لأن تغربل ثقافتنا، وأن يتم فرز المثقفين من أولئك أدعياء الثقافة، كما في السياسة وأصحاب المواقف الانتهازية والمصلحية، فالمجتمع العربي قد تم اختراقه، ليس سياسيًّا فحسب بل وثقافيًّا، وهذا الاختراق ليس إلا وبالًا على المجتمع والأمة، في ظل ثقافة العولمة الأميركية الإقصائية، التي لا تهدف إلا لتدجين الآخر، في سبيل تمرير مطامعها وأهدافها، في نهب خيرات الشعوب وتدنيس قيمها.

إن شيوع ثقافة الاستهلاك وتوالد الفضائيات دمار على وعينا وثقافتنا وأمتنا، فإن كانت تخدم قطاعًا واسعًا وكبيرًا من السياسيين الرسميين، فهي لا تخدم الثقافة والمثقفين، ويجب أن يتصدى لها المثقفون، وبشكل خاص الملتزمون بقضايا أمتهم وهموم أوطانهم ومجتمعاتهم، رغم ما يمكن أن يواجهوه من معاناة، من الجبهة الإمبريالية الصهيونية المعادية، وأولئك الذين في خندقها تلبية لمصالحهم الآنية.

إن المثقف مطالب أن يكون مع السياسي المتنور، ومع السياسي الذي يضع نصب عينيه خدمة المجتمع، وإن السياسي يجب أن يستثمر طاقات المثقف، بالاتجاه الذي يبصره على القدرة على صناعة قراراته، التي تخدم الجمهور، وعلى المثقف أن يكون حذرًا في رسم خيط رفيع بين مواقفه ومواقف السلطة، كما على السياسي أن يرتضي أن تكون هناك مساحة في ما بينه وبين المثقف، حتى يعطي لهذا المثقف الفرصة، ليلعب دوره التنويري والطليعي، دون تسلط أو إكراه.

إن العلاقة بين المثقف والسياسي، يجب ألا تكون علاقة عدائية؛ لأن لكل واحد منهما أهدافه، التي تسعى لخدمة الشعب، فإذا أخلص كل واحد منهما لرسالته، فإن عمل كل واحد منهما ينعكس إيجابيًّا على عمل الآخر، وهو ما يخدم صاحب القرار السياسي في تبصيره لحظة صناعة القرار، وبما يخدم المثقف في أن يؤدي دوره ووظيفته، في جو من الأريحية والحرية، التي تساعده على الإبداع.

إن إبداع المثقف وأداءه لدوره في مساحة من الحرية، تنعكس على الأداء السياسي، وعلى حركة المجتمع، وفي الوقت الذي يملك فيه هذا المثقف أداة فكرية ونظرية سياسية، فيما يساعد على تلاقح الأفكار، وما يمكن أن يخلق حالة من العصف الذهني، تخدم الوطن والأمة بكافة شرائح مجتمعها، من سياسيين وغيرهم.

حتى تنهض أمتنا وتساهم في بناء المدماك الحضاري، عليها أن تعطي دورًا للمثقفين بين صفوفها وحتى ينجح السياسي في لعب دوره، عليه أن يعي أن المثقف حالة تنويرية مطلوب رعايتها، والاهتمام بها، وإعطائها الفرصة لأخذ دورها، ونيل أصحابها لحقوقهم.

الثقافة والشباب

الشباب يمثلون الجسم الطليعي المستقبلي في بناء المجتمع، وهم أداة التغيير والتطور البناء المنشود في المجتمع، ومرحلة الشباب أهم مرحلة في تكوين الإنسان، بها ينضج ويستوي عوده متماسكًا، ومتى كان البناء متماسكًا كان ينبئ بالمستقبل الواعد، ومتى كان الحال مزريًا كان المستقبل ينذر بالخطر، فهم قادة المستقبل وعدّة البناء، منهم المعلمون والقادة والآباء، وهذه مسؤوليات شاقة وصعبة ذات أهمية في بناء المجتمع وتطويره، من خلال التربية والمعرفة والتوازن والانتماء والقدرة على الإبداع، واي إغفال لجانب من هذه الجوانب يعني نزع لبنة من جدار المجتمع، وكلما زادت العناية بهم والأخذ بأيديهم، أرسينا قواعد وأسسًا لبناء مستقبل بأسس متينة مطمئنة.

إن الشباب طاقة خلاقة، وأي إهمال في ذلك، هو إهمال لمثل هذه الطاقة، وإضاعة فرص ثمينة لا يمكن تعويضها، ولعل البطالة في صفوفهم خلق لحالة الإحباط، وتبديد لطاقة ثمينة وكنز نادر نحن في أمس الحاجة إليه، ونحن نتطلع إلى التنمية، ولأن هذه لا يمكن أن تقف على قدميها إلا إذا كانت تنمية بشرية وتنمية مادية، والشباب الذين يتم الاهتمام بهم هم من يحققون التنمية المادية، التي يمارسونها بأيديهم وعقولهم المدربة والمعدة لبناء المجتمع والعمل في ضوء حركة تطوره.

إن الإهمال لقطاع الشباب يعني تدميرًا متعمدًا لأسس وبنيان المجتمع، ولأن هذا الإهمال لن يحرم المجتمع من طاقته الإبداعية فحسب، بل إنه يأخذ بهذا القطاع إلى اتجاهات سلبية ستعمل على تدمير حياتهم وحياة الآخرين، وسيكون ذلك مردوده سلبيًّا على جميع فئات المجتمع، ولذلك لا بدَّ من التخطيط الواعي والمدروس المتصف بالطرق والأساليب العلمية في إعداد الشباب وتهيئتهم للمستقبل المنظور الذي ينتظرهم، مما يترتب على جميع المؤسسات الرسمية والشعبية أن تشارك في إعداد البرامج الشبابية، التي تزودهم بأسلحة الحياة ومواجهة المستقبل بما فيه من عقبات وتحديات ومشاكل.

إن الثقافة تمثل هوية الأمة، وهي في رأي الدكتور فؤاد زكريا «ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والمعرفة، وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه فردًا في المجتمع»، وهي أيضًا بقوله «صقل الذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه، وإنها ما ينتجه العقل أو الخيال البشري لتحقيق هذا الهدف».[(1)]

أما محمد عابد الجابري فيرى الثقافة على النحو التالي:

ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو في معناها، بهويتها الحضارية، وفي إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية، وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء، وبعبارة أخرى، أن الثقافة هي «المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن

نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان، ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل».[2]

يرى الدكتور عمر محمد التومي الشيباني، أن الثقافة هي «كل ما صنعه وأنتجه يد وعقل الإنسان من أمور مادية ومعنوية من خلال تفاعله مع الوسط الذي يعيش فيه، وجهده البدني والعقلي، وذلك كاللغة والعادات والتقاليد وأنماط السلوك البدني والعقلي والوجداني السائد لدى شعب من الشعوب أو في مجتمع من المجتمعات، وما يرتبط بذلك من أساليب معيشية وتربوية وقوانين وعلوم وآداب وفنون ونظم إدارية واجتماعية وسياسية، ونظم وطرائق وأساليب زراعية وصناعية واتصالية».[3]

الثقافة في ضوء ما سبق تشتمل على قدر من الأهمية والشمول لجميع جوانب الحياة، فأي مجتمع من المجتمعات لا يستطيع إلا أن يزود أبناءه من الشباب بهذا القدر المهم من الزوادة، التي لا غنى عنها في تحقيق تربية هؤلاء الشباب، وأيضًا لا يمكن الاستغناء عن الثقافة التي تشكل الجانب الروحي للحياة مع ما يشكله الشباب من جانب مادي يكتمل التعامل معهما كعنصرين متلازمين لا غنى للشباب عن أن يجعل منها نور طريق للحياة، كما أن الثقافة تزدهر وتتطور في ضوء استيعاب الشباب بها وتشبعهم بها لأنها تعني ارتباطهم بحياتهم ومجتمعهم في ماضيه وحاضره ومستقبله.

إن الثقافة هي الحصن الذي تلجأ إليه الأمم عند الشدائد، وهي تلعب دورًا حاسمًا في مواجهة التحديات التي تواجه المجتمع سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية وتربوية، وهي وسيلة فاعلة في

تحصين الذات الوطنية ضد الاستلاب والتغريب، والهدف من تثقيف الشباب هو العمل على مساعدتهم في حل مشكلاتهم ومواجهة المستقبل، وتوسيع المدارك في التعامل مع التحديات التي ستكون في طريق مسيرتهم، وبالتالي ليكونوا أعضاء فاعلين ومؤثرين في خدمة المجتمع الذي ينتمون إليه، وما يجب عليهم أن يفعلوه لتحقيق الذات، والمشاركة في البناء والتطور والتنمية نظرًا للطاقات الكامنة لديهم، وللحيوية الفاعلة والمؤثرة التي تتوفر لديهم، فالشباب فرسان التقدم والتطور والتغيير الذي يسعى المجتمع إليه، ولكن بالشكل الإيجابي الذي يخدمهم ويخدم المجتمع.

إن المجتمع يتحمل مسؤولية العمل على تثقيف قطاع الشباب؛ لأنه يفتح أمامهم أبواب الحياة والمستقبل، وهو بالتالي يخدم نفسه؛ لأن إنتاجية الشباب وحيويتهم تؤشر على حيوية المجتمع وقدرته على توليد المعرفة؛ لأن المعرفة لا يمكن أن تزدهر في ظل مجتمع تتمثل فيه أمية ثقافية، وبشكل خاص في أهم قطاع من قطاعاته، فالأمية الثقافية تعطي انطباعًا على حجم الفقر الثقافي الذي يصيب المجتمع، وهو ما يعني أن هذا المجتمع في مراحل التخلف، فازدهار ثقافة المجتمع عنوان تطور وتقدم ومؤشر على أنه سائر باتجاه التنمية الحقيقية.

إن المجتمعات ليست في حالة سكون، بل هي في حالة حركة وتطور، وهناك خوف من التباين الثقافي بين الأجيال المتعاقبة، ما بين الآباء والأبناء، ويشير بدران بسبب طبيعة المصادر فإن سلم أولويات الثقافة والمعلومات سوف يتغير تمامًا، وسوف تنسقط أسماء من سلم الأولويات وتنشأ أسماء

أخرى، وتتلاشى قوائم وتنشأ قوائم أخرى جديدة، وسوف تتغير الأذواق والمقاييس، كما تتغير الاهتمامات، إن علاقة ثقافة الجيل الصاعد بالتراث سوف تكون علاقة سريعة خفيفة بعيدة عن العمق، وبعيدة عن استيعاب الروح والمضامين الخفية للثقافة ويرى أن هناك احتمالات يمكن الإشارة إليها:[4]

- نشوء حركات ثقافية ذات طبيعة سلفية نتيجة للشعور بفقدان الجذور والابتعاد عن الأصل.
- تعمق موجات ثقافة العولمة والاقتراب منها أكثر فأكثر.

ويقترح ابراهيم بدران لمعالجة ذلك: «إمكانية توليد مفردات ثقافية وطنية وقومية مبدعة، وتطوير أنظمة معلومات وقواعد معلوماتية معاصرة تستند إلى رؤية ثقافية عربية وبالتالي تحافظ على المرجعية الثقافية للأجيال، عربية ووطنية في الإطار التاريخي للثقافة، بما في ذلك المشاركة الفاعلة للتراث المسيحي في هذه الثقافة.

من المؤكد أن أمة بغنى أمتنا الثقافي، لن تستطيع لا الثقافة السلفية ولا ثقافة العولمة أن تطمس على ما في روحها من مخزون ثقافي، رغم حالات الإقصاء الداخلي والضغط حد العدوان الخارجي، فأطفال فلسطين وشبابها ولدوا تحت الاحتلال، وهم الذين يشكلون العمود الفقري في مواجهة الاحتلال، وشباب العراق هم الذين هبوا لمواجهة الغزو الإمبريالي العسكري والاقتصادي والثقافي، مما يعني رغم حالات الإحباط

واليأس، إلا أن مخزون الأمة الثقافي الذي تتمتع به الأمة، سيكون هو الذي تستند عليه في مواجهة العقبات والتحديات، ووقت المحن والشدائد.

وإن اختلفت مفردات الخطاب الثقافي إلا أنه سيظل في الإطار الوطني والقومي التقدمي الذي سيوجه الشباب ويقود الأمة.

الثقافة عنصر فاعل ومهم في حياة الإنسان، وهي تعمل على صقل شخصية الشباب، خاصة وأن هذه الفئة في مرحلة التلقي، وهم في الأغلب قطاع الطلاب الذين على مقاعد الدراسة الثانوية والجامعية والدراسات العليا تقريبًا، مما يترتب عليه أن تكون هناك برامج ثقافية خاصة بهم تساعدهم على المطالعة والقراءة اللامنهجية والحوار البناء الهادف، إلى جانب أن تضع الكتاب في متناول أيديهم، والمكتبات فاتحة أبوابها لمشاريعهم الثقافية والبحثية، ومعاهد العلم تدفع باتجاه تشجيعهم على البحث؛ لأنه يغني الباحث ويقدم له ذخيرة ثقافية هو في أمس الحاجة إليها في حياته الدراسية والعملية، بالإضافة إلى الخدمات التي توفرها وسائل الاتصال والتكنولوجيا، كالإنترنت وما تنقله بعض الفضائيات من ندوات وحوارات ثقافية، إلى جانب ذلك لا بدَّ من أن يكون هناك اهتمام بالمنهج والكتاب المدرسي، على قدر كبير وواسع بما يحتويه من زوادة ثقافية، تسهم دون أدنى شك في بناء الهيكلية الثقافية لدى الطالب، مع الأخذ بعين الاعتبار الاهتمام بالمقررات الجامعية، التي يجب أن تكون في مستوى الحجم، الذي ينتظر المخرجات الجامعية، من الاستعداد للحياة، والتعامل معها، وبناء المستقبل.

لقد أشار عمر محمد التومي الشيباني لأهمية الثقافة للفرد والمجتمع قائلًا: «فهي بالنسبة للفرد تمكنه من اكتساب مقومات شخصيته الإنسانية، واكتساب قيم واتجاهات وعادات وتقاليد ولغة وأنماط سلوك وأساليب حياة مجتمعة، وتحقيق ذاته وهويته الوطنية والقومية، وتحقيق أمانيه وتطلعاته في الحياة، وإشباع حاجاته الأساسية، واكتساب قدرته على التفكير والإبداع والاختيار من بين البدائل المختلفة المتاحة له، وعلى التعلم والتكيف مع من وما حوله، وعلى تطوير حياته، وتطوير الحياة من حوله، وذلك من خلال تفاعله الإيجابي معها والاستفادة مما يهيأ ويتوافر له فيها، من خدمات وجهود ومناشط تربوية وتعليمية وتدريبية وإرشادية وتوجيهية وتنشئة اجتماعية شاملة».[5]

أما بالنسبة للمجتمع والأمة، فالثقافة تعتبر «الصورة المميزة للمجتمع والأمة، المجددة لهويتها وملامحها المميزة، والمعبرة عن طموحاتهما المستقبلية وأصالتها المتجددة، والأداة لتأكيد هويتها المتميزة، وتحقيق وتدعيم وحدتها المرغوبة».[6]

إن الأمة قد مرت بعصور من الانحطاط وهيمنة القوى الخارجية، وقد دخلت ثقافتها شوائب ومظاهر ضعف علقت بها، وما زالت آثارها موجودة، تحتاج إلى عملية تنقية، وعلى الرغم من حالات الهيمنة الأجنبية وفترات الضعف والتخلف، إلا أن الثقافة العربية قد استطاعت أن تحفظ للأمة والمجتمع وحدته وتجانسه في السياق العام، مما يعني أن الثقافة العربية قادرة على أن تكون ثقافة العصر والنهضة والتقدم، وهو ما يتطلب

أن نعبئ شبابنا بمكنونات الثقافة العربية ماضيها وحاضرها وطموحات المستقبل التي ننشدها، ولكن من خلال عملية فرز وتنقية مما علق بها من سلبيات الماضي وتركات الانحطاط والتخلف، وتقديم ما فيها من إيجابيات وما ينسجم مع الحاضر ومتطلبات المستقبل.

إن الثقافة التي يجب أن نقدمها للشباب لا بدَّ لها من التأكيد على وحدة الأمة، وحقها في الحياة والوجود، وطموحاتها في الوحدة والتحرير، وفهم واستيعاب مفهوم الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، واحترام الرأي والرأي الآخر، واحترام الحوار وفهمه وأصول التعامل معه كوسيلة إنسانية حضارية، يتم التعامل معها على الصعيدين ما بين الأفراد والشعوب، ونبذ العنف والاعتداء على حق الغير، ورفض العدوان ومواجهته بكل الوسائل والطرق المتاحة؛ لأن الاعتداء على الأمة أو على أي جزء منها، هو اعتداء على المواطنين في كل تواجدهم، والثقافة التي يجب أن تقدم يجب أن تكون إبداعية منتجة لا مستهلكة، ثقافة تقوم بتعزيز القيم والاتجاهات الإيجابية، وتتصدى للاتجاهات السلبية كالإقليمية والطائفية والعرقية، ثقافة ذات ارتباط بحاجات الإنسان وتلبية تطلعاته وتعبر عن همومه وقضاياه وطموحاته في مستقبل أفضل، ثقافة تزرع قيم العدل والمساواة واحترام القوانين والأنظمة، وتعزيز الانتماء ورفض التبعية، ثقافة تعتز بالتراث ولا تترك الحديث والاستفادة من المنجزات الحضارية، ثقافة تقوم على تعليم مهارات التخطيط والتنظيم والدقة واحترام الوقت والتنافس الإيجابي البناء.(7)

إن ثقافة بهذه المواصفات دون شك، ستجعل من إعدادنا للشباب في مستوى طموح احتياجاتهم، في بناء أنفسهم وجعلهم أعضاء فاعلين ومؤثرين في مسيرة مجتمعهم، وسنكون مطمئنين على أن الغرس الذي نغرسه يؤتي أكله، وإلا فإن الأمة ستفقد سنوات أخرى من حياتها، ضاعت كما ضاعت سنوات، في عهود كانت الأمة تحت وطأة الذل والهوان، بفعل سيطرة باسم الدين تارة، وباسم الحضارة تارة أخرى، أورثتها التخلف والتبعية ومشروع التجزئة والتفتيت ومشروع الاستيطان الصهيوني، وكانت أيادي شباب الأمة مكبلة بتأثير من العاملين السابقين.

إن الدور التنويري الذي يجب أن يتم إعداده لقطاع الشباب، يجب ألا يخجل من تشخيص حالة الماضي بإيجابياته وسلبياته، لتجنب السلبيات وتعزيز الإيجابيات، حتى ينطلق الشباب من الحاضر ونحو المستقبل، من خلال الوقوف على أرضية صلبة من الوعي والفهم، فكل الأمم يتخلل تاريخها حالات من التراجع، وتصاب بالهزائم والنكسات، وليست هناك أمة من الأمم ما مرت في حالات من المد والجزر، ولكن الأمم الحية هي التي تتعلم الدروس والعبر مما مرت فيه، وتسعى للنهوض من جديد.

إن تشكيل البناء الثقافي المطلوب يحتاج إلى أن تأخذ المؤسسات ذات العلاقة بالشباب دورها المنوط بها، بالشكل الذي يسمح بأن تؤدي وظيفتها تجاه غرس الثقافة، وباتجاه عمل تنسيقي بعضها مع بعض، حتى يكون هناك انسجام في العطاء بين هذه المؤسسات من جهة، وليكون التأثير فاعلًا ومؤثرًا في قطاع الشباب من جهة أخرى.

تتحمل المدرسة دورًا كبيرًا في تشكيل البناء الثقافي لدى الشباب، خاصة وهي المؤسسة الرسمية التي ينوط بها المجتمع مسؤولية تربية أبنائه والعناية بهم، وصقل مواهبهم ورعايتها والعمل على إبرازها، ومعالجة المشاكل والإحباطات التي تقف في طريق مسيرة حياتهم، والمدرسة ليست كبناء مادي أصم، بل كحركة وورشة عمل من طلاب فاعلين ومعلمين متميزين وأعضاء هيئات إدارية نشيطين، ومنهاج وكتاب مدرسي وأدوات مدرسية مساعدة، كلها يمكن أن تترك أثرًا في نفسية الطالب، وتعمل على مساعدته في تشكيل شخصيته من خلال ما يتخللها من سلوك وممارسات في ما بين الطلاب أنفسهم، والطلاب والمعلمين وهؤلاء والإدارة في علاقات حوارية توعوية وإرشادية وتوجيهية، والمنهاج وما يحويه الكتاب المدرسي من معلومات ومعارف تعمل على تزويد الطالب بأسلحة ثقافية تساعده على التقدم إلى الأمام.

- للجامعة دور مماثل ولكن بشكل أكثر تقدمًا؛ لأن الطالب فيها أكثر نضجًا، واتصاله بأدوات المعرفة أكثر دراية، ونموه العقلي أعلى درجة، فعلى الجامعة دور كبير في تأهيل الطلبة لاكتساب الثقافات والمهارات المنشودة، ومن خلال الممارسات فيها يمكن أن تنقل الصورة إلى الحياة المستقبلية؛ لأن الانتهاء من مرحلتها يفضي إلى العمل والاندماج في المجتمع، ومن الممكن أن يتعلم الطالب في الجامعة المزيد من أسلوب ممارسة الحرية والديمقراطية والتعددية وأسلوب الحوار، واحترام الرأي والرأي الآخر... إلخ.

- إن للإعـلام دورًا بـارزًا في نقـل الثقافـة المجتمعيـة التـي يسـتفيد منهـا الشـباب، وهـي قـادرة علـى المسـاهمة في تشـكيل الفضـاء الثقـافي للشباب، بما تقدمه من مادة مقروءة أو برامج إذاعية وتلفازية، وخاصة ما تقدمه الفضائيات اليوم، من برامج لا بدَّ أن يكون منه الحذر لأن فيه الغث والسمين، ومـن الضـروري أن فيهـا جانبًا كبيرًا لتزويـد الشـباب بالثقافـة المطلوبـة، مـن خـلال بـرامج ثقافيـة وفكريـة وفنيـة وعلميـة متميزة، ومدروسة دراسة واعية ودقيقة.
- تمتلك المؤسسات الثقافية القـدرة علـى المسـاهمة في التنميـة الثقافيـة مـن خـلال فعالياتهـا وأنشـطتها والاهتمـام بأعضـائها وإبـراز دور المبـدعين فيهـا، وتـوفير سـبل الوصـول إلـى المعرفـة بطـرق ميسـرة وبكلفة في متناول الشباب.
- إن للمؤسسات الرسمية مثل الثقافة والشباب والبلديات... إلـخ، دورًا فاعلًا في تشكيل الفضاء الثقافي لقطاع الشباب من خلال الدعم وتوفير سبل الوصول إلى المعرفة، إلى جانب الرعايـة والاهتمـام بالمبـدعين والأخـذ بيـد ذوي الاحتياجـات الخاصـة مـن الشـباب، ولا شـك أن مؤسسات المجتمع المدني تستطيع أن تلعب دورًا في هذا المجال لأن الشـباب هـم طليعـة الأمـة في بنـاء مسـتقبلها، وأدوات تغييرهـا باتجـاه التقدم والتنمية التي تشمل الجميع.
- لا شك أن الأسرة حاضنة الشـباب الأولـى في مرحلـة الطفولـة، تلعـب دورًا بارزًا ومـؤثرًا في ثقافـة الطفـل ورعايتـه، وبشـكل يمكـن أن يكـون

أقل في مرحلة الشباب، نظرًا لتعرض الشاب لمؤثرات كثيرة وجديدة تساهم في تشكيل بنائه الثقافي، ومع ذلك يبقى للأسرة دور في تحديد قيم الشباب واتجاهاتهم ومعتقداتهم وثقافتهم ومسلكهم، من خلال ما يوفره الوالدان من ظروف بيئية مناسبة لتربية أبنائهم، وبذلك يبقى لهما التأثير الفاعل حتى في مرحلة الشباب.

المصادر

1. فؤاد زكريا، «خطاب إلى العقل العربي»، سلسلة كتاب العربي، الكتاب السابع عشر، الكويت، (أكتوبر/ 1987)، ص41.
2. محمد عابد الجابري، «العرب والعولمة»، (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت، (1988)، ص792-892.
3. عمر محمد التومي الشيباني، «مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (1988)، ص380.
4. إبراهيم بدران، «مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين»، الثقافة العربية وعصر التحديات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (1988)، ص772.
5. عمر محمد التومي الشيباني، مصدر سابق، ص483-583.
6. المصدر السابق نفسه، ص483-583.
7. صلاح جرار، «الثقافة والشباب في القرن الحادي والعشرين» سلسلة التثقيف الشبابي (36)، تصدرها وزارة الشباب والرياضة في المملكة الأردنية الهاشمية، مطبعة التوفيق، عمان، (2000)، ص43-46.

ثقافة الحوار

هناك قول عربي مأثور «لا تكن قاسيًا فتكسر، ولا لينًا فتعصر» إن التعددية في الموضوعات، وتعددية الآراء في كل موضوع من الحقائق المهمة في حياتنا، والتعددية مسألة فكرية ترتبط بالمعرفة وتبادلها ومن هذا المنطلق يصبح الحوار ضرورة، ولا شك أن الحوار من الحقول التي تبدأ بالحقائق وتنتقل بعد ذلك إلى أفكار الأطراف المتحاورة، والمعرفة في أي حقل، والحوار يوسع دائرة الرؤية أمام العقل البشري ويجعل من استيعاب الحقائق بشكل أعمق ويحفزه على التفكير والتروي واستنباط الحكمة ويساعده على المزيد منها.

ولكي يكون الحوار ناجحًا، ويتجنب طغيان الأقوى على الأضعف هناك متطلبان اثنان: أولهما أن تتوفر نوايا الخير وتجنب الأذى، وثانيهما أن تكون ثقافة الحوار في إطار سماع الرأي الآخر، فنوايا الخير تحد من إغراء ممارسة القوة على ضرورة التنازل عن المبادئ والمعتقدات، أما ثقافة الحوار فهي في الحقيقة تحد من تمرد الضعف على هذه الممارسة والابتكار، وأقامت الحضارات وحققت التقدم والثقافة التي بنت المجتمعات وحفّزت روح الإبداع.

الحوار ثقافة التفاعل الفكري والتفاهم الإنساني، وهي ثقافة أكثر قدرة على العطاء وعلى تحقيق سعادة الإنسان القادر على الحوار في بيئة نوايا الخير، هو الإنسان المفكر والقادر على استيعاب ما لدى الآخرين من فكر

ومعارف ومهارات مفيدة في المدرسة وفي العلاقات الاجتماعية، إلى جانب ضرورة غرس ثقافة الحوار في المنزل، وأصبحت مسألة الحوار في إطار موضوع المؤسسات ودفعها نحو الإمكانات المعرفية والفكرية وتحفيزها نحو التقدم المستمر.

يتألف المجتمع من أفراد يحملون أفكارًا مختلفة وينتمون لأطياف متنوعة ولهذا فإن اختلافهم في الآراء شيء طبيعي إلا أنه مشكلة في المجتمعات التي تضعف فيها ثقافة الحوار، ومن ملامح ضعف ثقافة الحوار هو عدم احترام الاختلاف على الرغم بأنه سنّة الحياة، ومحاولة البعض إلغاء فكر الآخر ومحاربته، وعلى الرغم من وجود الاختلاف في كل شيء إلا أننا لا نتقبله في أفكارنا.

اختلافهم في الآراء شيء طبيعي جدًّا بيد أن هذا الاختلاف ولد مشكلة في المجتمع العربي متمثلة في ضعف ثقافة، ومن أبرز ملامح ضعف ثقافة الحوار هو عدم احترام الأطراف آراء بعضها بعضًا ومحاولة إلغاء فكر الآخر ومحاربته كلاميًّا على الرغم من الاختلاف هو سنة الحياة والاختلاف موجود في كل شيء، فكيف لا نتقبله في أفكارنا[1].

ومن أهم أسباب بروز ضعف الحوار لدينا هي التربية التي نُربى عليها فالعديد من الأسر لا تربي أبناءها على الحوار والصراحة والمناقشة ويسود

---

(1) الفنتوخ، عبد القادر، بناء ثقافة الحوار في المجتمع ودور التعليم، الاقتصادية الالكترونية، www.Alegt.Com

فيها فرض الآراء دون أن تكون لديهم مساحة للتعبير عن الرأي، والحوار الواعي هو السبيل الأمثل لتحقيق النجاح لكي نصنع مجتمعًا متطورًا ومزدهرًا[1].

تستطيع المؤسسات التعليمية والأهلية أن تقوم بنشر ثقافة الحوار مثل الأسرة والمدرسة والمسجد والتلفاز[2].

- **دور الأسرة في نشر ثقافة الحوار**

يقول الشاعر:

إذا كان ربّ البيت للدّفّ ضاربًا فشيمة أهل البيت كلّهم الرّقص

إن الأبوين هما القدوة الأولى التي يقلّدها الأبناء، في سنّ الطفولة على وجه التحديد؛ لأن القدوة «تختلف باختلاف المراحل السنّيّة التي يمرّ بها الفرد، فيتأثر الأطفال مثلًا بالقدوة المحيطة بهم داخل الأسرة، أما الشباب فيعتمدون على خبراتهم الذاتية، وملاحظاتهم الخاصة لنشاط القيادات المحيطة بهم وأعمالهم، وقادة المجتمع في الميادين كافة، وكذا من خلال

(1) الليلك، براري (2008)، ثقافة الحوار، http://www.albararry.net .

(2) جبر، يحيى وحمد، عبير (2009)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

الاطلاع والقراءات الثقافية، ومن خلال تعرفهم على الفترات التاريخية السابقة، فضلًا عن أحداث الحياة الاجتماعية التي يمرون بها[1].

فللأسرة نظامها، وقوانينها، وتعليماتها، وعلاقاتها الداخلية والخارجية. ينشأ الفرد في كنفها، فتزرع فيه النزعة الغيرية، وتحدّ من أنانيته، وتعلمه ضرورة الحوار، ومراعاة مشاعر الآخرين وحاجاتهم وظروفهم. ولا تقتصر مهمة الأسرة على «غرس هذه التعاليم الاجتماعية، بل مراقبتها ومحاسبة أبنائها على مخالفتها، وهذا يعني أنها وحدة اجتماعية ضابطة لسلوك أفرادها؛ توجههم نحو الاندفاع والتماثل الاجتماعي مع مجتمعهم، الذي يبلور تضامنًا اجتماعيًّا قويًّا ومتجانسًا، اجتماعيًّا ونفسيًّا وثقافيًّا»[2].

- **دور المدرسة في نشر ثقافة الحوار**

يقول المثل: العلم في الصغر كالنقش في الحجر، ويقول أيضًا: من شبّ على شيء شاب عليه. والطبع غلب التطبع، وقد قيل قديمًا إن المدرسة هي البيت الثاني للطالب، حيث يقضي ما يقارب نصف وقت يقظته، فهي إذًا تمثل عاملًا أساسيًّا في تشكيل شخصية الطالب، وبناء عقله.

---

(1) عويس، مسعد (1979)، القدوة في محيط النشء والشباب، دار الفكر العربي، ص62.

(2) العمر، معن خليل (2001)، ثنائيات علم الاجتماع، دار الشروق رام الله فلسطين، ص148.

واليوم، لم تَعد التربية وسيلة لغاية محددة؛ لأن الزمن تجاوز الصورة القديمة إلى المجتمع الدائم التعلم، من المهد إلى اللحد، وفي مجالات الحياة كافة، ولم تعد تقتصر أهمية التربية على ما تسهم به في تشكيل المستقبل المهني للفرد، بل إنها تمتد لتشمل القيم التي تصوغها، إلى نوعية حياة المرء في عمومها[1] «فالتعليم والإعداد للحياة متلازمان، الأول وسيلة والثاني غاية»، وإن مصداقية المؤسسة التعليمية تتوقف على مدى التطابق بين ما تقوله وما تفعله حقيقة، أي بين ما تدرّسه للطلاب نظريًّا، وما تمارسه في تعاملها اليوميّ معهم.

- **دور المسجد في نشر ثقافة الحوار**

يمثل المسجد قوة جبارة، قادرة على بناء معتقدات الأفراد وصياغة توجهاتهم، نظرًا لما يتمتع به من قدسية في النفوس، بصفته بيت الله في الأرض، وأن الدين بوصفه نظامًا اجتماعيًّا، يعد من القوى الأصيلة في كل المجتمعات؛ لأنه يمارس سلطة اجتماعية لا غنى عنها، وحتى تكون المساجد فعالة، فإنه يجب على خطباء المساجد أن يتوقفوا عن تحميل نتائج كل كارثة ومشكلة للجمهور، وكأنهم مخلوقات من نور لا غبار عليهم، والحقيقة، أنهم هم الملومون قبل العامة، فلا فصل بين الدين

(1) عبد المعطي، يوسف (مترجم) أمة معرضة للخطر، مجلة رسالة الخليج العربي، عدد 12، سنة (1984)، ص24.

والحياة، ويجب عليهم أن يخرجوا من صومعتهم، ويطرحوا الحلول الواقعية بدل الخطب الصماء التي غالبًا ما تكون أقرب إلى الشعوذة وسجع الكهان.

- **دور الإعلام**

الإعلام هو السلطة الرابعة، لما له من أثر فعال في توجيه الرأي العام والتأثير فيه، وقد شهد الميدان الإعلاميّ تطورات كبيرة ونقلات نوعية، نتيجة للتطور التقني الشامل، ويمكننا القول إن الفضائيات المحترمة عززت الهوية القومية ورسّختها، وعززت التفاعل بين الشعوب العربية، فعلى الرغم من التحفظ على مستوى ما تقدمه بعض الفضائيات العربية، وعلى أسلوب بعضها الآخر ومضمونه، فإنها تصنع مناخًا مناسبًا للحوار والتفاعل العربيّ العربيّ، ومجالًا يسهم فيه الجمهور ويبدي رأيه فيه، مما يشكل تيارًا يشق طريقه بين الناس، ويعزز الوجود العربي في إطار القرية العالمية الصغيرة [1]، ويجب التنبيه إلى أن هذا الحوار، يجب أن يكون مبنيًّا على أساس الندية والاحترام المتبادل، ليختار كلٌّ ما يطيب له من المائدة الثقافية، إذ إن نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح،

---

(1) مجلة رؤى التربوية، مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله ـ فلسطين، العدد 20، ص75.

فلم يعد بوسع أحد أن يدّعي الاكتفاء الذاتيّ الشامل، وبالتالي فلا بدّ من الأخذ والعطاء في شتى الميادين، ولا بدّ من الحوار.

يتميز الإنسان عن غيره بقدرته على التفاعل مع الآخرين سلوكيًّا، وعاطفيًّا، ويشكل هذا التفاعل القاعدة الأساسية لتبادل الخبرات، والقيم، والسلوكيات، والمفاهيم بين الأفراد والجماعات وحتى الأجيال، وهناك عمليتان يتم من خلالهما تحقيق هذا التفاعل، هما: الإرسال والاستقبال، فالمتحدث هو المرسل والمستمع هو المستقبل، وهذا في مجمله هو الذي نطلق عليه الحوار، وإذا كانت الثقافة هي ذلك المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة والمعتقد والفن والأدب والأخلاق والقانون والعرف والقدرات والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع، فإننا بجمع المفهومين نتوصل إلى مصطلح ثقافة الحوار، وهي أهم ثقافة تسهم في بناء المجتمع وتعزز أركانه؛ لأن الحوار خاصية إنسانية بالدرجة الأولى.

أصبح العالم في عصرنا الحالي قرية صغيرة، فقد استحدثت قنوات وآليات مختلفة للحوار والتخاطب بين الناس بأشكالهم كافة، وألوانهم، وانتماءاتهم، وولاءاتهم، ووفق مصالحهم، وبغير تلك قنوات والآليات، فإن المجتمع يفتقد لعوامل الرقي والتقدم، بل لا يمكن تحقيقها مطلقًا.

إن مستوى ثقافة الحوار في أي مجتمع هو الذي يحدد الملامح العامة والخاصة لذلك المجتمع وهي التي تمكنك من إعطائه الوصف الذي يمكن أن يطلق عليه، أما الذي يحدد قطبي عملية الحوار فهو مدى إمكانية

المحافظة على تدفق المعلومات المتبادل وأشكالها المختلفة، وأن تمتع المجتمع مستوى متقدم من ثقافة الحوار يعني أن المواطنين يمتلكون الإقرار كلٌّ بوجود الآخر وعندها ستتحقق الديمقراطية للشعب بكل أطيافه، وعندئذ ستتحدد المفاهيم المختلفة في جو من الاحترام المتبادل والمحافظة على الكرامة الوطنية التي تتضمن كرامة الفرد، كما أن الجميع يؤمن بأن الناس قد ولدوا أحرارًا وأن أحدًا لا يملك حق مصادرة الآخر في العيش الكريم.

علينا المساهمة في تعزيز ثقافة الحوار ومستوياته، وتحديد العوامل وأسلوب حياة ومنهج أساسي للعلاقات وألا تحكمنا قاعدة من ليس معي فهو ضدي ومن لا يقر بحق الآخر في العيش الحر أنه ضد الوحدة والتوحد وهو جزء من عوامل الفرقة والتشرم والضياع وهو ضد الوطن والهوية[1].

أصبح منهج الحوار، ضرورة إنسانية وحضارية ودينية في عالم أُسقِطت فيه الحواجز وتشابكت فيه المصالح وتزايدت احتياجات البشر بعضهم لبعض، بحيث أصبح الشأن الداخلي شأنًا خارجيًّا -أيضًا- يتأثر بالعامل الخارجي ويؤثر فيه، وصار العالم معنيًّا بعضه ببعض بشكل أقوى وأعمق مما قبل، وتتزايد أهمية الحوار العقلاني، الذي يسعى لتجنب الصدامات، ويحاول توسيع آفاق التفاهم عبر التركيز على الجوانب الإيجابية المتحققة،

(1) العصا، عزيز (2009)، ثقافة الحوار: ضرورة وطنية.. أم مفهوم نتغنى به؟ جريدة القدس الفلسطينية، (9 / شباط/ 2009) a_alassa@yahoo.com.

وتسليط الأضواء على أوجه الشراكة المثمرة، سواء بتفعيل آليات الحوار الداخلي بين أطياف وطوائف وجماعات وعناصر ومكونات المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات العربية والإسلامية أو بين المسلمين وغيرهم من أبناء المجتمعات الأخرى.

إن ثقافة الحوار تعني أعمق من مجرد الاستماع إلى وجهات النظر وتتطلب الاعتراف بشرعية الآخر والاعتراف بحقه في الرأي، وحقه الطبيعي بالمشاركة في القرار السياسي ليس منّة ولا إحسانًا أو تنازلًا، وإن ثقافة الحوار لا يمكن ترسيخها في الأرض في ضوء المصادرة أو التهميش أو التخوين أو التكفير، وإن قناعتنا بها يجب أن تكون بديهية ونؤمن بها كقناعة جماعية[1].

لا سبيل إلى غرس القناعة الجماعية إلا بإخضاع المنظومات المجتمعية الفاعلة كافة، وهي المنظومات الفكرية والسياسية والثقافية والتعليمية والدينية والمنتجة للثقافة والتشريعية إلى سلسلة من عمليات الفحص والمراجعة والنقد والتقويم، وفرز ما هو قيّم وأصيل وإنساني عما هو من موروث التعصب والكراهية والاستعلاء، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

---

(1) الأنصاري، عبد الحميد (2008)، كيف نفعّل ثقافة الحوار، جريدة الاتحاد الإماراتية.

إن الحوار والتواصل هو القدرة على التفاعل المعرفي والعاطفي والسلوكي مع الآخرين، وهو ما يميز الإنسان عن غيره؛ مما سهل تبادل الخبرات والمفاهيم بين الأجيال.

يعد حسن الاستماع من أهم شروط التواصل الناجح مع الآخرين ويفيد الطرفين في استمرار الحوار والتواصل وشعور المتحدث بارتياح واطمئنان وشعور المستمع بالفهم الجيد والإلمام بموضوع الحوار مما يمكنه من الرد المناسب، ولتحقيق الاستماع الجيد لا بدَّ من توفر شروط منها:

- إقبال المستمع نحو المتحدث.
- عدم إظهار علامات الرفض والاستياء.
- عدم الانفعال أو إعطاء ردود فعل سريعة ومباشرة قبل إنهاء المتحدث كلامه؛ كي يستمر المتحدث في الاسترسال ويستمر التواصل[1].

---

(1) فرّاج، خالد خميس، ثقافة الحوار من منظور إسلامي، http//:www,geocities.

ثقافة الإصغاء

ثقافة الإصغاء عالم شديد الخصوصية، نعيشه بالفطرة، والتربية الاجتماعية، والسلوك اليومي المعتاد لنا، قوامه التأمل والصبر واستجماع الذاكرة، والتهيؤ لاستقبال الأفكار، واستحضار الأفكار البديلة، والدخول إلى عوالم متشابكة من الأسئلة والأجوبة، تشترك فيه الحواس كلها، حسب الصفة الاجتماعية، أو الرسمية للحديث والمحادثة، وأهميتهما بالنسبة للشخص المصغي، الذي عليه القيام بواجب الإصغاء والإنصات، وقد اشترك علماء النفس والاجتماع في تأطير هذا السلوك الاجتماعي، بدراسات ومباحث كثيرة، بوصفه فنًّا حضاريًّا وسلوكًا اجتماعيًّا، يرقى إلى تأسيس حوار متقدم، باتجاه تشكيل أسس حضارية وثقافية، تقوم على الاحترام والاستماع إلى وجهات النظر بين أطراف المحاورة.

حساسية الإصغاء: أن تكون مصغيًا يعني أن تكون صامتًا، لا بمعنى الصمت المطبق إنما بمعنى الاسترسال في استقبال المعلومات وهضمها بسرعة فائقة تمهيدًا لمجاراتها أو الرد عليها، فالإصغاء هو تأمل كلام الآخر وعدم مقاطعته لحين إكمال إرساله النفسي والمعرفي للمتلقي، وهذا الأخير ينبغي أن تتوفر فيه شروط الإصغاء والاستماع وهي شروط غاية في الدقة، اجتهد المختصون في إيجادها، عبر تجارب مختلفة وانتباهات اجتماعية متكررة، كعدم المقاطعة دون سبب وجيه، بما يُفقد إرساليات المتحدث، واحترام الآخر المتحدث بهز الرأس أو بالتشجيع على مواصلة الكلام

بإشارة اليد، وتصفية الحواس كلها من أي شائبة طارئة تقتنص لحظة الإصغاء فتشتت الانتباه، والتركيز الكبير على فهم الإرسال تمهيدًا لاستيعابه وقراءة الآخر بما يضمن سلامة الإجراءات الحوارية القادمة، لا سيما والمطلوب هنا من المصغي أن ينمّي حساسيته وفطرته وذكاءه في استقراء الأفكار الباطنية للشخص المرسِل، وقراءة المخفي ما بين الكلمات، فقد يكون المتحدث صارمًا بقواعده اللفظية، واستعاراته المجازية، وما يحفظه من حِكَمٍ وأمثال وأشعارٍ وأقوالٍ لغيره، تعينه على إيصال فكرته بالشكل الذي يريده، لا كما يريده المستقبِلون، لذا فحساسية الإصغاء ستكون أهم من حساسية الكلام والثرثرة، وثقافة الاستماع أكثر فاعلية من ثقافة المحكي من الكلام، وطرفا الصمت والكلام هما طرفان في التبادل الثقافي والمعرفي، والإنساني والاجتماعي، نظرًا لما يوفرانه من متعة حضارية في التفاهم اليومي، لحل المعضلات التي تواجههما.

وهنا يمكن أن نحيل ثقافة الإصغاء لدى الناس إلى اتجاهين :

الأول: الإصغاء إلى الآخرين.

الثاني: الإصغاء إلى الذات .

لا يتم الاتجاه الأول بشكله الجمالي الحضاري ما لم يتأسس الاتجاه الثاني على فاعلية ثقافية مرنة ومهارة اجتماعية مكتسبة من المحيط الاجتماعي، فالإصغاء إلى الآخر إصغاء إلى النفس أولًا عندما لا يشوبها ما يعكّر استرسالها في استقبال الآخر وأفكاره، والعكس سيجعل من الاستقبال متلكئًا في ذهنٍ شارد ومشتت يصعب التركيز فيه، ففهم الذات

والتواصل معها وتنقيتها، مما يقطع عليها شكوكها من أولويات ثقافة الإصغاء، والمصغي رجلًا كان أم امرأة، يتوجب أن يكون في لحظة الإصغاء ممتثلًا لسلطة الاستقبال المتوقدة لديه، وفهم الذات هو فهم الآخر، وبالتالي فهم الآخرين كمجموع[1].

إن هناك قيمة تكاد تغيب خلال دوامة الحديث عن أهمية تبادل النقاش والحوار المتبادل بين شرائح المجتمع العربي كافة، وهذه القيمة المعروفة بغيابها: فن الإصغاء للآخر، ما يعني غياب جوهر وصلب أي حوار أو نقاش متبادل، والمفهوم أن الحوار يعتمد في أساسه على «الإصغاء» للبناء في المقابل، إما بالقبول بما يقوله الطرف الأول، المتكلم، والأخذ بما يقوله أو رفضه، إذا ما كان غير متوافق مع ما يريده الطرف الآخر، وهناك تغييب عربي واضح لأحد أركان الحوار الهادف، وما ينطبق دون شك على جميع الدول العربية.

الطريق إلى الحوار والنقاش الهادف، سياسيًّا وثقافيًّا ودينيًّا، يتطلب إيمانًا بأن «الإصغاء» الجيد، هو الأساس لفهم كيف يفكر الآخرون وما يريدون منا، هذا إذا كان الأمر متعلقًا بالداخل أو الخارج، والإصغاء باعتباره «فنًّا»، فهو المنطلق الحقيقي للتوصل إلى نقاط محددة مع الطرف الآخر، سواء على مستوى دائرة العلاقات الاجتماعية الضيقة، أو علاقات العمل أو مناقشة القضايا المجتمعية... إلخ، وإن ذلك لن يتحقق ما لم يكن هناك «إصغاء» جيد، باعتبار أن ذلك أساس لكل عمل جماعي.

---

(1) منتديات فزاع، http://www.fazza3.com.

إن فـن الإصـغاء الجيـد، يتطلـب وعيًـا ويقظـة مـن المسـتمع بمـا يقولـه المتحدث، ولـيس التأكيـد بالإيجـاب، بترديـد مفـردات تـدل علـى الموافقـة والإيجاب، أو مؤشرات معينة، تؤكد أن الموافقة مثل «هـز الـرأس»، بـأن مـا يقوله صحيح، بهدف إنهاء كلامه، وبالتالي كي يبدأ هـو بالحـديث، كمـا هـو حاصل في العديد من حواراتنا الثنائية والجماعية.

نلاحظ جميعًا أن غياب قيمة الإصغاء، نتج عنه تـدنٍ في الحـوار، وخلـق الكثيـر مـن المشـاكل، مـا يتطلـب وقفـة جـادة، وعلاجًـا سـريعًا، إذا مـا أردنـا الإصلاح؛ لأن فقدان هـذه القيمـة، معنـاه فقـدان القـدرة علـى التواصـل بـين الأفراد في المجتمع، وبالتالي فقدان الرؤى على الساحة السياسية والثقافيـة، وهو دليل على الـرفض المسبق لمـا يمكـن أن يقولـه المتحـدث للمسـتمع، ولكل وجهـة نظـر تختلـف مـع وجهـة نظرنـا، بغـض النظـر عـن منطقيـة هـذا الرأي، ولعلنا إذا أردنا أن نوضح خطورة غياب «الإصغاء»، مـا علينـا سـوى إلقـاء نظـرة علـى مـا يـدور مـن حـوارات ونقاشـات في القنـوات التلفزيونيـة والإذاعيــة، ومــا يتســرب مــن الاجتماعــات المغلقــة بــين المــوظفين والمسؤولين في المؤسسات، وحتى على مستوى القادة.

المشـترك بـين الجميـع أن لا أحـد يصـغي لأحـد، بـل الكـل يـتكلم في آن واحد، الكل يصرخ، والكل يصيح بانفعـال، ولا أحـد يصـغي لأحـد، الكـل يفعل ذلك بصفة دائمة في كل مكان، لكن لا أحد يستمع لأحد.

الحقيقة التي لا تخلو في جانب منها مناهج التربية العربية عمومًا، هي أنـه منذ الصـغر والفـرد العربـي يـرى أن الجميـع، يتحـدث دون أي يصـغي أحـد للآخر، وهذه العادة التي نعتقدها عين حريـة التعبيـر، لا تحتـاج إلـى دراسـة،

كي يكتشفها أحدنا، بل بمجرد الجلوس في مجلس، سواء للفرح أو الترح، أو حتى في النقاش العملي، سيجد أن الجميع يتحدثون، لكن لا أحد يستمع، وإن فعل أحدهم وأعطاك أذنيه، فستجده شارد الذهن، وإن سألته حول مدى فهمه لما تقول، تجده إما يمسك آخر جملة قلتها، أو أنه يؤكد لك بالإيجاب على ما قلته بكل المفردات، التي تعرف أنه موافق معك عليها، عدم الإصغاء «عادة سيئة» غرست في أفراد الشعوب العربية منذ الصغر.

خطورة الظاهرة نجدها في أن مشكلاتنا المحلية والإقليمية تراوح مكانها، رغم كثرة الحوارات في المجالس والمنتديات والجرائد، إلا أنها مستمرة بلا حل، وستبقى كذلك إلى أن نجيد فن الحوار الهادف، ثقافة الإصغاء للآخر، الاتحاد الإماراتية[1].

- **المبادئ الأساسية للإصغاء:**

1. التفرغ التام للمتحدث.
2. تركيز الانتباه على كل ما يقوله المتحدث من أفكار رئيسه.
3. إعطاء الفرصة للمتحدث لقول كل مايريد التعبير عنه كأن تقول له تكلم إنني أسمعك.. نعم تفضل.
4. الإصغاء لغرض الفهم لا لغرض المناقضة.
5. الانتباه لكل كلمه تقال.

(1) محمد خلفان الصوفي، 2007.

6. الانتباه للتعابير غير اللفظية الصادرة عن المتحدث (الإيحاءات ،حركة الأيدي، الصوت... إلخ).
7. محاولة قراءة ما لم يقله المتحدث صراحة.
8. تجنب التسرع في اتخاذ القرار.
9. تجنب تصنيف المتحدث وإطلاق الأحكام القطعية قبل الانتهاء[1].

الإصغاء هو نصف المحادثة.. فـإذا لم تصغ جيدًا إلى محادثك فإنه سيحدث ذلك أثرًا سلبيًّا لمحاورك. . ولعل الكثيرين يحاولون دائمًا أن يقولوا أكثر من استماعهم وهـذا خطأ كبير في منظومة الحوار فقد قيل قديمًا إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.

الواقع أننا لا نحب الإصغاء ونتحدث أو نرغب في الحديث أكثر من الإصغاء، لكن المأساة أن يأتي الحديث دونما ترتيب ودونما متابعة فكرية، أو أن يكون الحديث لمجرد الحديث، أو للاستئثار باللحظة، أو لإثبات الذات والقدرات للآخرين، وفي أحايين كثيرة لتصوير رأينا على أنه صواب، والرأي المقابل بأنه خطأ لا صحة فيه.

أكثر أنواع الإصغاء دقة وحذاقة، هي التي تبنى على معرفة الدوافع الحقيقية للمتحدث، خاصة حينما يطرح المتحدث حقائق أولية لم تكن معلومة، فتكون مجبراً على الاستماع، لكن الكثيرين منا لا يعرفون كيف

(1) ما هو الفرق بين الاستماع والإصغاء, http://www.fawakh.com .

يصغون أو ينصتون؛ لأن الإصغاء فن يحتاج إلى ممارسة، ليتحول إلى عادة ذكية، يكون العقل هو الضابط الأول فيها[1].

الكثير منا لا يملك مهارة الإنصات والإصغاء الجيد للآخرين، وأحيانًا كثيرة قد تصبح هناك مشاكل جمة بين الأزواج بسبب هذه المشكلة، وحتى بين الآباء والأبناء، لذلك من الضروري أن نتعلم هذه المهارة؛ لأنها ستفتح لنا مجالًا أكبر للتعرف على من حولنا بصورة أقرب، وأيضًا ستفتح لنا المجال في بناء علاقات وتواصل ممتاز ومميز مع الآخرين، وخصوصًا في زمن أصبح فيه الإنصات لغيرنا مشكلة، يعتبر فن الإصغاء والإنصات أحد سمات التحضر، وتعتبر القدرة على الاستماع فنًّا، وليس فقط مهارة، وهو أحد مبادئ أصول وآداب الحديث والحوار، فحاجتنا للأذنين ضعف حاجتنا للسان بالتأكيد، والإنصات أفضل الطرق لإقناع الآخرين بأن الشخص المنصت لطيف وذكي.

- **فوائد الإنصات الجيد:**

1. إتاحة الفرصة للاوعي المتحدث (عقله الباطن للمتحدث) ليخرج ما به من مشاعر حقيقية.
2. قد نحتاج لإبقاء أوراقنا غير مكشوفة حتى نطمئن لمن نتحدث إليه.
3. إن للإنصات فائدة عظيمة وهي أنه يساعدنا على فهم أنفسنا.
4. يساعدنا على التخلص لفترات معقولة من التمركز حول أنفسنا.

---

(1) صلاح محمد عبد الدائم. . شكوكو، shococo@hotmail.com.

5. يساعدنا ألا تحتكر أنفسنا كل اهتمامنا بل أن نخرج قليلًا لننصت لغيرنا.
6. يساعدنا على التكلم بعفوية مع الآخر وستخرج من أفواهنا أقوال رائعة وذكية ومناسبة.
7. كما يساعدنا على التقرب من الآخرين.. ومعرفتهم بشكل أعم.

- **الوصايا العشر التي وضعها الخبراء للإنصات الجيد:**

1. توقف عن الكلام.
2. اجعل المتحدث يشعر بالارتياح.
3. اجعل المتحدث يحس أنك تريد الإصغاء .
4. تخلص مما يشتت الانتباه.
5. تعاطف مع المتحدث.
6. كن صبورًا.
7. حافظ على مزاجك.
8. لا تتوقف عند النقاط التي تثير الجدل أو الانتقاد.
9. اسأل بعض الأسئلة في نهاية الحديث.
10. توقف عن الكلام مرة أخرى[1].

(1) مهارات الإنصات والإصغاء للآخر، http://www.alhasa.com.

التربية والثقافة

أولاً: ضرورة التربية

يعلن مؤتمر وزراء التربية في الدول العربية عن إيمانه العميق بأن التعليم -إذا أحسن تعبئته وتوجيهه كمًّا وكيفًا- قوة فعَالة في إحداث التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وفي تمكين الأمة العربية من مَواجهة التحديات ومغالبة الصعاب والتغلب عليها[1].

فلا الفرد يستطيع أن يستغني عنها ولا المجتمع أيضًا، وهي حق يجب أن تتمتع به جميع الطبقات على السواء، وهذه شرعة حقوق الإنسان تنبئنا بأن التربية حق من حقوق كل مواطن، وبأن التعليم يجب أن يكون إلزاميًّا في مرحلته الابتدائية، ومجانيًّا في الأولى والأساسية على الأقل[2].

يحتاج الفرد إلى التربية لأسباب جوهرية ثلاثة:

1. لأن العلم لا ينتقل من جيل إلى جيل بالوراثة.
2. لأن الطفل مخلوق كثير الاتَكال، قابل للتكيَف.
3. لأن البيئة البشرية كثيرة التعقُد والتبدُّل.

(1) اليونسكو، «التقرير النهائي-المؤتمر الإقليمي الثالث لوزراء التربية في الدول العربية»، (1970)، ص18.

(2) شرعة حقوق الإنسان المادة 26.

ثانيًا: معنى التربية

الإنسان الذي يستطيع أن يكيف نفسه وفقًا لبيئته ويساير روح عصره، تكتب له الحياة ويكون عضوًا عاملًا في مجتمعه، أما الذي يعجز عن ذلك، فإنه يموت موتًا، وإن هو بقي على قيد الحياة، فإنه يعيش على هامشها ويظل عالة على أهله ومواطنيه.

إن التربية، في نظر العالم الحديث، هي عملية تكيّف ما بين المتعلم وبيئته، غير أن المربين عبر العصور لم يروا فيها هذا الرأي، بل اختلفوا في تفسير معناها وذهبوا فيه مذاهب شتى، فمنهم من قال إن التربية هي عملية يلقَّن بها المتعلم معلومات في مختلف مواد التعليم، ومن المربين من ذهب إلى أن التربية عملية تتفتح بها قابليَات المتعلم الكامنة، كما تتفتح النباتات والأزهار، أي أن الطفل مجموعة من القابليات، وما وظيفة التربية إلا العمل في سبيل تفَتح هذه القابليات ونموها، ومن المربين أيضًا من قال بنظرية الترويض العقلي، وخلاصة هذه النظرية أن عقل الإنسان يُروَّض كما يروّض جسمه، فكما أن عضلات الجسم تتقوى بالحركات الرياضية المجهدة، كذلك فإن ملكات العقل تتقوى بدراسة المواد الصعبة، فكان لها أثر كبير في اتجاه التعليم ووضع مناهجه منذ أقدم العصور، ومن النظريات، نظرية التكيّف[1] القائلة بأن التربية هي عملية تكيّف أو تفاعُل ما بين المتعلم والبيئة التي يعيش فيها.

---

(1) جورج شهلا وآخرون، الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية، ط2، بيروت. (1972)، ص16.

ثالثًا: مفهوم الثقافة

يقصد بالثقافة أنماط التفاعل العامة والسائدة في المجتمع، وهي تعني كل ما صنعه الإنسان بعقله ويده في بيئته الاجتماعية من أشياء ومظاهر مرتبطة بحاجات ووظائف دائمة في الحياة، غير أن أنماط السلوك التي ترتبط بهذه الحاجات تختلف من مجتمع إلى آخر، أي أن الاستجابات ليست واحدة في كل المجتمعات؛ مما يجعل أشكال السلوك تختلف باختلاف المجتمعات الإنسانية وهذا هو جوهر مفهوم الثقافة، كإنتاج إنساني.

فالثقافة أساليب من السلوك لها مظاهر وتجسيدات إما أن تظهر في ما نلمسه من نواحٍ مادية مثل المباني والأدوات والآلات... إلخ، وإما أن تبقى في العقل كالاتجاهات والقيم، وهي نتاج فكري وروحي ومادي تشمل اللغة والعادات والتقاليد والقيم والأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأساليب التفكير وسبل العيش والتفاهم والمؤسسات والأدوات، وغير ذلك مما أنتجه الإنسان ويعيش في كنفه ويجعله مثقفًا بصرف النظر عما إذا كان قد حصل على التعليم في المدرسة أم لم يحصل.

لقد كثرت تعريفات مفهوم الثقافة، فمنها ما تناول الجانب المادي أو الجانب المعنوي وفيها ما تناول الجانبيين معًا، باعتبار أن الثقافة تمثل وبشكل عام سيرورة المجتمع الإنساني وابداعاته العلمية والفكرية.

ويمكن تصنيف الثقافة إلى ثلاثة عناصر أساسية، وهي: العموميات والخصوصيات، والمتغيرات أو البدائل.

العموميات: Universals وهي تلك العناصر الثقافية العامة، أي التي تنتشر بين الغالبية العظمى من أفراد المجتمع وتربطهم، وهذه العناصر تؤدي إلى وجود نمط ثقافي culture pattern وشكل من السلوك يختلف من مجتمع إلى مجتمع، كما تؤدي إلى وجود محور ثابت من القيم والاتجاهات لكل مجتمع من المجتمعات.

الخصوصيات: Specialties وهي تلك العناصر الثقافية التي تسود مجموعة معينة من أفراد المجتمع إما أفراد مهنة واحدة أو طبقة اجتماعية معينة.

البدائل أو المتغيرات: Alternatives وهي تلك العناصر الثقافية الوافدة أو الجديدة، والتي تختلف عن المألوف أو المتعارف عليه وتجرب لأول مرة في فترة زمنية محددة [1].

رابعًا: طبيعة الثقافة

الثقافة من صنع الإنسان وتمثل مجموعة خبراته، وهي نتيجة لما يمتاز به (عن سائر الحيوانات) من قدرات تمكنه من الكشف والاختراع والخلق والابتكار.

(1) محمود طنطاوي دنيا، أصول التربية، وكالة المطبوعات، الكويت، (1984)، ص41-44.

والثقافة سلوك مكتسب يتعلمه الفرد نتيجة وجوده في جماعة لها مُثلها وقوانينها وتقاليدها وعاداتها وقيمها، فهي تنتقل من جيل إلى جيل، ومن مجتمع إلى مجتمع عن طريق الاحتكاك والاتصال والتفاعل.

والثقافة مادية ومعنوية، وعناصر المادية والمعنوية الفكرية متكاملة مما يكسبها قوة، وأقسامها (عموميات، خصوصيات، بدائل، أو متغيرات) ليست منفصلة بل في حالة من التفاعل المستمر يؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به.

طبيعة الثقافة، وتختلف طبيعة الثقافة وخصائصها من مجتمع لمجتمع آخر، وهي تعكس الحياة الاجتماعية والفكرية، وتساهم في توضيح مكونات المجتمع والقيم الأصيلة الخاصة به.

يمكن تلخيص طبيعة الثقافة وخصائصها في النقاط التالية:

1. الثقافة إنسانية تنمو بها المجتمعات البشرية وهي من صنع الإنسان لما يمتاز به من قدرات عقلية تمكنه من الخلق والابتكار.
2. إنها مكتسبة أي لا يولد الإنسان بها، ويعين على اكتسابها استخدام الفرد الرموز اللغوية.
3. إنها قابلة للنقل والانتشار Diffusion & Penetration وقد ساعدت هذه الخاصية على استمرار الجماعات بجيل من أبنائها بعد جيل.
4. إنها متغيرة ونامية وتختلف سرعة التغير على حسب طبيعة الثقافة ودرجة الرقي، فالثقافة التي يسودها العلم والتطبيق الفني تتطور بل

تتغير على نحو أسرع بكثير من ثقافة مجتمع آخر لم تمسه تطورات العلم إلا قليلًا، والتغير في العناصر المادية أسرع بمقارنتها في العناصر العقائدية أو الفكرية أو العاطفية.

5. إنها مشبعة لحاجات الإنسان البيولوجية والسيكلوجية، وعدم قدرة الثقافة على إشباع الحاجات الأساسية لأفرادها يعرضها للانحلال، ويدفع هؤلاء الأفراد إما إلى تغييرها أو القضاء عليها وإما الخروج منها إلى ثقافة أخرى تستطيع إشباع حاجاتهم.
6. إنها محددة لنوع أسلوب الحياة في المجتمع سواء من ناحية وسائل الإنتاج والتعامل والأنظمة السياسية والاجتماعية أو من ناحية الأفكار والقيم والعادات والتقاليد وآداب السلوك.
7. إن عناصرها متفاعلة متداخلة.
8. إنها عامل مربٍّ، فالفرد عن طريق معيشته في مجتمعة يكتسب الخبرات والأنماط السلوكية التي تعينه على التكيف مع مجتمعه بصرف النظر عما إذا كان قد حصل على تعليم في المدرسة أم لا[1].

خامسًا: التربية والثقافة

العلاقة بين التربية والثقافة علاقة تفاعل دائم وتأثير متبادل؛ إذ لا وجود لإحداهما دون الأخرى، فالتربية بمعناها العام ليست إلا الحياة الكلية للجماعة تبدأ من نقطة خاصة هي التعلم للمعيشة في تلك الحياة التي تعبر

---

(1) المصدر السابق، ص45–46.

عنها الثقافة، وبالمعنى الخاص تمثل التربية قوة ثقافية مؤثرة باستمرار من بين القوى الثقافية المختلفة في المجتمع، حيث لا يمكن أن تعمل التربية بمعزل عن المجتمع وثوابته ومتغيراته وقيمه ومقدساته، وبعبارة أخرى لا يمكن التخطيط للتربية وتوجيهها على أساس سليم إلا في ضوء الفهم الواضح للأبعاد الثقافي.

فالتربية تغترف من الوعاء الثقافي العام للمجتمع، وتعتمد أهدافها على طبيعة وفلسفة وآمال ومشكلات المجتمع، وهي مؤسسة الثقافة التي عن طريقها يبقى المجتمع ويستمر ويتقدم ويتطور.

وتعتمد الثقافة على التربية اعتمادًا كليًّا متبادلًا باعتبارها سلوكًا متعلمًا ومحصلة لها وباعتبار أن عملية التنشئة الاجتماعية تشارك فيها جميع الدوائر الاجتماعية التي تتمثل في وسائط الثقافة، ومن ثم فإن الثقافة تعتبر إطارًا تربويًّا عامًّا يحافظ عليها وينقلها من جيل الكبار إلى جيل الصغار.

ويمكن تلخيص وظيفة التربية في ناحيتين هما: الاحتفاظ بالثقافة ونقلها، وإثراء التراث الثقافي وتجديده[1].

لعل أصعب ما سيواجهنا هو وضع مفهوم شامل لهذه الكلمة «ثقافة»، سيما وأن بعض الكتاب يستعيضون عنها بكلمة «حضارة» والبعض الآخر يستعملها خطأ كلمة «مجتمع» أو يستعمل كلمة «مجتمع» وهو يعني «ثقافة».

---

(1) المصدر السابق ص47.

إن كلمة «مجتمع» تعني الناحية البيولوجية من المجموعة السكانية في الدرجة الأولى وأما «الثقافة» فتعود إلى مجموعة السلوك (أو السلوك الجمعي) للمجتمع الواحد، فالمجتمع والثقافة شيئان مختلفان ولا يجوز الخلط بينهما.

أما كلمة «حضارة» فيرى معظم الكتاب أنها أقل دقة من كلمة «ثقافة» خصوصًا وأن العلامة ابن خلدون كان قد استعملها في هذا المعنى المطروح هنا وقد اختار معظم الكتاب المحدثين اقتفاء أثر ابن خلدون في استعمالها، وكلمة «ثقافة» لها نفس الملابسات باللغات الأخرى، ففي الإنكليزية (culture) تستعمل من قبل علماء الأنثروبولوجيا بطريقة تختلف عن معناها الأساسي والمتعارف عليه من قبل العامة.

وإن كلمة «ثقافة» لا تعني هنا الحضارة والفن الرفيع والأدب والموسيقى والفلسفة وهي لا تعني هنا طبقة معينة أو مفهومًا معينًا لجماعة من الناس كما هي مستعملة باللغة الألمانية (kulture) وكلمة «ثقافة» لا تعني مجموعة العادات والأخلاق التي تظهر (على السطح) في سلوك الناس بينما يكون في سريرتهم أشياء مغايرة لما هو ظاهر.

وكلمة «ثقافة» تدل على السلوك... وعلى شعور الإنسان ومعتقداته وحياته الاجتماعية، وبعبارة أخرى فهي عبارة عن مجموعة الأنماط السلوكية للمجموعة السكانية تؤثر في سلوك الفرد وتشكل شخصية الإنسان وتتحكم في خبراته وقراراته، فهي في الواقع مكونات شخصية الإنسان وموجهاتها تسيّر سلوكه وتتحكم فيه ولا يمكن أن تكون هناك شخصية دون ثقافة، وبعبارة أخرى لا يمكن للإنسان أن يصبح ما هو عليه

إلا بفضل الثقافة، والإنسان لا ينمو في الثقافة فقط وإنما يحاول تعديلها دون أن يفقد اتصاله بها، ويبني الإنسان انتماءه للثقافة ويحاول دائمًا أن يشعر بأنه جزء هام منها ومن المجموعة التي تحمل هذه الثقافة، ولا يمكن لأي إنسان أن يتخلى عن ثقافته الأصلية إلا بعد أن يتبنى ثقافة أخرى مكانها وينتمي انتماء كاملًا للثقافة الجديدة، وهذا يعني بأن الثقافة داخلية كما هي خارجية، فهي جزء من (الأنا) للإنسان إن لم تكن الجزء الرئيس، مع أننا نتحدث هنا عن سلوك الإنسان إلا أنه لا بدَّ من التنويه هنا بأن الثقافة تكون جزءًا لا يتجزأ من حاملها إذ إنه يتفاعل مع الآخرين في ضوئها وبحدود مرسومة سلفًا مما يسهل التفاعل بين أفراد الثقافة الواحدة وتأتي هذه السهولة من إمكانية التنبؤ بسلوك الآخرين وبتوقعاتهم، فمجموعة المعتقدات والاتجاهات التي يحملها الأفراد في الثقافة الواحدة تكون حدودًا واضحة لما هو خطأ ولما هو صواب بالنسبة لتلك الثقافة، ومع أن الثقافة والشخصية متميزتان إلا إنهما متلازمتان، فشخصية فرد من ثقافة ما تختلف عن شخصية فرد آخر من ثقافة أخرى بقدر اختلاف الثقافتين[1].

يمكن اعتبار الثقافة لأي مجتمع بيئة تنمو وتترعرع التربية في كنفها متأثرة ومؤثرة فيها وهناك عدة أسس يمكن أخذها في الاعتبار عند دراسة العلاقة الجدلية بين التربية والبيئة الثقافية وتأتي أهمية الثقافة للتربية من أنه من الثابت بأن لا إنسان يعيش دون بيئة ثقافية ولا يمكن للإنسان أن يصبح

---

(1) مجلة أفكار، العدد 23، دائرة الثقافة والفنون، عمان، الأردن (1974)، التربية والثقافة، أحمد أبو هلال، ص28.

ما هو عليه إلا بفضل الثقافة وتأثيرها فيه، فالثقافة تتحكم بكل الصفات المكتسبة (التي تضاف للطفل بعد ولادته) وحتى يصبح راشدًا.

1. المؤسسة التربوية عامل تثقيف

لا بدَّ للجيل الصغير في كل ثقافة من التطبّع بالعناصر الثقافية كالمعتقدات والقيم والأنماط السلوكية .. إلخ التي يعيشها أهله وأفراد المجتمع من حوله، ويمكن أن تسمى عملية الإلمام هذه بالتثقيف، فمنذ أن يولد الطفل وحتى يصبح راشدًا وهو يتعلم ويحاول الإحاطة بالعناصر الثقافية التي تحيط به مما حدا بالمربين اعتبار العملية التربوية مستمرة ما دام الإنسان حيًّا، والإنسان يتعلم محتويات ثقافية بطريقتين مهمتين:

الأولى: الطريقة غير الرسمية والتي تتم بواسطة الحياة مع العائلة والتعلم بالتفاعل والاحتكاك والمحاكاة، ثم من الانتقال إلى المجتمع الخارجي (أي خارج الأسرة) إلى رفاق اللعب وأصدقاء العمل، ويدخل ضمن هذه الطريقة أيضًا التعلم بوساطة الإيصال والاتصال كالراديو والتلفزيون.

الثانية: وقد اختار المربون تسميتها التعلم بالطرق الرسمية أي عن طريق المدارس والمناهج المنظمة والمعلمين المختصين الذين يقومون بنقل التراث الثقافي للأجيال الصغيرة[1].

(1) المصدر السابق نفسه ص31.

2. التربية كعنصر ثقافي

التربية هي الجزء الرسمي لعملية التثقيف وبالرغم من اشتراكها بعناصر مع ثقافات أخرى إلا أنها لا بدَّ أن تكون متأثرة بالثقافة المحيطة، سيما وأن المعلم الذي يشرف على التربية يكون حاملًا لغالبية القيم والمعتقدات السائدة في تلك الثقافة، والتربية (في أي ثقافة) تكون عبارة عن الجزء المصقول من العناصر الثقافية خصوصًا في الثقافات التقليدية حيث تكون المدرسة بثقافتها وبتركيبها الاجتماعي أكثر رسمية وتقدمًا مما هي عليه الحال في المجتمع، أما في الثقافات المتقدمة فالمدرسة تكون أقرب بثقافتها وبتركيبها إلى المجتمع المحيط بها مما هي الحال في المجتمعات النامية.

3. التربية ناقلة للتراث الثقافي

منذ القدم وأهم وظيفة للمدرسة هي نقل التراث الثقافي من الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة والمحافظة على هذا التراث، غير أن المدرسة لا تقوم بنقل هذا التراث كاملًا سالمًا دون إضافة أو تعديل، فهي تنقله بعد أن تجري شيئًا من التعديل وبعد أن تضيف العناصر الجديدة التي توصل إليها الجيل الحاضر، تتماشى عادة هذه الإضافات والتعديلات مع العصر وتتناسب مع ثقافة الأجيال الحاضرة.

4. الأهداف التربوية في الثقافات المختلفة

ذكرنا بأن أحد الأهداف للتربية هو نقل التراث الثقافي، كما نوهنا أيضًا بأنه من غير الممكن للتربية أن تنقل التراث السابق برمته وبحذافيره

لسببين: أنه من غير الممكن لها عمل ذلك لو أراد المشرفون على التربية نقله، والسبب الثاني هو أن روح العصر الحاضر لأي ثقافة لا بدَّ أن يرفض بعض العناصر الثقافية الماضية خصوصًا أن تغييرات كثيرة في القيم الثقافية والضوابط الاجتماعية تكون قد طرأت على أفراد تلك الثقافة، ناهيك عن تغيرات أخرى كالتقدم التكنولوجي وازدياد السكان واتساع المدن وتحسين وسائل الاتصال التي تزحف تلقائيًّا وتغمر المجتمعات في قرننا الحاضر، وهذه العوامل دون شك تؤثر في القيم الاجتماعية للثقافة، حيث لا يمكن لأحد أن ينكر أن هذه التغييرات الثقافية لا بدَّ أن تؤثر في طرائق تفكير الناس وسلوكهم مما يجعلهم لا يتقبلون إلا ما يناسب وضعهم الحاضر وربما شيئًا مما سيناسب المستقبل[1].

وإن الهدف الرئيس للمشرفين على التربية هو تطوير الثقافة وصهر أفراد المجتمع في بوتقة ثقافية متجانسة، وهندسة العقل العربي هندسة يسهل معها التعاون بعضهم مع بعض نحو أهداف مجتمعهم الواحد، وتعبر قوانين التربية -في الغالب- عن هذه الأهداف باختصار كأن يقال «خلق المواطن الصالح»، وأهداف المجتمعات هذه تختلف باختلاف ثقافاتها، وأن الدور الذي تلعبه التربية يعتمد إلى حد كبير على نوع الثقافة التي تخدمها.

---

(1) المصدر السابق نفسه ص33.

5. التربية وتحديد المراكز في المجتمع

من الأدوار الهامة التي تلعبها التربية في أي مجتمع هو تعيين مراكز الأفراد، فالفرد المتعلم المهيأ لمهنة معينة لا بدَّ أن يشتغل بهذه المهنة وبالتالي يكّون أفراد المهنة الواحدة ثقافات فرعية للثقافة الرئيسة فكما أورد ابن خلدون من أن نحلة الفرد تحدد نوع ثقافته.

ولما كانت المهنة تعتمد -في أغلب الأحيان- على نوع التعليم الذي يحصل عليه الفرد، أمكن لنا هنا أن ندرك أهمية التربية في خلق الثقافات المتعددة والمختلفة، هذا من ناحية التعليم الرسمي (أو المدرسة) أما بالنسبة للتنشئة الاجتماعية (أو التعليم غير الرسمي) فواضح أن الفرد الذي يتثقف بحياة زراعية يختلف (ثقافيًّا) عن فرد آخر يتثقف في بيئة صناعية تجارية.

6. التربية والتغير الثقافي

يشكل التغيير الثقافي مشكلة هامة بالنسبة للمربين فالمعارف والمخترعات التي توصل إليها الإنسان في هذا القرن تفوق إنجازاته بكاملها في القرون الماضية ومنذ أن كان الإنسان على هذا الكوكب.

وبالرغم من أن مجتمعنا العربي يعد من المجتمعات النامية إلا أنه يواجه سرعة في التغير الثقافي كتلك التي تواجهها المجتمعات التقدمية، وهذا وضع غير طبيعي بالنسبة لنا وقد جاء نتيجة للاحتلال الصهيوني للأراضي العربية، فنحن نواجه الآن مشكلة معرفة خريطة ثابتة للمنطقة، كما أننا نواجه الاستقرار على رأي موحد بالنسبة لمؤسساتنا الاجتماعية والتربوية،

ومن الإنصـاف للأجيال القادمة أن نتفق على نـوع هـذه المؤسسات ولـو بصورة نظرية[1].

7. دور التربية في التغيير الثقافي

المدرسة هي المؤسسة التي وضعها المجتمع لتنوب عنه في تثقيف أبنائه وتنشئتهم، ولذا فإن لها دورًا مهمًّا يساوي ذلك الدور أو الأدوار التي تقوم بها المؤسسات الأخرى كالعائلة والعمل ... إلخ . وهناك من يعتقد بأن دور المدرسة أهم بكثير من أدوار المؤسسات الأخرى سيما وأنه يقوم بالإشراف عليها أناس تخصصوا بهذه العملية، وأن طبيعة الثقافة العربية تفرض على الفرد كما ذكرنا أن يكون إنسانًا سلبيًّا بالنسبة لاتخاذ القرارات إذ يقوم المجتمع بتحديد هذه القرارات وما على الفرد إلا تنفيذها حتى لو كان ذلك ضد رغبته، كذلك فإن الفرد العربي يكون في أغلب الأحيان أنانيًّا بالنسبة للمصالح العامة وينتبه دائمًا للاكتفاء الذاتي دون اكتفاء الجماعة، وهذا يدفعه إلى اتخاذ مواقف معادية ويبدو مشاكسًا عندما يتفاعل مع الآخرين خارج نطاق مجموعته الاجتماعية التي يشعر بالالتزام نحوها، كذلك فإن الإنسان العربي يتصف بروح التخاذل والاتكال، فهو غير مغامر وليس صناعيًّا في سلوكه... وهذه الصفات التي تنقص الإنسان العربي (على ما يبدو) تتطلبها روح العلم الذي يغمر هذا العصر، ومن المعتقد أن

---

(1) المصدر السابق نفسه ص36.

هـذا التخـاذل يـأتي مـن إيمـان الإنسـان العربـي بالغيبيـات وبـالمعجزات والسحر في عصر أخذ ينبذ هذه الظواهر بشدة.

وإن صح هذا القول وهذه النعوت بالنسبة لإنساننا العربي فإنه يحضـرها معـه إلـى المدرسـة ... التـي تقـع عليهـا مسـؤولية تصـحيح هـذه الأفكـار وتوجيهـا وجهـة حسـنة، ونحـن لا نقـول هنـا بأنـه علـى المدرسـة أن تنبـذ التراث العربي أبدًا، ولكننا نقـول بنبـذ مـا هـو دخيـل -في العصـور الماضـية- على الثقافة العربية والإسلامية وكلنا يعلم أن الثقافة العربية والإسلامية بـراء من الشعوذة والسحر والاتكال[1].

(1) المصدر السابق ص37.

التطبيع الثقافي

إن الثقافة القطرية العربية هي ثقافة الواقع القطري العربي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وإن الظروف الموضوعية والذاتية التي تقف في وجه طموح الأمة لتحقيق وحدتها السياسية هي دائمًا التي تحول دون بلورة ثقافة عربية واحدة مواجهة، ولقد اتّسم النظام القطري العربي بالنظام المأزوم الذي يعيش في أحضان الهزيمة التي كان وراءها النظام السياسي بشكل خاص، وبهذا فإن النتاج الثقافي لهذا النظام لن يكون في صالح القاعدة العامة المتمثلة في الجماهير الشعبية.

لقد سقطت الثقافة العربية المقاتلة تحت أقدام الأنظمة القطرية العربية السياسية حيث كانت هزيمة حزيران وكامب ديفيد واحتلال بيروت وتدمير بغداد على أيدي الإمبريالية، وبتحالف صميمي مع الصهيونية العالمية في ظل تواطؤ النظام القطري العربي أكثر وضوحًا في حفر الباطن واحتلال بغداد، ولم يكن السياسي العربي المسؤول فحسب عن حالة التردي هذه بقدر المثقف العربي الذي ارتبط في كثير من قطاعاته بالقادة القطريين المهزومين منحه وضعًا ماديًّا واجتماعيًّا أفضل، ولقد لاحظنا بوضوح تام هذا النوع من المثقفين بعد معاهدات وصكوك الذل مع الكيان الصهيوني بعد كامب ديفيد، واتفاقية أوسلو /القاهرة، واتفاقية وداي عربة، ومع هذا فإن أدباء مصر ومثقفيها قدموا دروسًا في مواجهة الغزو الثقافي الذي جاءت

به نصوص كامب ديفيد، وكذلك الفلسطيني العاشق إلى أرض فلسطين من البحر إلى النهر والمؤمن بامتزاج حركة الكلمة إلى جانب البندقية، وكما برز أخيرًا صراع فرسان التطبيع رجال السلطة مع حملة الثقافة العربية.

يتمثل التحدي الصهيوني بالاتصال المباشر من محادثات وزيارات واعتراف بأحقية الكيان الصهيوني في أرض فلسطين ورفض حل الصراع إلا من خلال المحادثات السلمية وقيام علاقات سياسية واقتصادية وثقافية مع هذا الكيان وسيتم فتح أبواب المجتمع العربي على مصراعيها أمام غزو للذات العربية من خلال صنع مؤسسة أكاديمية وعلمية ذات طبيعة عنصرية استغلالية تدميرية لكل ما يمت بالصلة إلى تجليات المشروع القومي العربي النهضوي تمهيدًا لإلغاء الشخصية العربية وسيادة التفتيت والروح الانعزالية المعززة بالسياسة القطرية العربية.

1. مفهوم التطبيع

بدأ مفهوم التطبيع بالتداول السياسي العربي منذ اتفاقية كامب ديفيد (1978–1979)، وازداد حضوره على الساحة السياسية والإعلامية، وتعددت أشكاله ووجوهه بعد اتفاق أوسلو واتفاقية وداي عربة، ولتحقيق هدف التطبيع خرج العدو الصهيوني بمفهوم آخر مرادف له هو مفهوم «الشرق الأوسط» الذي طرح في بادئ الأمر كتعبير جغرافي، قدمته الحكومة الصهيونية عام (1967) إثر نكسة حزيران، كتصور متكامل لدور بلدان المنطقة بما فيها الكيان الصهيوني، والذي تحول مع أوائل التسعينيات إلى

مشروع اقتصادي سياسي بشر به شمعون بيريز في كتابه «شرق أوسط جديد»، وأخذت واشنطن على عاتقها تسويقه، مستهدفة نزع الهوية العربية الإسلامية عن المنطقة وتكريس الهيمنة الصهيونية والاستعمارية على مواردها واقتصادها.

والتطبيع في القانون الدولي يعني «عودة العلاقات إلى طبيعتها بين الدول» أو أن تقوم علاقة بين عدوين سابقين، أو ما بين طرفين، أو ما بين دولتين إلى طبيعتها، بعد خلل أصاب هذه العلاقات على أن يصبح التعامل بينهما على حقوق أو مصالح، مما أفضى إلى أشكال من النزاعات والمواجهات السياسية والعسكرية والثقافية، وأدى إلى تعطيل العلاقات وانقطاع الصلات الطبيعية بينهما، أو هو، أي التطبيع، استقراء لمظاهر ومعطيات وضع خاص مثل وضع الكيان الصهيوني المغروس بقوة الإرهاب والظلم والقهر في فلسطين على حساب الشعب الفلسطيني وحقه التاريخي، إنه محاولة إضفاء صفة الوضع الطبيعي ومواصفاته على أمر غير طبيعي بوسائل الإرهاب والعدوان والتخويف والترغيب لإقامة علاقات مستقرة بقوة الأمر الواقع، ومجاوزة الذاكرة التاريخية والوجدان الجمعي، وكل ما يتصل بأبعاد الصراع وحقائقه وأسبابه ونتائجه ومعطياته.

ويلاحظ أن الكيان الصهيوني يصر على إدراج مسألة التطبيع في جدول أعمال التفاوض مع العرب وفرضه على الدول العربية سواء من دول «الطوق» ذات الاشتباكات التفاوضية مع «إسرائيل» أو من دول «المساندة»

غير المطالبة نظريًّا على الأقل بالدخول في تفاوض أو التوقيع على اتفاقية مع إسرائيل وركزت «إسرائيل» أولًا على التطبيع الثقافي لتمهيد الأرض، وإعادة تشكيل العقل والوجدان العربي «بإسقاط الحاجز النفسي» وبالتالي يسهل عليها اقتحام مجال التطبيع الاقتصادي والتجاري والمائي...

2. الصهيونية واستراتجية التطبيع

تشمل الثقافة العربية مجموع المفاهيم والعادات والتقاليد والقيم ومبادئ السلوك والحس الفني والجمالي في المجتمع وتعبر عن نمط حياته، تصون ذاكرته ورصيد خبراته وتواكب تحدياته، كما تتضمن أشكال التعبير المختلفة المتواصلة من جيل إلى جيل والتي تجسد الإبداع والاستمرارية الحضارية للأمة وتراثها القومي «الثقافي والشعبي والنفسي» الذي يميزها عن غيرها من الأمم دون استعلاء أو انغلاق، ويهدف التطبيع لإخضاع المفاهيم الفكرية والثقافية والدعائية والنفسية لإلحاق الهزيمة بالشخصية العربية من الداخل، وشل إرادة المقاومة فيها، وإشعارها بالدونية والتخلف، وتحويلها إلى شخصية تابعة متلقية ومحو هويتها القومية ويشكل التطبيع الثقافي مع العدو امتدادًا للغزو العسكري والسياسي بوسائل ثقافية وإعلامية من أجل إحباط أي وعي نهضوي قومي تحرري، وتسعى استراتجية الغزو الثقافي الصهيوني المدعومة «إمبرياليًّا» إلى إلغاء حالة العداء وفتح الحدود وتعديل البرامج التربوية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية، وتغيير مواقف الزعماء والمفكرين والمثقفين والرأي العام

مع العدو وحجب تلاوة الآيات القرآنية الكريمة التي تحض على تكفير اليهود، وتغيير المفاهيم المتمسكة بالثوابت القومية ويهدف التطبيع الفكري والثقافي لإيجاد حالة من القبول الفكري والنفسي للوجود الصهيوني من خلال ما يسمى بإيجاد الثقة والتخلص من مظاهر الرفض والكراهية للوجود الصهيوني، ليصبح الصهاينة أصدقاء وحلفاء من خلال ما يلي:

- تخلي الأمة عن هويتها.
- التنازل عن السيادة والأرض والثروات والمياه.
- أن تصبح الأمة عونًا لأعدائها على نفسها.
- دمج اليهود في المجتمعات العربية.
- توجيه المناهج المدرسية والبرامج التعليمية.
- إفساد القيم والأخلاق وإنهاك الشباب بالمخدرات وشراء الذمم والضمائر.
- تخويف الأنظمة من القوى الرافضة وافتعال الأحداث.
- استخدام وسائل الضغط العالمية لتقوم هذه بدورها في الترغيب والترهيب.
- إحداث فتن داخلية وحروب أهلية.

إن الاستراتجية الصهيونية في السيطرة على الثقافة والتعليم تنطلق من الاعتبارات التالية:

- تخريب جميع القوى التي تعمل على تحقيق الانسجام الفكري والتضامن الاجتماعي.
- تفكيك أساليب التعليم الجامعي وتفريغه بأساليب جديدة بما يخدم المخططات الصهيونية.
- تهيئة الأساتذة والقائمين بالوظائف التعليمية وفق برامج سرية عملية وتقييدهم بها بشدة.
- تهيئة طوائف مختارة من الطلبة المتحيزين لخدمة مخططاتهم.
- تجهيل الناس بشؤون الدولة ومسائلها ونقلهم إلى حيز تعليم آخر يتعلمون فيه جميع المبادئ والقواعد والأصول التي تؤدي إلى نسف نظامهم.
- تهيئة الشباب لأن يكونوا طائعين للسلطة محبين للحاكم يرون في حكمه العون والأمل في بيئة السلام والطمأنينة.
- محو ما في أذهان الناس جميع ما وعته من وقائع، مما يرى فيه الخير للصهاينة والعمل على إبقاء كل ما يسجل المزالق على حكومات المواطنين من غير اليهود.
- حصر زمام التعليم بأيدي اليهود فلا يبقى خيط من خيوط الفكر المستقل إلا وتتم السيطرة عليه لأجل استمالة الشعوب واجتذاب أفكارها.

- إخمال أذهان المواطنين من غير اليهود ودفعها نحو البلادة والاسترخاء.

إن التطبيع الثقافي والتربوي في المفهوم الصهيوني مع البلاد العربية يعتمد على ما يلي:

- نزع العداء لليهود من عقول الناس وقلوبهم.
- تغيير صورة اليهودي في نفس العربي وقلبه.
- تحول حالة العداء إلى حالة صفاء وثقة.
- تعديل المناهج التربوية وخاصة التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية والتربية الإسلامية.
- الترويج لفكرة وحدة الأديان وأننا جميعًا أبناء سيدنا إبراهيم.

إن اليهود لا تعوزهم وسيلة لاستخدامها لتحقيق أهدافهم في التطبيع الثقافي والتربوي وفي ما يلي أهم الوسائل التي يلجؤون إليها:

- العمل من أجل التحكم في عملية صنع القرار التربوي والإداري في الجهات ذات العلاقة بالثقافة والتربية.
- إنشاء مراكز البحوث والتطوير والمراكز العلمية الاستشارية المتخصصة في مجالات الثقافة والتربية.
- توفير كل المتطلبات ومستلزمات البحث المادية وإغراء الباحثين والطلبة للعمل في خدمة مخططاتهم.

- تقديم منح دراسية وبعثات للجامعات الأجنبية والتي تسير في فلك المخطط الصهيوني.
- إقامة التبادل الثقافي والتربوي بين جامعات في الكيان الصهيوني وجامعات الدول العربية وكذلك بين المدراس والمعاهد والطلبة وأعضاء هيئات التدريس.
- تضييق ومحاربة كل الوطنيين وذوي الاتجاهات المعادية للحركة الصهيونية حتى لا يعوقوا مسيرة التطبيع الثقافي والتربوي وتقديم جميع الخدمات والإغراءات للذين يسيرون في فلك التطبيع.

إن عملية تشكيل العقل في الكيان الصهيوني تتخذ أشكالًا لا مثيل لها وهي تسير في اتجاهين متناقضين هما التدمير والتعمير، تدمير عقلية يهود الشتات وإنسان الجيتو وارتباط الإنسان بماضيه وربطه مباشرة بالتراث التوراتي أو التلمودي، وأما التعمير فيتم بزرع عدد من المقولات التي شكلت الأساس النظري للأيديولوجية الصهيونية في عقله، وقد أصبح الجيش الصهيوني يتحكم بمختلف النشاط البشري في الكيان الصهيوني ويلعب ضباطه وجنرالاته دور كهنة المعبد في الحضارات القديمة وينحصر دور المؤسسات الدينية في تبرير أعمال الجيش العدوانية ضد الأمة العربية وإضفاء صيغة القداسة عليها والتصدي لكل من يحاول انتقادها أو الانتقاص من قيمتها، وتقوم فلسفة التربية في الكيان الصهيوني على تطبيق الأيديولوجية الصهيونية وغرسها في عقول المتعلمين في الوقت نفسه

محاولة اقتلاع العرب من جذورهم وتشويه صورتهم وتضليلهم ونشر الإحباط وغرس اليأس في صفوفهم.

تدرس التوراة والتلمود والكتب الدينية الأخرى في المدارس والجامعات في دولة الكيان الصهيوني، وهي ملأى بادعاءات التفوق اليهودي على شعوب العالم والمهم شعب الله المختار، وتحض على قتل الغرباء، وتعزيز الروح العدوانية وحب القتل والحديث عن

«إسرائيل» الكبرى بين الفرات والنيل، وزرع الفكر التوسعي ويساعد على ذلك التدريب العسكري للطلاب في المرحلة الثانوية.

إن الوضع خطير جدًّا إذا أمعنا النظر في مراحل النمو والمسيرة قدمًا في ما بين الوطن العربي والكيان الصهيوني المدعوم من الإمبريالية العالمية، فنحن مهددون بغزو عقولنا وتخريب روحنا القومية من خلال فرض علاقات ثقافية في ما بيننا والكيان المنغرس في قلوبنا وضمائرنا، وقد يظهر جليًّا الاهتمام الصهيوني المحموم على الكتاب، المعرض الفني والفيلم السينمائي والزيارات المتبادلة والمؤتمرات المشتركة وبحوث الجامعات، وتكييف المناهج الدراسية بما يتواءم والمصالح الصهيونية والإمبريالية العالمية وفي المقدمة منها الولايات المتحدة الأميركية.

إن التطبيع الثقافي يحتل أهمية كبيرة في أذهان القائمين على المؤسسات الثقافية في الكيان الصهيوني، من خلال الوصول إلى العقل العربي، وزرع قيم ومفاهيم جديدة في ذهنه تتنافى تمامًا مع المخزون الثقافي الوطني

والقومي، وقد جاء هذا الهدف مبكرًا من قبل الجانب الصهيوني، إذ إنه في عام (1978) وفي كتاب (عندما يأتي السلام) الذي أشرف على إصداره هاريفين، أستاذ العلوم السياسية والمدير السابق لمعهد شيلوح (دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا) وشارك في هذا الكتاب تسعة كتاب من وزارة التعليم والخارجية والجامعة، إذ أجمع هؤلاء أنه لا بدَّ من مراجعة البرامج التعليمية العربية بشكل شامل وإيجاد خطة تفصيلية تبدد مفاهيم السلبية وتنمية المواقف الإيجابية وذلك بفتح الحدود لحركة تبادل ثقافي بين الكيان الصهيوني والدول العربية لأن العنصر الثقافي يحتل الموقع الأساسي في عملية بناء الثقة، مما يستدعي إعادة النظر في برامج التعليم في الدول العربية والاهتمام بدور وسائل الإعلام وإعادة كتابة التاريخ ومراجعة التراث الإسلامي ومحو الصورة السلبية الواردة فيه عن اليهود، ولا بدَّ كذلك من إبراز تفوق الكيان الصهيوني الثقافي والعلمي.

3. مخاطر التطبيع

لقد بات معروفًا لدى الجميع أن العدو الصهيوني مستعمر غاز محتل، توسعي عنصري، فقد احتل أرضًا ليست أرضه، وغزا شعبنا وشرده في أصقاع الأرض وأحل محله أناسًا تجمعوا من أنحاء العالم ويعمل باستمرار على التوسع واغتصاب أراضٍ جديدة لضمها إلى دولته وكيانه، والأدلة على ذلك الحروب التي شنها العدو الصهيوني على الدول العربية، وفي كل

منها يحتل أراضي جديدة لتوسيع دولته التي سعى إلى قيامها وفق شعاره المعروف من الفرات إلى النيل.

فالوجود الصهيوني بحد ذاته يشكل خطرًا على الأمة العربية برمتها، وعلى الدول المجاورة خاصة، ويبتدع العدو الصهيوني مسألة التطبيع مع الدول العربية، ويضعه شرطًا أساسيًّا في الاتفاقيات التي يبرمها مع بعض الدول العربية؛ لأن التطبيع يحقق أهدافه في الاعتراف به كدولة ذات سيادة واستقلال، وهذه المسألة (التطبيع) تعد من أخطر القضايا، وهي تشكل خطرًا حقيقًا على الأمة العربية لأسباب عدة، فإقامة علاقات التطبيع مع العدو الصهيوني تأتي نتيجة اعتراف رسمي بدولة الكيان الصهيوني والاعتراف هو تشريع حقيقي لإقامتها وتنفيذ مآربها ومشروعاتها العدوانية والتوسعية التي تطمع بمزيد من الأراضي العربية.

ومن مخاطر التطبيع مع العدو الصهيوني فرض سيطرته على الاقتصاد والتجارة ورؤوس الأموال والمشروعات الزراعية ومنابع المياه والثروات الطبيعية والسيطرة على طريق البترول والتجارة، وهناك محاولات تغيير المناهج التربوية في مواد التربية الدينية والتربية الاجتماعية والقومية والتاريخ والجغرافيا غايتها رسم خريطة جغرافية وثقافية جديدة للمنطقة تمثل فيها إسرائيل مكانة بين الدول العربية، بصفتها دولة من دول المنطقة، وتعديل التاريخ وإعادة كتابته على نحو يخدم العدو الصهيوني وتشويه القيم الخلقية والتربوية والتراث العربي، والتشكيك بالحضارة العربية ومنجزاتها وخدماتها التي قدمتها للإنسانية على مر العصور، وبذلك يحرم المواطن

العربي من كل انتماء وروابط واعتزاز بتاريخ أو حضارة أو تراث ليزرع بدلًا من ذلك مفاهيم جديدة وعادات مغايرة وأنماط سلوك غربية ضمن منظومة الغرب الاستهلاكية التي تسيطر فيها القوة الجسدية والعنف والجنس والمال وتشجيع أنماط السلوك الغربية الشاذة عن التقاليد والعادات الأصيلة، ولعل الخطورة تكمن في التوجه إلى الأطفال والشباب ومحاولة تسطيح أفكارهم وعقولهم وزرع مفاهيم خاطئة في عقولهم، وغزو كيانهم بأفكار سطحية وعادات استهلاكية وشغلهم بالقشور والشكليات الفارغة من اللب والمضمون.

وثمة خطر لا بدَّ من التنبيه عليه وهو ألعاب الأطفال وبرامجهم وحاجاتهم المستوردة التي تحاول أن تبث سمومًا في عقولهم، والعدو الصهيوني يشدد على علاقات التطبيع مع الدول العربية ويضعها شرطًا أساسيًّا في عقد اتفاقيات السلام، فهو يمتلك قوة عسكرية ومالية واقتصادية وعلمية كبيرة تمده بها القوى الحريصة على وجوده، ولكنه يفتقر إلى تاريخ وحضارة وتراث وقيم وأصالة فيحاول أن ينسب التراث والحضارة إليه.

وهو يستطيع التأثير بقوته العسكرية والإعلامية والاقتصادية هذه في عقول الأجيال ويسلبها هذه المنظومة الفكرية والتربوية التي خلفتها الحضارة العربية، محاولًا أن يجعل الإنسان العربي سطحيًّا وهامشيًّا وتسيّره الغرائز والحاجات الدنيا، وبذلك يسهل غزوه فكريًّا وسياسيًّا، وسلبه اقتصاديًّا ويسهل غزو أرضه وسلب خيراته ومياهه وثرواته وحضارته.

4. ملامح التطبيع

قضية التطبيع الثقافي والتربوي مع العدو الصهيوني تعود إلى ما بعد حرب الخامس من حزيران (1967) مباشرة حيث أقدم العدو على تعديل المناهج التربوية في مدارس الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان، إذ عمد العدو إلى حذف كل ما يمكن أن يفسر باتجاه معاداته بطريق مباشر أو غير مباشر، وأما في القدس المحتلة فقد تم إلغاء جميع المناهج وطبقت مناهج جديدة تم وضعها من قبل لجنة تربية يهودية، كما عمدوا إلى عدم إعطاء تراخيص لأي مدرسة أو معهد أو جامعة لأي جهة عربية، وشددوا في رقابة كل المطبوعات والكتب والتداول فيها بين الناس، إذا كانت تختلف وتوجهات الكيان الصهيوني.

لقد أراد الكيان الصهيوني من وراء عملية تعديل المناهج ما يلي:

- محو الحس الوطني والقومي وتغييب الهوية وتمييع العقيدة وطمس تاريخ عظماء وقادة الأمة، وزرع الولاء للغرب وحضارته وعقائده المنحرفة.
- تجهيل الطلبة وشباب المستقبل بالموضوعات الهامة كالعلوم والرياضيات والفيزياء.
- اختصار مخل للتاريخ العربي الإسلامي وتضخيم المراحل التاريخية مع التشويه والتحريف للكثير من الأحداث التاريخية.

- حذف كل ما يتصل بأمجادنا العربية الإسلامية في القديم والحديث والمعاصر ليتسنى فرض الأفكار من أمثال الشرق الأوسط الجديد.
- تجهيل الشباب من معرفة الحركات الوطنية والقومية والحركات الإصلاحية الإسلامية.
- حذف أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوربا.
- اجتثاث كل ذرة انتماء عند أبنائنا لأرض الوطن.
- تحويلنا إلى أمة بلا تراث ولا مستقبل لها إلا في أحضان الغرب والصهيونية.
- تعرض كتب التربية الإسلامية والتاريخ العربي إلى اختزال وتشويه لكل ما له صلة بحقائق الدين الإسلامي وقيمه وتقاليده وإلى العرب ومكارم أخلاقهم.
- احتواء العقل العربي وخلق تبعيته الكاملة للعقل الإمبريالي والصهيوني من خلال مؤسسات عملية كالمدارس والجامعات ومراكز البحوث.
- اختراق الأمن القومي والاستهتار بالهوية القومية وتكوين طابور خامس يخدم أمريكا والصهيونية وينتمي إليهما فكرًا وسلوكًا.
- تقديم الخبرات المتخلفة من خلال مجموعات حديثة التخرج وحديثة الخبرة في المناهج والأبحاث.

- العمل على عجز مخرجات التعليم في تخريج قوة مدربة وقادرة على مواجهة متطلبات التنمية واحتياجات سوق العمل.
- تضخيم المعلومات وإهمال الجانب العلمي التطبيقي وعرض كم هائل من المعلومات التي تهدر جهد الطالب والمعلم والأمة في ما لا يعود عليهم بالنفع.

وعقب احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة قام الكيان الصهيوني بمسح شامل للكتب المدرسية حيث عمد إلى ما يلي:

أ. إعادة كتابة مناهج التاريخ بطريقة مزورة تظهر الوجود الصهيوني بأنه وجود تاريخي وأن اليهود قد أعادوا وطنهم القومي التاريخي من الدخلاء والغرباء في حرب (1948).

ب. إعادة كتابة المناهج الجغرافية حيث تم استبدال العديد من الأماكن والقرى والمدن العربية بأسماء عبرية لطمس صبغتها العربية.

ت. حذف كل ما يسيء إلى اليهود في المناهج التعليمية وخاصة الكتب الإسلامية وتم حذف جميع الآيات في القرآن الكريم التي تتعرض لليهود.

ث. عمد العدو الصهيوني إلى اضطهاد المعلمين والمربين ومنع التوسع الثقافي.

إن التطبيع الثقافي من وجهة النظر الصهيونية يمثل الدعامة الرئيسة لبناء السلام في المنطقة وهو أكثر إقناعًا وأكثر استقرارًا من أي ترتيبات أمنية،

حيث الصراع منغرس في وجدان الشعوب قبل أن ينتقل إلى الواقع، ولا بدَّ من نزع العداء من العقل العربي كمقدمة لنزع السلاح من اليد العربية، والتطبيع الثقافي الذي تسعى له الحركة الصهيونية ينعقد حوله إجماع فكري، ويلتف حوله مخططون ومنفذون، وتنظم له مراكز بحوث علمية وهيئات أكاديمية تسعى إلى ما يلي:

- ضرورة عدم إعاقة الحركة أمام حرية الناس وتبادل المعلومات والثقافة والعلوم وأن تكون هناك صلة إنسانية وطبيعية وتلقائية.
- مراجعة البرامج الدراسية مراجعة شاملة، وفحص كل ما يدرس وتحديد ما يجب حذفه من برامج تعليم وإضافة مواد مرغوب تدريسها بما يتلاءم مع السلام.
- دراسة البرامج لوسائل الإعلام كالإذاعة والتلفزيون وأن تتاح الفرصة لإذاعة البرامج الثقافية ذات الصلة بالجذور التاريخية في ما لا يتعارض مع حالة السلام.
- تغيير موقف الزعماء من ثقافة وتاريخ الطرف الآخر لانعكاس ذلك من تأثير تربوي وتعليمي على الجيل بالتنسيق مع التغيرات في البرامج الإذاعية.
- إزالة المفاهيم السلبية في الفكر القومي والدين الإسلامي تجاه اليهود.

إن العدو الصهيوني يركز على أهمية المزيد من التعاون الإقليمي في مجال العلوم والثقافة والتعليم والتدريب، ويعتبر التعاون الثقافي عنصرًا هامًّا في تدعيم توجهاته وفي هذا الإطار يقترح الصهاينة برنامجين محتملين للتبادل الثقافي الإقليمي:

أولًا: برنامج للتبادل الطلابي بين جامعات المنطقة لتبادل الخريجين والباحثين العرب والصهاينة.

ثانيًا: برنامج تدعيم تبادل الزيارات والتعاون بين الشباب الفلسطيني والصهيوني في المرحلة العمرية ما بين 15–25 عامًا ويتم إنشاء صندوق خاص لتمويل هذين البرنامجين.

أما في ما يتعلق بالتطبيع الثقافي والتربوي ما بين الكيان الصهيوني والجانب الأردني، فقد ورد في اتفاقية وادي عربة:

في المادة (9) سيمنح كل طرف للطرف الآخر حرية الوصول للأماكن ذات الأهمية الدينية والتاريخية، سيقوم الطرفان بالعمل سويًّا لتعزيز حوار الأديان بين الأديان التوحيدية الثلاثة، بهدف العمل باتجاه تفاهم ديني والتزام أخلاقي وحرية العبادة والتسامح والسلام.

المادة (10) انطلاقًا من رغبة الطرفين في إزالة جميع حالات التمييز التي تراكمت عبر فترات الصراع، فإنهما يعترفان بمرغوبية التبادل الثقافي والعلمي في الحقول كافة، ويتفقان على إقامة علاقات ثقافية طبيعية بينهما.

المادة (11) يسعى الطرفان إلى تعزيز التفاهم المتبادل، والتسامح القائم على ما لديهما من القيم التاريخية المشتركة وهما يمتنعان عن القيام ببث الدعايات المعادية القائمة على التعصب والتمييز، واتخاذ جميع الإجراءات القانونية والإدارية الممكنة التي من شأنها منع انتشار مثل هذه الدعايات من قبل أي تنظيم أو فرد موجود في المناطق التابعة لأي منهما.

بدأت وقائع التطبيع الثقافي في الوسط الأردني مباشرة وأخذت ملامح عديدة جدًّا وخطيرة.

أولًا: مراحل تغيير وتطوير المناهج الأردنية:

1. لقد بدأت المحاولة الأولى العبث في المناهج واختصار المسافات الإنسانية فيها في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، عبر مطالبة اليونسكو خطيًّا من وزارة التربية بأن تعمل على استبعاد كل مظاهر الكراهية والحقد لليهود من المناهج الأردنية وقد امتنعت وزارة التربية آنذاك عن الاستجابة لمطالب اليونسكو بعد أن تبين لها بأن مناهج اليهود مفعمة بمظاهر الحقد والكراهية لكل ما هو عربي ومسلم.
2. بدأت المرحلة الأولى في الثمانينيات من القرن الماضي ومن أبرز ملامح ذلك التغيير، إلغاء كتاب القضية الفلسطينية، وتقليص عدد حصص التربية الإسلامية في المدارس.

3. بـدأت المرحلـة الثانيـة مـن مراحـل التغييـر والتطـوير في مطلـع التسعينيات من القرن الماضي ويقتضي الإنصاف أن نـذكر بأنـه كـان لتغيير المناهج وجهان:

أ. وجه إيجابي محمـود: تمثـل في تطـوير أسـاليب ووسـائل وطـرق التدريس عبر إعطـاء دور أكـبر للطالـب في المدرسـة، مـن خـلال حثه على الحوار والمناقشة وتعليمه للتفكيـر والتفكيـر الإبـداعي والتعليم الذاتي والعمل الجمـاعي وحصـر دور المعلـم بالتوجيـه والمراقبة والتحفيز والتنظيم.

ب. وجه سلبي مرفوض: وقد تمثل ذلك في ما يلي:

1. بإضفاء الصبغة القطريـة الوطنيـة على مناهجنـا الإنسـانية عـلى حساب تقليص البعد القومي والإسلامي إلى أقـل حـد ممكـن وهـو مـا يسـمى ببـدء مرحلـة الانكفـاء عـلى الـذات وتكـريس الثقافة القطرية.

2. باستبعاد بعـض الوحـدات المتعلقـة بالبعـد الجهـادي وبقضـية فلسـطين مـن بعـض كتـب اللغـة العربيـة في الصـف التاسـع الأساسي كمثال واضح.

3. المرحلـة الثالثـة: مرحلـة إعـادة تـأليف الكتـب المدرسـية عـلى مراحل، حيث بـدئ في عـام (2005) بالحلقـة الأولـى مـن هـذه

المحطة والتي استهدفت تغيير مناهج الصفوف الأول والرابع والثامن والعاشر الأساسية.

وستليها تباعًا إعادة تأليف كتب بقية الصفوف الأساسية والثانوية على حلقتين متتابعتين، ويمكن اعتبار هذه المرحلة البداية الواضحة للعبث التدريجي بمواد العلوم الإنسانية أو ما يسمى بمواد بناء الأمة ويقتضي الإنصاف أيضًا أن نذكر أنه كان لتطوير المناهج في هذه المرحلة وجهان:

1. وجه تطويري محمود: حيث ركزت المناهج عمومًا على تطوير وسائل وأساليب وطرق التدريس بعد أن تم تزويد المدارس بأجهزة حواسيب كما تم تزويد بعض المدارس بتقنيات متطورة «كالداتاشو» وغيرها.
2. وجه سلبي مرفوض: وهو ما يعد بداية العبث التدريجي في مناهج المواد الإنسانية وتحديدًا في اللغة العربية، اللغة الإنجليزية، والتربية الوطنية والتاريخ (حيث لم يستكمل تأليف مناهج التربية الإسلامية في هذه الحلقة حتى الآن).

وأهم ما يميز هذه المرحلة ما يلي:

أ. السير قدمًا في اختراق ثقافة المقاومة والممانعة في أذهان الجيل عبر استبعاد الكثير من النصوص التي تنمي وترسخ هذه الثقافة التي تستهدف اليهود والمعتدين الذين احتلوا جزءًا من أوطاننا في فلسطين وغيرها.

ب.الاستمرار في تبهيت وتقويض الحس القومي والوحدوي والإسلامي في نفوس الناشئة عبر استبعاد العديد من النصوص التي تنمي هذا الاتجاه وعبر طرح شعارات تركز بصورة أكبر على البعد القطري في بعض المناهج.

ت.تسويق وترويج مفاهيم العولمة وأنماطها في الفكر والاستهلاك والأدب والسلوك والسياسة والاجتماع، كذلك تسويق ثقافة الاستسلام أو ما يسمى بثقافة السلام والتعايش مع الشعوب وتقبل الآخر، والمقصود بالآخر هنا هو الكيان الصهيوني باعتباره أمرًا واقعًا لا بدَّ من تقبله والتعايش معه وإضفاء الشرعية عليه ونسيان جرائمه، تمهيدًا لجعله ينخرط في واقعنا ويندمج في اقتصادنا وثقافتنا.

إننا نؤشر على ما يلي:

- إن مجرد الحديث عن وجهتي نظر في موضوع التطبيع مع أو ضد هو في حد ذاته ينم عن الخلل الذي يعتري فئات الكتاب والأدباء والتربويين حيث لا يجوز لمثقفي الوطن أو كتابه في موقف الخيار مع الوطن أو ضده.
- إن معركتنا مع دعاة التطبيع هي ذات المعركة مع العدو الصهيوني، فالذي يدعو إلى حوار ومصافحة العدو الغاصب في الوقت الذي يعاني فيه شعبنا العربي الفلسطيني بالحرمان من حقه وحق تقرير

المصير، هو الذي يعمد إلى تعزيز موقف العدو والغاصب ويشجعه على التهام المزيد من الأرض العربية بوسائل وطرق متعددة.

- إن الحديث عن الحرية في إبداء الرأي الآخر في موضوع التطبيع لا يخدم الأمة ومستقبل أجيالها.
- إن التستر أو التبرقع ببرقع التعددية والديمقراطية كمدخل بالاتجاه المضاد لمصلحة الوطن جريمة يجب ألا تغتفر لأي كان.
- إن كتَاب النهج السياسي الاستسلامي يريدون تسويق الاستسلام السياسي من خلال طروحاتهم في الدفاع عن حقوق الآخرين من البوابة الثقافية.
- إن التطبيع السياسي والاقتصادي الذي تقوم به بعض الجهات الرسمية العربية يجب ألا يلحق المثقفين بعربة هذه الجهات، ولنا في تجربة الأدباء في جمهورية مصر العربية الذين قاوموا التطبيع مع العدو الصهيوني مثلٌ يحتذى على الرغم من فرض اتفاقيات كامب ديفيد، وما زالت رموز التطبيع في المجتمع المصري لا تحظى إلا بالازدراء والتحقير بين فئات المجتمع كافة.
- إن الكتاب الانتهازيين والمنظمات والجمعيات ذات الارتباطات المشبوهة هي أدوات التطبيع التي تعمد إلى التشكيك والتشويه لكل ما هو نظيف في هذه الأمة.

- إن الحديث عن الولاء الوطني لكل من تسوغ له نفسه الاتصال بالعدو الصهيوني والتعامل معه وادعاءه بأنه بذلك يخدم قضايا ومصالح شعبه هو كلام هراء...
- إن الذي يدعي بأن معركة التطبيع تأتي من خلال الاعتماد على سبل المحاورة والإقناع للطرف الآخر هو حديث ينم عن قصر نظر وغباء سياسي في فهم الفكر الصهيوني.
- إن الحديث عن محاولة اللقاء مع الطرف «الإسرائيلي» المعادي للصهيونية هو الحديث الطفولي الذي يتوهم بأن هناك في داخل الكيان الصهيوني من يقف إلى جانب الحق والعدالة وأن كل من قدم إلى أرض فلسطين من اليهود هو صهيوني غاصب ووجوده على أرض فلسطين هو على حساب مواطن عربي فلسطيني أرغم على ترك دياره ليعيش لاجئًا في أطراف الدنيا.
- إن حالة التردي التي تمر بها الأمة يجب ألا تدفعنا إلا لتعزيز أدوات النضال، وإن قوة العدو الغاصب مهما بدت في نظر البعض فإنها لا تصمد أمام قوة الحق والدفاع عنه.
- إن الإنسان موقف لا موقع وأن مهمة مواجهة التطبيع هي موقف وطني وهي لا تعني فئة وحدها وإن كان هناك الكاتب أو المثقف يجب أن يمثل طليعة شعبه وأمته وإن هذه الطليعة تكون دائمًا في

الخندق الأمامي في مواجهة التصدي لما ينتاب الشعب والأمة من محن ومخاطر.

- إن علينا أن نميز بين الساحة المصرية والساحة الأردنية، ففي الساحة المصرية ثقل سكاني يساهم إلى حد كبير في عرقلة ومواجهة التطبيع، أما الساحة الأردنية فإن الحجم السكاني فيها لا يستطيع الصمود في وجه ألاعيب الصهيونية وإمكانياتها وعلى الرغم من ثقتنا بوعي شعبنا فإن من واجبنا ألا نفتح للغزو الصهيوني أي ثغرة لينفذ من خلالها.
- إننا نتمنى أن نكون الصخرة الصامدة في وجه الهجمة الصهيونية التي لا تُبقي ولا تذر لا قدر الله، وسنكون نحن فقط القادرين على كتابة الزمن العربي القادم أيًّا كانت قسمات وجهه.

5. استراتجية التصدي

الحديث عن استراتجية التصدي للتطبيع الثقافي والتربوي لا بدَّ وأن يأخذ بعين الاعتبار أهمية المرحلة التي تمر بها أمتنا العربية، التي ينخر في جسدها عوامل التجزئة والتخلف والتبعية، مما دفع بالإمبريالية العالمية وبتحالف الصهيونية وتواطؤ مع الأنظمة العربية الرسمية أن تسعى إلى تحقيق أهدافها في الهيمنة والسيطرة على مقدرات هذه الأمة والوقوف في وجه تحقيق طموحاتها.

إن الثقافة هي وعاء الأمة التي تشكل مقومات تكوينها، والتربية التي من خلال فلسفتها عامل تجديد فعلي للمجتمع وهي أكثر قدرة على تغيير الواقع؛ لأننا من خلال التربية في هذه المرحلة الراهنة نستطيع أن نحدد الإنسان الذي نريد.

إن الأهداف الكبرى التي تنشدها الأمة العربية من خلال التربية تكمن في ما يلي:

- الاستقلال والتحرر في مواجهة الهيمنة الأجنبية والاستلاب.
- الوحدة القومية في مواجهة التجزئة والإقليمية الضيقة.
- الديمقراطية في مواجهة الاستبداد. العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستغلال.
- التنمية الذاتية في مواجهة التخلف أو النمو المشوه.
- الأصالة في مواجهة التغريب والتبعية الثقافية.
- الحضور القومي بين الأمم، وبالإبداع والإنتاج في مواجهة حضارة الاستهلاك والتقليد.
- الإبداع والإنتاج في مواجهة حضارة الاستهلاك والتقليد.

إن استراتجية التصدي لا بدَّ لها مما يلي:

أولًا: الوعي بأن الصراع العربي الصهيوني صراع حضاري يتعلق بمستقبل الأمة العربية الذي يستدعي حشد الطاقات العربية كافة، ويتحمل

في المقدمة أبناء الأمة القائمون على الثقافة والتربية من خلال مشروع ثقافي تربوي عربي له استراتيجيته وأهدافه ووسائل تنفيذه.

ثانيًا: العمل بالنفس الطويل وتحمل المعاناة لأن صراعنا مع الإمبريالية والصهيونية يحتاج إلى جهود كبيرة على الصعيدين الرسمي والشعبي، ويلزم أن يتسم عملنا بالتنظيم والاعتماد على البحث واستخدام أدوات العلم والتفكير العلمي.

ثالثًا: رفض أي شكل من أشكال التعامل الثقافي والتربوي مع الكيان الصهيوني سواء تمثل ذلك في زيارات وندوات ومؤتمرات ومقابلات مع وسائل الإعلام ونشر وتوزيع أعمال ومهرجانات سينمائية أو مسرحية أو فنية وتبادل وفود طلابية.

رابعًا: تزويد المواطن بثقافة المواجهة للتطبيع الثقافي والتربوي من خلال لجان مجابهة التطبيع ودعمها في عمل دورات وندوات ومحاضرات ونشرات وكتب وملصقات وإقامة المعارض.

خامسًا: قيام جبهة لمقاومة التطبيع الثقافي والتربوي على مستوى الوطن العربي ولها لجان فرعية في جميع أقطار الوطن العربي من الأدباء والكتاب.

سادسًا: اعتبار التطبيع خيانة وطنية وقومية وردّة دينية يجب مواجهته ومواجهة جميع الذين يحاولون منح هذا العمل الخياني ثوبًا دينيًّا والتصدي لكل التنظيرات والاجتهادات التي تتوافق مع رغبات الحكام.

سابعًا: وضع ميثاق شرف يحرم فيه الاتصال بالعدو الصهيوني بأي شكل من الأشكال، وأن يكون التوقيع على هذا الميثاق شرطًا من شروط العضوية لأي مؤسسة ثقافية أو تربوية شعبية وطنية.

ثامنًا: رصد كل كاتب يتصل بالعدو الصهيوني وأن يتم تعميمه إلى جميع القوى السياسية في الداخل والخارج المناهضة للصهيونية لمقاطعته وعدم نشر كتاباته، حيث لا حرية مع الخيانة بيده لئلا يقع ويستمرئ الوقوع في الوحل والثاني نبتره من الجسد ودون أسف.

تاسعًا: إن الجميع مدعوٌ لمقاومة التطبيع والاستسلام بنشر الثقافة المعادية للصهيونية، واجتراح الأساليب والوسائل في تعزيز التوعية بين صفوف الشعب وبكل فئاته وخاصة القطاعات الطلابية والشبابية.

• المراجع

- **غالب الفريجات (2003)، التربية القومية سياج الأمة وعنوان وحدتها، التطبيق الثقافي التربوي، مطابع الدستور التجارية، عمان، ص65- ص109.**

ثقافة الصورة

أولًا: ثقافة الصورة

يعتبر عالم اليوم عالم انفجار المعرفة دون نقاش، فهو يزودنا على مدار الساعة بكم هائل من المعرفة، فما كان يقوم على الكلمة أخذت الصورة تنافسه بشكل حاد وقوي، لم يعد بالإمكان الاستهانة به أو التقليل من شأنه وأهميته، حيث يقوم على توصيل المعرفة والدفع بالمعلومات بوسائل الاتصال البصري كلغة مرئية، والتي أصبحت تمثل شكلًا من أشكال اللغة المنظمة، وليس مجرد نوع من التعبير الجمالي.

1. صورة الثقافة وثقافة الصورة

هناك صورة الثقافة وثقافة الصورة، وكلاهما في مواجهة الآخر، فصورة الثقافة هي الصورة النمطية التي وضعتها ورسمتها أقلام الأفكار التقليدية، بحيث شكلت الأطار المرجعي الذي تتحرك ضمنه كل الأفكار والرؤى الأخرى عمومًا، وهو الفكر المسؤول الأول والأخير عن تشكيل الصورة في المجتمع، من خلال التنشئة الاجتماعية، وفقًا لمقاييس وضوابط وقواعد المجتمع، أما ثقافة الصورة، الصورة الفضائية، ثقافة الأفكار والأيديولوجيات والقيم والمثل، التي تصنعها وتشكلها الصورة المتأتية من

الفضائيات، التي تبث على مدار الساعة، وتقتحم بيوتنا دون استئذان شئنا أم أبينا.

دلالة الصورة تشمل النشاط الذهني، أي الصورة العقلية والفكرية والنشاط النفسي (الخيال والإدراك)، والنشاط اللغوي (الصورة السمعية)، والمجال الفني (النحت والرسم)، وتلك الأنشطة من مظاهر حضارة الصورة، التي تتجلى في الأبعاد المكانية الملموسة والمجردة، وتعمل في المقابل على خلق عالم متطابق مع الواقع، كخطاب الصورة الفوتغرافية، أو عالم بديل للواقع، أكثر صدقًا أو أكثر سحرًا كلوحة الفن التشكيلي، وهذا النمط يحض في الغالب على امتلاك المتلقي، والاستحواذ على بصره وبصيرته، وتقوم وسائل الإعلام المرئية بهذا الدور، والصورة هي حياة لكونها تحرض الخيال، وتحرك صمته بصمتها، فلكل صورة لغتها وخطابها، بل لغاتها وخطبها، استنادًا لما يرتسم في مخيلتنا من انطباعات وأحاسيس متفرقة، لقاء مشاهدة صورة ما لكل منا على حدة.[1]

بدأ تاريخ الصورة قبل تاريخ الكتابة بقرون، كان الإنسان يكتب بالصورة، وسجلت أول قضية في الكون بسبب صورة ثمار في شجرة، كان الإنسان يسمع أكثر، يحفظ أسرع، لم يكن يدون أقوالًا على غير ذاكرته، لم تكن الكتابة قد مسّته بعد، بينما الصورة حاضرة في كل مكان، وعلى الرغم من ذلك كانت ثقافة الإنسان ثقافة أذن غير مكتملة، وثقافة عين غير مكتملة، لذا كانت الأذن أهم من العين، كانت الكلمات تحمل قوة عظيمة،

قوة سحرية على الحقيقة لا المجاز، ومع جبروت هذه القوة كان الإنسان لا يعرف إلا ما يتذكره فقط، لم يكن يملك سوى عتبة واحدة من عتبات الحواس -السمع- كلما اقترب سمع أفضل، ليست هناك مسافة دنيا لتوقف هذه الحاسة، لذا بدأت الصورة أمامها تتراجع.

بعد زمن طويل غيرت الكتابة غير المكتملة وعي الإنسان أكثر من أي شيء آخر، ورأى الكتابة تنفصل عنه في الوقت الذي ينتهي منها، وأخذ يقلل من الذاكرة، ورأى أن الكلمات المنطوقة تفقد كل سماتها عندما تصير مكتوبة، صارت واقفة بذاتها على هذه الورقة، صارت صورة.

زادت الانقسامات في الحواس، فصارت الصورة تحضر في كل شيء إلى جانب الكتابة، تثغرت الحدود بين المفاهيم، وبدأت تتداخل، غدت المفاهيم نسبية فلم تتوقف الصورة عند المفهوم الذي وضع لها بل تجاوزته، كما تجاوزته القراءة، صار الرأي المتماهي مع النص نوعًا من القراءة، والرأي المناهض والمتجاوز لهذا النص قراءة، عندما تقرأ نصًّا فأنت تكتبه، ويكتب الإنسان نصه بكل رغباته وترحيبه وقمعه وشبقه، عادت الصورة المقروءة/ المكتوبة، غادرت الجدران والكهوف والجلود إلى الورق وشاشات العرض، فصارت الأشكال مضامين، في لحظة واحدة تعبر الصورة عن معناها، لكنه معنى لا يكتمل منفصلًا عن ذواتنا، حتى غدت الصورة الواحدة صورًا بحسب الذات التي تحل فيها، تحظر الصورة مع الكتابة فنلحظها قبل الكتابة، ثمة صور تجاوزت صور أصحابها، صور

مقدسة، يرسم الإنسان صورًا للذين لم يرهم، حتى يشعر باكتمال صورهم في نفسه.[2]

إن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الثورة أو الحضارة الرقمية المتمثلة بالصورة، التي تمارس هيمنتها وسيطرتها وسيادتها على الكثير من العقول والأفكار، بحيث أصبحت مصدرًا وأداة من مصادر وأدوات المعرفة وتشكيل الرؤى والأفكار، وهي أي الصورة تزاحم الأدوات المعرفية التقليدية على الصعيد المعرفي أو الثقافي العام أو الاقتصادي أو حتى القيمي، فلم تعد الصورة قضية عفوية عشوائية، بل أضحت صناعة وفنًّا لها قوانين ومبادئ، لا تنسحب على مجال المتعة والترفيه فقط، بل تمتد إلى ميادين العلم والمعرفة لدرجة أن صنعت الصورة ثقافة خاصة بها سميت بالثقافة البصرية، (visual culture).[3]

في مجتمع كمجتمعاتنا العربية برز تناقض صارخ بين صورة الثقافة وثقافة الصورة، بالنسبة لقطاعات واسعة، شملت المرأة والشباب في ما يعيشه المجتمع داخل أسواره المتعددة، من أفكار وتقاليد ومعتقدات، وما تتلقاه هذه القطاعات من خلال الصورة الفضائية، التي دخلت بيوتنا عنوة وحطمت كل الأسوار الاجتماعية، أو على الأقل خلقت حالة من الاضطراب والاهتزاز، ما بين ثقافتين في النفس البشرية الواحدة، فالصور قاتلة للواقع الذي يمكن لنا ليّ عنقها، لتجعله يصور لنا وإن لم يقصد، حالة

الصراع بين المخزون الثقافي التقليدي وبين الثقافة، التي تفرزها الصور الجديدة المعروضة أمام أعيننا.

يمكننا أن نقول وبكل أريحية أن عصرنا هو عصر الصورة في معانٍ كثيرة ومتعددة، عصر يؤلِّه الصورة ويمجدها في مواجهة المحتوى، والشكل مقابل المضمون، والمظهر بدل المخبر، والمبني محل المعنى، والظاهر مكان الباطن، والسطح بدل العمق، إلى حد أننا نقول إن عصرنا هو عصر البنية.[4]

2. هيمنة الصورة

هذا العصر تخترقه الصورة في كل مكان، وتسيطر عليه وتقوده، إلى حيث تحقيق الأهداف المرجوة من استخدامها، فتجدها في كل زاوية من زوايا حياتنا اليومية، في البيت والمدرسة والعمل والشارع، وفي ما نأكل وعلى لوحات الإعلانات والمجلات والكتب وشاشات التلفزيون والكمبيوتر والإنترنت، نحن في حالة هيمنة وسيطرة للصورة على ثقافتنا، وهذا ما أشار إليه آبل جانس (1926) «لقد أقبل عصر الصورة، إلا أننا نعيش بالفعل في عصر الصورة وحضارة الصورة، فقد أصبحت جزءًا من حياتنا وفي تلافيف عقولنا وأنماط تفكيرنا، وهي ماضية في الولوج إلى حياتنا واختراقها، وأصبح صعبًا علينا تخيل هذه الحياة دونها، حتى أن التفكير لم يعد ممكنًا من دون الصور على حد تعبير أرسطو».[5]

هناك جانب آخر في الصورة، جانب جمالي محض له صلة بالفنون البصرية على وجه الخصوص، لوحة الجرنيكا مثلًا لبيكاسو هي وثيقة بصرية تدين همجية الحرب حتى اليوم، وهناك جانب بشع أيضًا، فصور سجن أبي غريب تنم عن بشاعة الإمبريالية الأميركية، وكذب أسطوانات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، التي تتشدق بها، في عملية غزو العراق واحتلاله.

نحن نعيش عالم تكنولوجيا المعلومة، الذي تهيمن فيه الصورة على آليات منظومة البث، ويواجه منتج النص معضلة مواكبة مرحلة التسارع الجنوني في تقنية الصورة، هذا التسارع يحاصر المتلقي كل يوم بآخر صيحات التقدم العلمي والتقني، فالعالم الذي نعيشه هو حقيقة عالم ثقافة الصورة، وحياتنا أصبحت مملوءة بالصور ولغة الصور وثقافتها وتداعياتها، مما يضع المبدع أمام حرج إنتاج نص قادر على كسب ود القارئ خصوصًا، والمتلقي بشكل عام، الذي لم تعد ترضيه أو تناسبه طقوس التلقي الجماعي نظرًا؛ لأن المتلقي أصبح محاصرًا باهتمامات شتى، تدفعه لاقتناص زمان ومكان ووسيلة التلقي، فالصورة تتصف بالإيجاز والتكثيف اللغوي، وغير ذلك من سمات تغري المتلقي على قراءتها؛ لأنه لم يعد يجد الوقت الكافي لتلقي المدونات المطولة.

إن هيمنة الصورة فرضت علينا، فقد أصبح التفكير بالصورة يتجاوز حدود الواقع المعاش المباشر، إلى عملية استدعاء التاريخ لنعيش في

الماضي وتلابيبه، كما لو أنه يعاد تكراره مرة أخرى، بالإضافة إلى أنه يمكن من التفكير في المستقبل وتصوره، وهكذا يتجول المرء من خلال الصور في إطار زمني ممتد ومنفتح، يتجاوز الحاضر إلى الماضي والمستقبل، فالصور ترتبط بالذاكرة والخيال والإبداع والاستمتاع.[6]

البصر حاسة تزود الإنسان بالمعلومات، وتساهم إلى جانب السمع في تكوين الفرد الثقافي، كما تساهم في تشكيل قدرته على رؤية الأشياء، والبصر على خلاف السمع له عدة أبعاد في الوقت الذي لا يملك السمع إلا بعدًا واحدًا، فهو أكثر عمقًا، وله وظيفة توثيقية للأشياء، وله علاقة بالبصيرة، فكلما نقصت الثقافة البصرية التي تعتمد على الرؤية والمراقبة والقراءة ضعفت الفنون البصرية، والصورة ذات أبعاد متعددة.

إن الثقافة التي يحصل عليها المرء من السمع عادة ما تجعل الذي يعتمدها كثقافة أقرب إلى العاطفة؛ لأن في الكلمة شحنة انفعالية تساعد على التكوين العاطفي للإنسان، ومن هنا فإن نتيجة الثقافة السمعية غالبًا ما تكون عاطفية، إنه يجب التعامل مع اللون على أنه لغة، لذلك فإن عدم إجادة قراءة اللون، لا يجعل المرء يشعر بالإيحاءات التي تشع منه، ويعجز عن تذوق الألوان بشكل سليم، وإن صاحب الثقافة البصرية يستطيع توظيف اللون لخدمة المجتمع في إطار الإعلام، ومن لا يملك الثقافة البصرية لا يستطيع استخدام الصورة، وإن استخدمها فإنه لا يجيدها في كثير من الأحيان.[7]

وعلى الرغم من هيمنة الصورة إلا أن هناك علاقة تكاملية تربط ما بين الصورة والكلمة، فالصورة جاءت كي تثري الكلمة لا لتحل محلها، والكلمات الآن مصاحبة للصور، وقد تصل إلى حد التوازن معها،[8] وهذا الاقتحام المرعب لثقافة الصورة في مقابل ثقافة الكلمة، لكن أي مادة فنية أو درامية أو تشكيلية لن تستغني يومًا عن الكلمة، فهي التي تحدد القيمة وتوزع الأدوار، وتمنح المعنى والقوام والمعيار للصورة، وفي ضوء هذا الفهم لا يمكننا أن نلغي الكلمة وندعي أن الوسائط الحديثة ستحل محلها، وقد يختلف دور الكلمة ولكنه لن ينعدم أو يتقلص، فالكتاب الورقي سيبقى وسيشاطره النفوذ الكتاب الرقمي، وستكون للصورة أسبقية، إلا أن الكلمة المطبوعة سواء على الورق أو الشاشة ستحافظ على نفوذها.

الكتابة هي صورة اتفق الناس على طريقة قراءتها، بل إن بعض أنماط الكتابة كانت نوعًا من الصور المرسومة على صفائح من الورق أو الجدران، ولقد تطورت الثقافة البصرية عند العرب، واتسعت وظيفة العين على حساب الأذن بعد كتابة القرآن، الذي ورد فيه تأكيد على القراءة، وعندها دخل العرب عالم التوثق والتدوين، واقتربوا أكثر من الثقافة البصرية، التي هي أكثر حيادية من الثقافة السمعية.

إن العالم البصري تعزز حضوره بظهور التحولات الرقمية في مجال التعامل مع الصورة، مما انعكس على عالم الفنون وتلقيها، ذلك أن التعامل مع فضاءات التلقي البصري شهد تسارعًا ملحوظًا، أثر على إنتاج ونشر

وتسويق الفنون عامة، ومنذ ثمانينيات القرن الماضي بدأنا نلمس بجلاء ثورة طالت جماليات إنتاج الفنون البصرية، كالرسم والسينما والمسرح، بفضل قدرات تكنولوجية، وقع توظيفها للتحكم في الأشكال والألوان والأمكنة والأضواء، ثقافة العين تأخذ أشكالًا تعبيرية أخرى، تطرق باب هوية جديدة لذلك «البعد الواحد»، هي لغة العين وهي تحاور لغة إنجاز الحرف.[9]

إن سلطة الصورة تبدو جذابة ومثيرة وهي مدمرة في الوقت نفسه، فالاتحاد السوفييتي لم تصمد ثقافته في وجه ثقافة الإغراء والإثارة، التي بثتها وسوقتها الإدارة الأميركية، وما زالت ثقافة أمريكا تغري الكثيرين في العالم الثالث، وخاصة المدعين بحمل لواء المعارضة والمطالبين بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، كما حصل في الذين ركبوا الدبابة الأميركية، ليكتشفوا في ما بعد مدى كذب الصور الوردية، التي كانت تعد فيها أمريكا عملاءها، حتى أصبحت المعارضات في العالم الثالث دمى أمريكية، تنساق وراء دعاياتها وصورها الكاذبة، حتى يأتي اليوم الذي تكتشف فيه هذه المجموعات المغفلة مدى سذاجتها، أمام انبهارها لصور أمريكا الهوليودية، فالواقع أن ما يلاحظ بالفعل هو صعود مدوٍّ لأيديولوجية ما يعرف باقتصاد المعرفة، والتي تنتظم في كثير من أجزائها حول ثقافة الصورة، ومبدأ الشفافية وحرية التواصل اللتين أصبحتا اليوم عصب مجتمع المعلومات والتواصل، التي تستغل سلطة الصورة ومختلف

الوسـائط الجماهيريـة، والتـي خلقـت في حقيقـة الأمـر ضـحايا عديـدة وتداعيات مدمرة.[10]

لنتمعن جيدًا في الصور التي عرضها كولن باول أمام أعضاء مجلس الأمن في الادعاء بامتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، فهذه نماذج لاستخدام الصورة لتحقيق أهداف إمبريالية عدوانية وبالمقابل صورة محمد الدرة والتي كشفت عري الكيان الصهيوني وديمقراطيته المزعومة.

في ضوء اجتياح وهيمنة الصورة على حياتنا اليومية، فإنها تلعب دورًا فاعلًا ومؤثرًا في التربية والتعليم، فهي تساهم في عمليات تنشيط الانتباه والإدراك والتذكر والتخيل والإبداع والمزية، إذا تم تقديمها بطريقة مناسبة، فالصورة بألف كلمة في المثل الصيني، ويؤكد جيروم برونر (Bruner) أن الفرد يتذكر 10٪ مما يسمعه، و30 ٪ مما يقرأه، و80٪ مما يراه أو يقوم به.[11]

3. الصورة والتعليم

ويشير أدب الصورة إلى أن 90٪ من المدخلات الحسية للأفراد هي مدخلات بصرية، وتبدأ العملية الإدراكية بفهم هذه المدخلات، هذه العملية التي تكون دائمًا في حالة نشاط وبحث عن المعنى، حيث تتشكل الصور في جوهرها من خلال الخبرة البصرية، التي تجري معالجتها في ضوء التنسيق مع الصور الموجودة في رؤوسنا (ص3).[12]

لقد وصف بلقيز ثقافة العولمة بأنها ثقافة الصورة، فهي ليست ثقافة مكتوبة بل (ثقافة ما بعد المكتوب) وهذه الثقافة لا تحتاج إلى لغة لأنها بحد ذاتها خطاب ناجز مكتمل، يمتلك سائر مقومات التأثير الفعال على مستقبله، أما مضمون هذه الثقافة البصرية السمعية، فهو على مستوى من الهزال والفقر والسطحية، يثور معه التساؤل المشروع عن مستقبلنا الإنساني كما يقول بلقيز!؟

إنها ثقافة معلبات مسلوقة جاهزة للاستهلاك، تتنافس الشركات الإعلامية لتسويقها، مستخدمة جميع ما ابتكره العقل البشري من وسائل الإغراء والخداع، ومع تراجع معدلات القراءة والاهتمام بالكتاب فإن نظام القيم معرض للتفتت، مما سيكرس منظومة جديدة من المعايير ترفع من قيمه النفعية والفردانية الأنانية، والمنزع المادي الغرائزي المجرد من أي محتوى إنساني.

الصورة تعني المحاكاة ولها تنوعات وتباينات في الاستخدام، فمنها البصرية والذهنية والخيال والتخييل والارتسامية، وصور اللاحقة وصور الذاكرة والرقمية والفوتوغرافية والمتحركة وصور التلفزيون وصور الواقع الافتراضي، وقد ساهمت التكنولوجيا في ما يسمى بتحولات الصور، مما ساهم في ثراء الصورة وتطورها، وبشكل عام فالصورة ساهمت في حدوث انتقال جذري في العلاقة التقليدية بين التربية والثقافة، إذ حلت ثقافة الصورة مكان ثقافة الكلمة، وأصبح هناك فراق بين صور اليوم وصور

الماضي، فصور اليوم تسبق الواقع الذي يمكن أن تمثله، في حين أن صور الماضي تأتي بعد الواقع ومعتمدة عليه، فأصبح الواقع صورة شاحبة من الصورة، فالصورة هي الأساس وليس الواقع، فالصورة تسبق الواقع وتمهد له، الصور تحدث أولًا ثم تحدث المحاكاة لها في الواقع، فلم تعد الصورة محاكاة للواقع، بل أصبح الواقع أشبه بالمحاكاة للصور.(ص3–4).

الصورة لها دور كبير في التعليم، فتستخدم كوسيلة من وسائل التعليم، من خلال قدرتها على استعمال جميع الحواس لدى المتعلم، تستقر في الذهن وتعيش حية في الذاكرة، وتقترن بالكلمة، حتى يتم الوصول إلى فهم المتعلم ومساعدته، على الإلمام بالأهداف التربوية المبثوثة في الكتاب المدرسي، وكثيرًا ما يكون استخدامها في كتب الصغار، فالصورة لها مفعولها التربوي في مرحلة رياض الأطفال والصفوف الأولى من التعليم الأساسي لتوضيح الأفكار ومحاولة رد الأفكار المجردة إلى الطبيعة بالإضافة إلى الأهداف التربوية والنفسية لعلاقتها بمدى إقبال التلاميذ نحو الكتاب المدرسي لذا من الضروري أن تعلم مهارات الثقافة البصرية في مجال التعليم وتدريسها للتلاميذ ومن الجدير بالذكر أن تكون هناك عملية توازن في الكتاب المدرسي في ما بين اللغة البصرية واللغة اللفظية حتى يكمل بعضهما الآخر.

هناك تأكيد على أهمية الصورة وتأثيرها البالغ الأهمية في الرأي العام، ولفت انتباهه واستقطابه، وإن الصورة أهم من الكلمة المسموعة

والمقروءة، فمن يرى ليس كمن يقرأ أو يسمع، وليس جميع الناس يحرصون على القراءة، ومن يقرأ لا يكلف نفسه إلا بقراءة الأشياء التي تهمه أو تؤثر عليه وعلى حياته ومعاشه، ومعظم الناس يكتفي بقراءة عناوين المواضيع والأحداث في الصحافة اليومية، وقد تضاءلت الكلمة المسموعة فتضاءلت أهميتها، بعد أن فقد المذياع أهميته وفقد دوره، أمام التلفاز الذي ينقل الحدث للمشاهد بالكلمة والصورة معًا، وإذا كانت الكلمة تحرك حاسة أو حاستين، فالصورة تحرك جميع الحواس، وتنطبع في الذهن في الوقت نفسه، وتبقى حية في الذاكرة، وبسبب ما اكتسبته الصورة اليوم على ما عداها من تقنيات الإعلام، فقد أصبحنا نعيش في عصر ثقافة الصورة، بعد أن تراجعت ثقافة الكلمة، وفي حالات كثيرة كانت الصورة أبلغ من أي مقال، وأقوى من أي كلمة، ومن هنا كان استخدام الإعلام الغربي للصورة، لإدراكه قيمة الصورة وإهميتها في نشر أفكاره، والعمل على تحقيق أهدافه، وليس عبثًا توظيف صورة سجن أبي غريب، فقد أكدت الصور التي تم فضحها، أن الممارسة الأميركية في استخدامها كان مقصودًا ومتعمدًا، ولكنها قد ارتدت على الإدارة في اكتشاف الكذب، الذي كان وراء صياغتها، وإن أسقطت كل الشعارات الأميركية، في ما يتعلق بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

لقد لعبت ثورة الاتصالات دورًا كبيرًا في نجاح هذا الإعلام، وجعلت منه قوة تفوق قوة السلاح، وإن ثقافة الصورة تطغى عليها أكثر من ظاهرة

سلبية تتمثل بالاغتراب، القلق، إثارة الغريزة، الفردية، العدوانية، دافعية الانحراف، وكلها مفردات تتاسس في إدراك الشباب وسلوكهم ومعارفهم، بحيث تتحول من مجرد صورة ذهنية إلى نشاط عملي، عن طريق المحاكاة والتقليد وعمليات التطبيع الاجتماعي، وإن الأطفال والمراهقين والشباب يتأثرون بنتائج هذه الثقافة الإعلامية، ومن المحتمل أن تخلق برامج الفضائيات العربية الاضطراب الاجتماعي، وعدم الاستقرار في العلاقات العامة الاجتماعية، وتنمية الفردية والروح الاستهلاكية والهروب من التصدي لواقع الحياة والاستسلام له، والانبهار بالنموذج الأجنبي، على حساب الهوية الثقافية، وكذلك تراجع الانتماء للهوية، وازدياد اليأس والإحباط.[13]

هناك أمية في ثقافة الصورة وفهمها واستيعابها من الجميع، وبشكل خاص من المدرسين في المدارس، فهم لا يدرسون تدريبات عن الثقافة البصرية، ولا يقومون بتدريسها رغم ما تقدمه من خدمة للتلاميذ، في استيعاب ما يعرض عليهم من مادة تعليمية، وإن ثقافة الكلمة هي الثقافة السائدة والمهيمنة، إلى جانب أن الكتاب المدرسي والمنهاج لا يتعامل مع الصورة بشكل جيد ومتوازن مع الكلمة، ورغم أهمية الصورة في المراحل التعليمية الأولى، رياض الأطفال والصفوف الأولى من المرحلة الأساسية، إلا أنها مهمة في جميع المراحل التعليمية، بالإضافة إلى أن الدراسات

والأبحاث التي تتناول ثقافة الصورة قليلة، ولا تفي بالغرض الذي يشبع حاجة المثقف والباحث في هذا المجال.

4. سيميائية الصورة

في ضوء دراسة قام بها الأستاذ محمود حسن حول سيميائية الصورة، فقد أشار إلى التوصيات التالية:(ص30).[14]

- لا بدَّ من الاهتمام بالصورة وجميع الأنساق البصرية في المناهج والكتب المدرسية، وأخذها الدور الملائم في المرحلة الجامعية، من حيث طبيعتها وأنواعها وأهميتها للمتعلم.
- لا بدَّ من اعتماد السيميائية- استكشاف العلاقات الدلالية غير المرئية في النص البصري (الصورة) والوقائع والأحداث البصرية، من خلال التجلي المباشر لها وسبر غورها، بما يساعد على الالتقاط الضمني والمتواري والمتمنع من هذه العلاقات- كاستراتيجية تدريسية وبحثية، في مجال الصورة، وتوسيع نطاق عملها، على اعتبار أنها مجال خصب لتنمية التفكير الإبداعي.
- ضرورة تبني الجامعة لمساق تدريس إجباري في ما يتعلق بالسيميائية كمفهوم واستراتيجية، ومن منطلق أنها تستحث التفكير.
- الاهتمام بالإبداع والتفكير الإبداعي لدى الطلبة، من خلال تدريس مساق إجباري.
- ضرورة دراسة نماذج ذهنية لمفهوم الإبداع لدى الطلبة.

- النظر في المقررات والمناهج الدراسية الجامعية، وتقويمها من منظور إبداعي.
- ضرورة دراسة تصورات ونماذج ومعتقدات أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، حول الإبداعية من أجل التخطيط لبرامج تدريبية، لتحسين أدائهم وممارساتهم التدريسية من منظور إبداعي.

ومن الجدير بالذكر أن فهم واستيعاب ثقافة الصورة تبدأ مع التلميذ في المدرسة، والعمل على تدريب المدرسين على فهم ثقافة الصورة وتحليلها وفهم أبعادها ومراميها، دون أن يكون هناك أي تفكير أن ثقافة الصورة تحل محل ثقافة الكلمة، فهما ثقافتان لازمتان وضروريتان، ولكن تكون الفائدة أعم وأهم عندما يكملان بعضهما بعضًا.

ثانيًا: استخدام الصورة لإثارة الخوف والرعب

لم تعد الصورة تساوي ألف كلمة فقط، كما شاع المثل الصيني المشهور، بل صارت الصورة في وقتنا الراهن بمليون كلمة إن لم تكن بملايين، فقد أصبحت الصورة مرتبطة بكل جوانب حياة الإنسان على نحو لم يسبق له مثيل، وتلعب الصورة من خلالها وسائل الميديا دورًا أساسيًّا في تشكيل وعي الإنسان سلبًا وإيجابًا.

الصورة حاضرة في كل شيء، في التربية والتعليم، وفي السوق، وفي الشارع، وعبر وسائل الإعلام، وفي قاعات العرض للأعمال السينمائية والمسرحية والتشكيلية، وفي بطاقات الهوية وأجهزة الكمبيوتر، وعبر شبكة

الإنترنت والفضائيات والتليفونات المحمولة، وفي ملاعب كرة القدم والتنس والمصارعة، وفي العروض الفنية وفي صناعة النجوم، في السينما والتلفزيون والرياضة والسياسة... إلخ.

1. أنواع الصورة

إذا كان أرسطو قال: (إن التفكير مستحيل من دون صور)، فماذا يقول العلماء والفلاسفة في أيامنا هذه؟ وهل ثمة شيء خارج الصورة؟ فالصور موجودة في كل مكان، بل إنها تشكل نهر الحياة المنساب، وهذا ما جعل (آبل جانس)، يقول عام 1926، إننا نعيش في عصر الصورة، ومن بعده قال الناقد الفرنسي (رولان بارت)، إننا نعيش في حضارة الصورة، والصورة كما يقول الصينيون تساوي ألف كلمة.

يرى شاكر عبد الحميد نقلًا عن بعض الفلاسفة الغربيين، أن كلمة أيديولوجيا تمتد جذورها داخل مفهوم الصورة والتفكير بالصورة، وقد جاءت كلمة أيديولوجيا كما قال من كلمة (فكرة)، التي جاءت بالفعل (يرى) في اللغة الإغريقية، وهو فعل كثيرًا ما يتم ربطه بالفكرة العامة حول (الصنم)، أو الصورة المرئية، والتي هي فكرة جوهرية في البصريات ونظريات الإدراك، ويتفق ديفيد داو ننج وسوزان بازرجان في كتابهما (الصورة والأيديولوجيا)، على أن الصورة قد شكلت الأساس للفلسفات الغربية الأساسية الميتافيزيقية المتعارضة.

وبمقدار ما اختلف الفلاسفة حول تعريف الصورة، بمقدار ما اتفقوا على أنواع الصور بلا حدود، وهي تزداد كل يوم مع تطور وسائل المعرفة، واتفقوا على أن بعضها يرتبط بالصور الإدراكية الخارجية، أو الصور العقلية الداخلية، أو الصور التي تجمع بين الداخل والخارج، أو الصورة بالمعنى التقني والآلي، أو حتى الرقمي، ومن أمثلة أنواع الصور نذكر:

1. الصورة البصرية.
2. الصورة بوصفها تعبيرًا عن التمثيل العقلي للخبرة الحسية أو إعادة إنتاج لها.
3. الصورة الذهنية، وهي في درجة أعلى من مجرد إعادة البناء للخبرة الحسية، ومع تشابه هذا الاستخدام مع كثير من الأفكار الشائعة حول مفهوم الصورة الذهنية أو العقلية، فإن بعض التحذيرات تظهر حول الصورة الذهنية.
4. الصورة التي تشير إلى الاتجاه العام نحو بعض المؤسسات أو الأفراد، مثل صورة الصين في أذهان الشعوب الغربية، صورة الشرق في أذهان الغربيين، وكما تمثلت في النزعة الاستشراقية بعيوبها المعروفة.
5. عناصر الأحلام (صور أيضًا)، بكل ما تشتمل عليه هذه الأحلام من تكثيف للأزمنة والأمكنة والأشخاص والأحداث.

6. التخييل، ويشير هذا المصطلح إلى نشاط غير محكوم، أو متحكم فيه، ولا يمكن توجيهه بواسطة الفرد، الذي ينغمس فيه كبديل للواقع، وهو يرتبط بأحلام اليقظة.
7. صور الخيال.
8. الصور اللاحقة.
9. الصور الارتسامية.
10. صور الذاكرة.
11. الصورة الرقمية.
12. الصورة الفوتغرافية.
13. الصورة المتحركة.
14. الصورة التلفزيونية.
15. صورة الواقع الافتراضي.
16. الصورة التشكيلية.

في كل ميدان صورة، ولكل صورة رسالتها وأهدافها، ولها متلقيها الذين سوف يقرؤونها حسب خلفيتهم الثقافية، وبدورهم يقومون بإعادة إنتاجها وتمثلها، وربما حولوها إلى صور مختلفة الألوان والأشكال، إننا حقًّا نعيش في مجتمع المشهد وما أوسع المشهد وأكبره.[15]

2. عصر الصورة

إن التفكير مستحيل من دون صورة، إن هذه المقولة لأرسطو، ومنها نستنتج أن أهمية الصورة ليست وليدة اليوم، إلا أن أهميتها ازدادت بشكل كبير في العصر الحديث، فالحياة المعاصرة لا يمكن تصورها من دون صور، وهذا بدوره يدلنا على مقولة الناقد الفرنسي (رولان بارت)، إننا نعيش في حضارة الصورة.

نلاحظ من خلال أقوال الفلاسفة والمفكرين قديمًا وحديثًا التركيز على أهمية الصورة، المثل الصيني يقول: (الصورة تساوي ألف كلمة)، وفي وقتنا الحالي ارتبطت الصورة بحياة الإنسان بشكل لم يسبق له مثيل، ولعبت الصورة بأشكالها المختلفة: التلفزيون والسينما والإنترنت وفنون الإعلان، والإعلام لعب دورًا أساسيًّا في تشكيل وعي الإنسان المعاصر بأشكال إيجابية حينًا، وأشكال سلبية حينًا آخر، فهناك حضور جارف للصور في حياة الإنسان الحديث، إنها حاضرة في التربية والتعليم وبشكل خاص في تعليم الصغار، وفي الأسواق والشوارع، وعبر وسائل الإعلام، وعبر شبكات الإنترنت والفضائيات والتليفونات المحمولة، وفي ملاعب كرة القدم والتنس والمصارعة، وفي العروض الفنية، وفي صناعة النجوم في السينما والتلفزيون والرياضة والسياسة... إلخ.

لقد جعلت أجهزة الكمبيوتر من إنتاج الصورة وتوزيعها أمرًا ممكنًا وبسهولة ويصعب تصديقها، فالكمبيوتر أكثر من أي اختراع آخر، هو

المسؤول الآن عن هذا الانفجار الكبير في الصور، وقد تنبأ بعض خبراء الكمبيوتر بأنه خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، سيحدث الاتحاد أو الدمج التام بين تكنولوجيا الكمبيوتر وتكنولوجيا التلفزيون في جهاز جديد، يسمى الكمبيوتر المرئي، وكل ما حدث خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين وما بعدهما، هذا كله يبدو بمنزلة الطفرة في التعامل مع عالم الصورة.

إن الثروة والسلطة كما يقول بول فيليو، رهينتان بالسرعة، واليوم في عصر العولمة صارتا للإسراع في نقل المعلومات وفي التعامل مع أسواق المال، وهذه السرعة تترك آثارها الواضحة على علاقة الإنسان المعاصرة بعالمه المادي، فيما كانت تلك العلاقة علاقة تماس، ثم علاقة اتصال، وتحولت اليوم إلى علاقة عن بعد، علاقة إيصال، فالإنسان المعاصر بات قادرًا ليس على مكالمة الآخر، ورؤيته عن بعد فحسب، بل وأيضًا الإحساس به عن بعد، بفضل إمكان إمداد إدراكه بواسطة الموجات الكهرومغناطيسية للإلكترونيات وعالم الصور.(16)

- **الصورة عبر التاريخ:**

تغير الدور الذي لعبته الصور عبر التاريخ بشكل مؤثر، فمثلًا تطور الفن الذي نشأ أصلًا بوصفه تعبيرًا عن المذاهب الدينية، تطور عبر الزمن، فأصبح موضوعًا ذا قيمة محصورًا بين طبقات الأثرياء فقط، ثم إنه أصبح في النهاية موضوعًا يتعلق بالسياق الخاص بتجارة الفن في عالمنا اليوم، وهو

ذلك العلم الذي يستطيع فيه المشترون أن يشتروا الفن بوصفه منتجات أو سلعًا.

المفارقة الآن أننا نعيش في عالم أصبح فيه مصطلح مفهوم المصداقية مفهومًا يعاد إنتاجه أيضًا، ويغلف ويباع ويشترى على نحو مألوف أو روتيني، نحن نعيش في مجتمع تهيمن عليه المنتجات على نحو وافر وجماهيري، فالقول إن هناك صورة من نوع واحد أو وحيدة في نوعها هي الصورة الصادقة، على الرغم أنها موجودة في قاعات العرض للأعمال السينمائية والمسرحية والتشكيلية، وفي بطاقات الهوية وأجهزة الكمبيوتر، أصبح عملة ضعيفة في هذا العالم، فهناك العديد من النسخ التي يمكن أن توجد بالنسبة لأي صورة فوتوغرافية، كل منها له القيمة نفسها، وتتكون الصور السينمائية والتلفزيونية والصور المختلفة بالكمبيوتر من العديد من الصور الموجودة كلها معًا في آنٍ واحد.

إن القيمة الجمالية لا تكمن في تفردها أو فرادتها، لكن في قيمتها الجمالية والاجتماعية والتجارية أيضًا، إن الصور الجديدة في التلفزيون يمكن أن تعتبر ذات قيمة لأنها يمكن أن ترى على شاشات عديدة في الوقت نفسه، فالفكرة تتعلق بأثر النسخ على الصورة، وكيف يتغير معنى الصورة الأصلية عندما يتم نسخها، فلقد أنتجت نسخ لوحات شهيرة عديدة في كتب الفن وفي الملصقات الأصلية وبطاقات البريد والقمصان القصيرة، فما الأثر الذي أحدثه ذلك على المكانة الخاصة باللوحات الأصلية؟

إن الأصل يظل له قيمته بالمعنى المالي والمعنى الاجتماعي والفني أيضًا أكثر من النسخ المنقولة عنه، وهكذا لم تتغير قيم الموناليزا أو غيرها لمجرد نسخها بطرائق متنوعة وأعداد كبيرة، وأصبحت اللوحة التي كانت توجد في مكان واحد موجودة في أماكن عدة وفي سياقات متنوعة، في كتب تاريخ الفن، وفي الإعلانات، في الروزنامة السنوية لإحدى المؤسسات... إلخ، وهكذا أصبحنا نعيش في عصر الصورة.

3. صنمية الصورة

الصورة في الحياة اليومية موضوع مثير ومشوق، والإثارة ليست فقط جسدية، بل فكرية، والتشويق ليس عاطفيًّا فقط، بل وأيضا روحيًّا، فنحن نعلم خلال العشر سنوات الأخيرة شهد المشهد الإعلامي العربي ثورة كبيرة في مستوى عدد القنوات التلفازية الخاصة، وكمية البرامج الترفيهية والتثقيفية المعروضة فيها، وكذلك تنامي حجم الاستثمار المدفوع عليها، وهذا كله على حساب القنوات الإعلامية الرسمية، وأدى إلى كسر الاحتكار المضروب على حرية التعبير من طرف الأنظمة السياسية، مما أشاع جوًّا من السهولة في نقل المعلومة، واليسر في التواصل بين أرجاء الوطن العربي كافة على نحو غير مسبوق، وأصبحت الحقيقة أمرًا يصعب إخفاؤها على أحد، وصار الحدث التاريخي الراهن معروضًا على طاولة الشاشات للتحليل والتشريح، وفي كل هذا لعبت الصورة دورًا مركزيًّا، فالعين هي الشاشة القادرة على الالتقاط والتصوير من قلب الحدث،

والنقل على الهواء مباشرة، ولكن ورغم هذا المنظر الجميل، يبرز أشكال حول مهمة الفضائيات العربية، ومصدر تمويلها ومن يتحكم فيها، ويكتشف الفكر الحاذق التباسًا حول حقيقة الصورة، التي ترسلها إلى العالم وتبثها إلى المشاهدين، وسبب الالتباس هو مضمون المادة المعروضة، والأهداف المضمرة والغايات المخفية من هذه الصور، فهل جعلت كما أراد لها المشرفون عليها والمبرمجون؟ أم أنها حققت غايات غير منتظرة، وأثرت على أفعال الناس بطريقة غير متوقعة وغير محتسبة، ولكن بادئ ذي بدء، ما هي الرسالة الخاصة بالفضائيات العربية؟ أو لنقل هل كانت لها رسالة محددة عندما وقع إنشاؤها؟ أم أنها نشأت لسد الفراغ، وتحقيق الحاجة دون تنظير وتأطير، ثم أليست الصور التي تعرضها على النظارة هي بمثابة رؤى للتواجد في العالم؟ كيف ينبغي أن ينظر إلى الصورة؟ هل هي فرصة للانتشاء بالجمال والتمتع بالحياة والإحساس بالسعادة؟ أم أنها تصدير للموت وتكريس للعجز والانحطاط وتصدير للأوهام والسموم، هل نذمها أم نمدحها؟ ما هي تأثيراتها على الحياة اليومية؟ وكيف نحد من مخاطرها إن كانت لها تأثيرات سلبية، وإن كنا لا نقدر على الاستغناء عنها.[17]

ينبغي تفادي النظر إلى الصورة بعيون باهتة محملقة متقلبة، والعمل على التسلح بالنظارة النقدية، التي يتسنى لنا التمييز بين الأباطيل والحقائق،

حتى تتمثل مهمتها في الفرز والتقويم والتشخيص بين الذاتي والموضوعي والعلمي والأيديولوجي.

إن الصورة هي قاتلة للواقع «بودريار».

صارت الصورة التي تضع الحواس خلف العين، هي لغة التواصل بين الذوات، وحلت محل الضروري في العلامات والرموز، وصار العقل التلفازي التكنولوجي (كما يسميه دريدا)، هو الوسيط، اللغة، العقل النظري والعقل العملي، من خلاله يقيم المرء علاقاته مع نفسه ومع الآخر ومع العالم، وحل محل نمط حياة الناس وتوجهاتهم، وملكة الذوق لديهم، كما صار المشهد المبرمج سلفًا هو الذي يحدد إمكانية الوعي، ويقف في طريق كل مبادرة وشل كل حركة.

إن الفضائيات تتلاعب بالعقول وتقتل الأحاسيس الصادقة وتميّع الثقافة، وتجعل من الصورة المتأتية للبيع والاستهلاك، وتجفف كل منابع التلقائية والعفوية، وتحرم المرء من الإبداع، وتخدره بالشيء المعروض، وتفصله عن العالم الحقيقي، بحيث لم يعد يعرف الواقع إلا من خلال صور شبحية باهتة، وتوهمه أن حاسة الإبصار هي الحاسة الأولى، وأن الملكات الأخرى تنويم، وتسقطه في النظرة المخدوعة وتمثل سلطتها عليه.

4. نمطية الصورة

قد تحكي الصورة ما لا تحكيه آلاف الكلمات، وقد نفهم من الصورة آلاف العبر والحكايات، الصورة في معظم الأحوال هي كلمة تعبر عن موقف أو مشهد معين، قد لا تشمل الصورة نقل الحدث، ولكن لا يمكن الاستغناء عنها في عصرنا «عصر الصورة»، وفي الوقت الذي تم تطويع التلفاز ليصبح الوسيلة الأقوى صوريًّا، فإن الكلمة أصبحت رمزية تلغرافية، لعدم قدرتها على مواكبة الصورة.

الصورة في الإعلام الغربي الموجه إلينا هي صورة موظفة بشكل هادف، فالصورة للإنسان العربي والمرأة العربية، وصورة المقاومة المرتبطة بالإرهاب في الإعلام الغربي هي صورة نمطية، حيث نجد العربي يركب الجمل، والإسلامي شخص إرهابي، والعربي هو شخص متخلف دائمًا، وكل هذه الصور تقدم من خلال وسائل الثقافة المتعددة، من سينما ومسرح وكل وسائل الإعلام الأخرى، ولذلك نحن بحاجة إلى مقابل هذا إلى نتاج وصناعة سينمائية وثقافية وبرامج تكذب كل هذه الصور وتعيد الغرب إلى عقله ليعرف كيف يتعامل معنا.

إننا محاطون بعدد كبير من المحطات الفضائية، التي لا تستخدم الصورة بشكل جيد، وهي مقصرة في تكوين صورة جيدة عن المواطن العربي لدى المشاهد الغربي، كما أن قنواتنا مبعثرة الجهود، وتعتمد في معظمها على نقل الإسفاف والابتذال، على الرغم من وجود قنوات

محدودة تحاول أن تكـون اتجاهـات، وتعـرف بـالظلم الواقـع علـى الإنسـان العربي، وهذه القنوات للأسف لا تحسن استخدام الصـورة، والصـورة هـي لغـة تفـاهم عالميـة، وتقـدم معنـى تفهمـه جميـع جنسـيات العـالم ولغاتـه، وتستطيع أن تحدث تأثيرات كبيرة جدًّا، وإضـافة إلـى وجـود الصـورة لا بـدَّ مـن وجـود الكلمـة التـي تفسـر الصـورة، وتحلـل المعلومـات المنقوصـة في الصورة، ولذلك الصورة والكلمة يجـب أن تكونـا متكـاملتين مـع بعضـهما، ومـن واجـب المحـرر المسؤول عـن الـنص أن يكـون علـى علـم بتفاصـيل الصورة؛ لأنه قد يكتب أمـورًا مختلفـة وغيـر مرتبطـة بالصـورة، والصـورة لا تحمل تعليقًا، وليست في كل مرة تستطيع إيصال المعنى المطلوب.

إن التقاط الصورة ليس مهمًّا بقدر أهمية تحريرها، وتمريـر رسـالة مهمـة مـن خلالهـا، كمـا أن البعـد الجمـالي لـيس مهمًّـا مقارنـة مـع البعـد التـأثيري للصورة؛ لأن ما تقوله الصورة لا يمكن أن تقوله آلاف الكلمات.

الصورة والشباب:

لقد أصبحت وسائل الاتصال اليوم هي المصدر الثقافي للشباب العربي، وجيل اليوم هـو جيـل الصـورة بامتيـاز، ولقـد أصبـح الطفـل يلتقط الصـورة بكثافـة، ويتعامـل معهـا بكـل الوسـائل المحيطـة بـه، والشـباب هـم وسـائل الاتصـال الحديثـة، حيـث يتعـاملون مـع الإنترنـت والموبايـل، وقـد أدى استخدام الصـورة إلـى اختـزال الكـلام، ولـذلك فـإن الثقافـة المرئيـة يجـب الاهتمام بها، وبما يلتقطه الشباب، حيث يجب أن تكون الصورة عنصرًا مـن

عناصر الثقافة، وما نشك فيه هو تغير الثقافة لـدى الشباب بسبب الصـورة، التي تقدم للشباب من خلال الأغاني والفيديو كليب.

الصورة تحكي:

إن الصورة مهمة في المضمون الإعلامي، ولها تـأثير مهـم في إثـارة قضـية ما، وتكوين اتجاه معين أو تغيير اتجـاه، ورغـم قـدرة الصـورة التأثيريـة علـى الجمهـور، إلا أنهـا لا تسـتغني عـن التعبيـر عـن تلـك الصـورة الإعلاميـة بمفردهـا، حيـث لا توجـد صـورة وحـدها تعـبر عـن موقـف معـين، وهـي مسـتخدمة بشـكل قليـل جـدًّا مثـل الكاريكـاتور، والصـور الفليتوغرافيـة والديجتال.

إن الصورة اليوم أصبحت تحكي، حيث توجد إمكانيات لجعلها تحكي مثل تكبيرها وتصغيرها والتلاعب فيها، فاللفظ باقٍ والنص المكتـوب بـاقٍ، ولكن أحيانًا لا يكون له لـزوم أمـام الصـورة، وأحيانًـا أخـرى الكلمـة مهمـة، لذلك فالكلمة والصورة لهما مكانتهما، ويعتمد العاملون على الوسيلة التي تبث الصـورة، ومـن تـأثيرات الصـورة التـي كثـرت كمًّـا ونوعًـا وحجمًـا أنهـا غيرت الأسلوب الكتابي، حيث أصبحت الكلمة مختزلة أكثر ورمزية.[18]

5. استخدام الصورة لإثارة الخوف والرعب

مع التوسع في استخدام الصورة وهو الأخطـر في التـأثير النفسـي، مـا بعـد التلفزيـون والفيـديو والفضـائيات والبـث المباشـر، وذلـك بسـبب تجسـيد

الصـورة للمشـاهد وتكثيفهـا وارتبـاط تأثيرهـا بـالعين البشـرية بمـا تثيـر مـن تجسيد وخيالات داخل العقل البشري.

إن الاهتمام بدأ يتحول إلى استخدام الصورة باعتبارهـا أشـد تـأثيرًا علـى جمهور المواطنين في المجتمع لعدم الحاجة عند رؤيتها إلى تفسيرات أو فهــم وإدراك عميــق، وقــد اســتخدمت الصــورة وفــق آخــر تطــورات التكنولوجيا، وأجهزة الإعلام في مرحلة الفضائيات العابرة لكل القارات، وبشـكل خـاص صـور التعـذيب في السـجون والمعـتقلات الأميركيـة، وفي معتقل غوانتنامو وقلعة جانجي في أفغانستان.

لقـد جـرت وقـائع الحـرب في غـزو العـراق واحتلالـه علـى شاشـات الفضائيات، في متابعة حية على سقوط القنابل وتأثيرها المـدمر باستهداف إحداث أكبر قدر من التأثير النفسي على العـراقيين والعـرب وجـاءت صـور تعذيب المعتقلين في سجن «أبو غريب»، لإثارة الرعب في نفوس المقاتلين، وجعلهم يلقـون أسـلحتهم ويستسـلمون لقـوات الاحـتلال بـدلًا مـن أن يـتم تعذيبهم بالوسائل والطرق اللاإنسـانية، ثـم انتقـل الأمريكـان إلـى اسـتخدام صور الرئيس صـدام حسين، كوسيلة مـن وسـائل تفعيـل التخـوف كآليـة في تحقيق أهداف الاحتلال وإجهـاض روح المقاومـة، فقـد تـم تصـوير صـدام حسـين عنـد أسـره أنـه كـان مختبئًـا في حفـرة وهـا هـو يبـدو مستسـلمًا دون مقاومة، في رسالة موجهة إلى الـوطن العربي والإسـلامي، بـأن هـذا الـزعيم العنيد ضد الولايات المتحـدة قـد انتهـى إلـى الاستسـلام، وأن مـن يقـف في

طريق الولايات المتحدة لن يكون مصيره إلا كمصير صدام حسين، وفي اتجاه المقاومة العراقية من أتباع صدام حسين، فإذا كان رئيسكم قد استسلم فلا ضير عليكم أن تستسلموا؛ لأنهم لن يكونوا أكثر عزيمة من قائدهم، إلى جانب أن ما يشكله صدام حسين من رمزية عربية، فلا بدَّ للحكام العرب أن يعلموا أن أحدًا لا يستطيع أن يواجه أمريكا ويرفض تنفيذ تعليماتها؛ لأن الرئيس صدام حسين هو من قال لا للإدارة الأميركية، وضرب الكيان الصهيوني وبنى قاعدة صناعية وجيشًا من العلماء، وهو من امتلك الثروة الوطنية العراقية، وجعلها عصية على أعداء الأمة، ولذلك استخدمت أمريكا كل ما لديها من استخبارات وعلماء نفس لصياغة مشهد الإهانة لهذا الرمز التاريخي، الذي يمثل الأمة في الحاضر والمستقبل، إلى جانب نشر صور الرئيس صدام حسين، وهو يغسل ملابسه بنفسه، لدفع المقاومة إلى اليأس.

لقد استخدمت الولايات المتحدة حرب الصور وتأثيرها في مناسبات عديدة، فقد قامت بتدريب ابنة السفير الكويتي ناصر الصباح في واشنطن، أثناء دخول القوات العراقية الكويت، في مسرحية بكائية قامت بها الطفلة، لإظهار أن القوات العراقية قامت بإلقاء الأطفال الخدج من الحاضنات الزجاجية أمام الكونجرس الأميركي، لاستدرار عطفه وإثارة حقده على العراق، بالإضافة إلى ذلك ما قام به وزير خارجيتها كولن باول من مسرحية كاذبة، في عرض صور وهمية أمام أعضاء مجلس الأمن، لإظهار أن العراق

يمتلك أسلحة الدمار الشامل، في قاطرات تشبه قاطرات السكك الحديد، والذي تبين في ما بعد أنها من ابتكار عقول المخابرات المركزية الأميركية، سيئة الصيت والسمعة.

إن الكيان الصهيوني قد أبدع في استخدام الصورة لإثارة الخوف والرعب في نفوس الفلسطينيين، لدفعهم للهجرة وترك ديارهم، ليتسنى له تفريغ الأراضي الفلسطينية من السكان، ليحل محلهم مهاجرون غرباء من اليهود، الذين يدعون حقهم الموهوم في فلسطين، وفي صورة الطفل محمد الدرة، فقد قام الإعلام الصهيوني بتركيب قلنسوة على رأس الطفل الفلسطيني، لإيهام الأمريكان والأوربيين أنه طفل يهودي قام الفلسطينيون بقتله بدم بارد.

لقد جاءت الصورة كي تكسر الحواجز الثقافية بين فئات المجتمع؛ لأن استقبال الصورة لا يحتاج إلى مهارة القراءة، فأصبح التعرف على العالم ليس مقصورًا على النخبة، بل أصبح ومن خلال الصورة في متناول سواسية الناس، فأصبح كل مشاهد يستقبل ويفسر ويفهم دون وسيط، ودون الحاجة إلى سياقات ثقافية أو فكرية لفهم الصورة، إلا أن ثقافة الصورة لم تخلق ثقافة ديمقراطية، بل أصبحت أسيرة ثقافة الهيمنة للإمبريالية، نظرًا لما تمتلكه الدول المتقدمة من تقنيات وتكنولوجيا عالية، وأخذت الصورة تفرض هيمنتها، فلم تعد كما كانت في بدايتها، بل أصبحت الواقع بذاته،

فامتلكت قوة قادرة على التأثير في القول والأفئدة، كوننا نعيش في حضرة الصورة، ونتحسس العالم ونتعامل معه من خلالها.[19]

الصورة ليست أبدًا موضوعية، فهي لا تقوم بنقل الواقع كما هو، بل تفرض على المشاهد ما يريده منتجها، وتقوم بتوجيهه بالاتجاه الذي تهدف إلى الوصول إليه، وفي تحقيق الهدف من وراء عرضها، وأصبح المتلقي أسيرًا لقيود الصورة، التي ترسم له معالم الطريق، التي لا بدَّ وألا يتجاوز مساره حدودها، ومنتج الصورة هو من يتحكم في الصورة والمتلقين لها، فقد يستخدمها لغايات جمالية، وقد يستخدمها لما يخدم أهدافه العدوانية، كما تقوم القوى العدوانية في الإمبريالية والصهيونية العالمية، وخاصة باتجاهنا، نحن أبناء العالم الثالث وفي القلب منه الوطن العربي؛ لأننا مستهدفون منهما.

إن البث التلفزيوني والفضائيات لا تشكل لقاء حواريًّا بين الجمهور العربي، بالفكر الغربي والحضارة والثقافة الغربية؛ لأن هذا اللقاء لا يشكل حوارًا بين طرفين، إذ يتحدث طرف واحد فقط، بينما يعد الجمهور العربي مجرد طرف مستقبل، وهنا مكمن الخطورة في الصورة التي يتلقاها المشاهد، حيث تفرض سطوتها عليه، والتدفق الاتصالي الواسع يشكل اغتصابًا عقليًّا، وحربًا نفسية، وتحويلًا عقائديًّا، والصورة المتكونة بفعل القنوات التلفزيونية الوافدة، على خريطة العالم السياسية لدى المواطن العربي، هي صورة جزئية، وهي لا تعبر عما يجري في العالم من تناقضات

وأوجه صراع، مما يشوه ما يتلقاه المستقبل من ثقافة، وتأثير سلبي على تكوينه الثقافي.

إن الصورة الوافدة متحيزة، وهي لا تظهر الصورة الكاملة، وهي في الغالب تعرض ثقافة المرسل، ويصبغ التلفزيون مواده بالعقلية الغربية التي يفرض تفردها تحيزًا، بالإضافة إلى عدم توفر أرضية كافية من المعلومات لدى المواطن، وعدم كفاية الخبرات لديه، مما يجعله يميل إلى تفسير ما تبثه الصورة بغير معناها الأساسي، أو يسيء فهم الهدف من وراء عرضه.

إن قيام المتلاعبين بتصوير الأسطول الأميركي في عباب البحر، وتصوير الطائرات الحربية المقاتلة بأنواعها المختلفة، وهي تقلع منه وتهبط إليه بشكل تستعرض فيه فتوتها الفضائية القتالية، كان من أبلغ الصور الإخبارية الموجهة إلى الذاكرة العربية لتنال منها، وأقوى الرسائل الإعلامية، طمأنة للرأي العام الغربي بحتمية الانتصار.[20]

يذكر ريجيس دوبريه في كتابه «حياة الصورة وموتها» أن التلفزيون، قد فتح قلوبنا وعقولنا على المعاناة والقمع، اللذين لم يكونا قابلين للرؤية هكذا من قبل، وأنه بفعل هذا قد خلق نوعًا من الرأي العام الذي له تأثيره الخاص عبر العالم، فالرأي قد تحول إلى تعاطف، والتعاطف ينقلب إلى اهتمام نشيط فعال، ونحن هنا نرى الواقع من خلال الصورة داخل إطارها ولا نراه خارجها، ما نشاهده هو الواقع داخل الصورة، واقع الصورة وليس

صورة الواقع. إن الصورة التي تقدم المعلومات حول واقع العالم، صورة تعمل أيضًا ضد الصدمة الخاصة بالرؤية والمعرفة للواقع.[21]

من الملاحظ أن الصورة لا تستخدم عبثًا، بل هي ذات أبعاد وأهداف، يسعى الذين يقومون على برمجتها، لتحقيق هذه الأهداف، وعلينا أن نعي جيدًا الأهداف التي تسعى الصورة لتحقيقها، ولا بدَّ لنا من أن نتقن فن صناعة الصورة واستنطاقها، بما يخدم ما نرمي إليه من استخدام لها، بالإضافة إلى أنه علينا أن نعي استخدام الصورة بالاتجاه الذي يخدم أعداءنا، الذين يعملون على مواجهتنا، بكل ما يملكون من وسائل سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية وفكرية، والصورة ذات مضمون فكري وثقافي، وعلينا أن نحذر من استخدام هذا المضمون، إلى جانب العمل على توظيفه بما يخدمنا ويخدم قضايانا، فالحياة نضال، ولن ينجح في سباقها إلا الذين يدركونها ويتعاملون معها، بعقول قادرة على استيعابها ومعرفة استخدامها، فالعقل المفتوح والنيّر، هو الذي يتمكن من الوصول إلى أهدافه.

المصادر

1. السموري، محمد (2007)، خطاب الصورة وجماليات الخطاب البصري، ديوان العرب، مجلة أدبية، فكرية، ثقافية، اجتماعية، موقع على الإنترنت.
2. المحروس، حسين (2005)، حسين المحروس وسوق الجنة، تغطية صحفية، شبكة النعيم الثقافية، شبكة إخبارية تعني بشؤون منطقة النعيم، مملكة البحرين، موقع على الإنترنت.
3. السماوي، مهند حبيب (2007)، المرأة السعودية بين صورة الثقافة وثقافة الصورة، ميدل إيست أونلاين.
4. عبد السلام بن عبد العالي (2000)، ثقافة الأذن وثقافة العين، المغرب، دار توبقال للنشر.
5. عبد الحميد، شاكر (2005)، عصر الصورة: الإيجابيات والسلبيات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: مطابع السياسة، العدد (311).
6. الطاهر روينية (2007)، سيميائيات التواصل الفني، مجلة عالم الفكر: السيميائيات، المجلد 35، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
7. السكافي، حسين (2007)، أبعاد الثقافة البصرية، الجمعية السعودية لطب الأسنان، التقارير الطبية، موقع على الإنترنت.

8. مهدي، حسن والعاص وائل (2006)، مستوى التكامل بين الشكل البصري والمحتوى التعليمي في مقررات الجغرافيا للمرحلة الأساسية العليا، المؤتمر التربوي الأول: تقويم التجربة الفلسطينية في إعداد المناهج، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.

9. النفاطي، حاتم (2007)، صورة خصوصية، سؤال العين والحداثة عند نجا المهداوي، العرب أونلاين، موقع على الإنترنت.

10. المصدق، حسن (2006)، أوهام الحرية العابرة للقارات «الليبرالية الجديدة» أفلست ودول قبل أن تفلس، جريدة العرب اليوم، (26/ 12/ 2006)، جامعة السوربون.

11. عبد الحميد، شاكر (2005)، عصر الصورة: الإيجابيات والسلبيات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: مطابع السياسة، العدد (311).

12. الأستاذ، محمود حسن (2007)، سيميائية الصورة، استراتيجية مقترحة في تنمية تجليات إبداعية وفضاءات دلالية، كلية التربية، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.

13. الأطرش، إياد (2007)، الغزو الإعلامي والثقافي الغربي وتداعياته، مركز الإشعاع الفكري للدراسات والبحوث، تصميم وبرمجة شبكة فلسطين المستقبل.

14. الأستاذ، محمود حسن (2007)، سيميائية الصورة، استراتيجية مقترحة في تنمية تجليات إبداعية وفضاءات دلالية، كلية التربية، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.

15. حسن، ديب علي (2005)، صنمية الصورة في الفضائيات العربية، شبكة النبأ المعلوماتية، الإنترنت.

16. مراد، سلامه (2006)، عصر الصورة، أوراق 99، الإنترنت.

17. الخويلد، زهير (2005) صنمية الصورة في الفضائيات العربية، الخيمة العربية، الإنترنت.

18. العبد الله، مي (2007)، صورة العرب عند الغرب نمطية وتحتاج إلى تغييرها، جريدة العرب اليوم، (4/ 11/ 2007)، أجراها مشيره المعلا، آيه الخوالده.

19. برهومة، عيسى (2008)، سلطة الصورة وإعادة إنتاج الواقع، جريدة الرأي، الملحق الثقافي (أيار/ 2008)، ص3.

20. ساري، حلمي خضر(2007)، صناعة الخوف في المؤسسة الإعلامية: الحرب على العراق، الجامعة الأردنية.

21. العبد الله، مي (2006)، التلفزيون وقضايا الاتصال في عالم متغير، دار النهضة العربية، بيروت.

ثقافة العولمة

الحالة العالمية يفترض أنها لا تتعارض مع الهوية، وعدم تذويبها قسريًّا، وما زال العرب مختلفين حول العولمة وكيفية الاعتراف بها، ولم يفكروا بعد في جوهرها، أو كيفية الاستفادة منها، بعضهم غير قادر على الملاءمة مع عصر العولمة؛ لأن ذلك سيقابل بالرفض والعنف من قبل الجماهير العربية، لحماية الهوية الثقافية والدينية، التي ستتعرض للخطر، وسيزداد العنف كلما تنازلت الدول عن سيادتها، وقدرتها على توفير الخدمات المنتظرة، ومواجهة تحديات العولمة، وتلتقي مصالح الداعين إلى العولمة مع الإقليميين ومع النخب الحاكمة، التي يقوم بقاؤها على الارتباط بالغرب، وضمانات الدول الكبرى، وعلى مصادرة مصالح الشعب، وعلى العلاقات مع الشركات الكبرى.

إن من الواضح أن النظام العربي الرسمي لم ينجح في تحقيق أهدافه على الصعيد السياسي والاقتصادي والأمني، مما يهدد الهوية العربية أمام التحديات الراهنة والأخطار المحدقة به، فالجيوش الإمبريالية الأميركية أصبحت مقيمة إقامة دائمة في العديد من الدول العربية، والنفوذ الأميركي يكاد يلف جميع هذه الدول، والعمل العربي المشترك في إجازة دائمة وهو مشلول عن الحركة وعن الأداء المطلوب، والتنمية السياسية والاقتصادية في تراجع، والنظام التربوي العربي الحاضن للهوية والانتماء والصانع للمستقبل لا يؤدي دوره.

إن ثقافة العولمة النابعة من فكر الهيمنة والسيطرة لأساطين العولمة، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، تؤكد أن فرسان الإمبريالية الأميركية يريدون توظيف كل شيء في سبيل تحقيق أهدافهم، في السيطرة على العالم بالسياسة أو الثقافة أو لغة السوق، وحتى بالقوة العسكرية العدوانية، كما حصل في غزو العراق واحتلاله، ومقولات بوش ذات دلالة واضحة على أهداف الإدارة الأميركية بعد أحداث سبتمبر.

العولمة ليست نظامًا عالميًّا، أو نموذجًا عالميًّا للحياة، فقد نشأت نتيجة تفاعل طبيعي للثقافات العالمية، ولكنه نظام جديد من العلاقات بين الثقافات، كما هي الحال بين الجماعات والدول والأسواق، نشأت في سياق صراع التكتلات الرأسمالية الكبرى على الهيمنة العالمية، إنه يعكس هذه الهيمنة في بنيته العميقة، ويكرس الموقع المتميز للولايات المتحدة الأميركية فيها، بقدر ما يعكس المشاركة الرئيسة للرأسمالية الأمريكية في ثورة المعلومات، وتلعب هذه الهيمنة -بما يلحقها من تطورات تقنية وتبدلات جيوستراتيجية، تعمل على تقريب المسافات، وتوحيد أنماط الحياة المادية والفكرية- دورًا أساسيًّا في دمج الدوائر الثقافية المختلفة، وإنشاء فضاء ثقافي مشترك، أو قائم فوق الثقافات القومية، يسمح لمنتجات الثقافة الأمريكية أن تروج وتنافس منتجات الثقافات الأخرى إلى حد كبير.[1]

إن العولمة في بعدها الاقتصادي تؤدي إلى التركيز في الدول الصناعية، والفقر والتبعية والتهميش للأطراف، وفي بعدها السياسي هي أحد أشكال

الهيمنة السياسية بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وأما عولمة الثقافة من حيث المضمون فهي ثقافة الكسب السريع والإيقاع السريع والتسلية الوقتية وإدخال السرور على النفس وملذات الحس وإثارة الغرائز، وهي أشبه بالسوط الذي يوجه إلى ظهر من يخرج عن بيت الطاعة من الحكومات الوطنية.[2]

العولمة تعني إذن الأمركة إذا فهمنا من الأمركة أرجحيية المساهمة الأميركية في الإنتاج الثقافي المادي والمعنوي الذي يملأ الفضاء العالمي الجديد، الذي أنشأته ثورة المعلومات، والعولمة ليست هي المنشئة لسيطرة ثقافة على ثقافة أخرى، ولكنها منشئة لنمط جديد من السيطرة الثقافية، وليس للثقافات الأخرى أي مستقبل بالفعل إلا إذا أدرك أصحابها طبيعة هذا النمط الجديد من السيطرة الثقافية وآلياته، وبلورة الاستراتيجيات المناسبة التي تسمح لثقافاتهم أن تبقى على مستوى المشاركة العالمية الإبداعية، وألا تتحول إلى مجرد ثقافات هوية، أو معبرة عن الاستمرارية والديمومة التاريخية لمجموعة بشرية، وهذا يفترض التعمق في فهم آليات هذه السيطرة الثقافية، وتجديد طرح مشكلات تحول الثقافات والمهام المطروحة على أصحابها للنجاح في هذا التحول والارتفاع بثقافاتهم إلى مستوى متطلبات العصر.[3]

لقد اكتسحت الثورة العلمية والمعلوماتية العالم منذ بداية التسعينيات، وهي أحد أهم معالم اللحظة الراهنة وهي القوة الأساسية، وليست بالضرورة الوحيدة المسؤولة عن بروز العولمة، وهي التي جعلت الولايات

المتحدة القوة الاقتصادية الأولى، والدولة المهيمنة والمتفردة سياسيًّا ودبلوماسيًّا بالشأن العالمي، وهي التي جعلت العولمة الاقتصادية والثقافية والسياسية ممكنة، وهي التي نقلت العالم من مرحلة الحداثة، وبالتالي دخوله إلى عصر العولمة بسبب المستجدات التكنولوجية والتطورات المعلوماتية.[4]

إن الثقافة المسيطرة لا تحتل موقعها المتفوق بسبب تفوق منظومات قيمها الأخلاقية أو الدينية أو الفنية، ولكن لأنها ثقافة المجتمعات المسيطرة، إنها نتيجة للسيطرة المادية التي أثبتت استمراريتها النسبية، سواء أكانت عسكرية أو اقتصادية أو سياسية أو جميعها معًا، وهذا يعني أيضا أنه ليس لهذه السيطرة أي مضمون أخلاقي متميز، فالسيطرة بقدر ما تزيد من قوة ثقافة من الثقافات المادية والإقناعية، تضعف الثقافات الأخرى وتجعلها باهتة وضعيفة المردود، وتجعل المتعاملين في إطارها، وكأنهم منتجون أو مبدعون من الدرجة الثانية أو الثالثة، وتخفض بشكل موازٍ جزاء عملهم المادي والمعنوي، والثقافة متى احتلت مركز الثقافة السائدة عالميًّا، أصبحت ثقافة الحضارة السائدة كلها، واغتنت بجميع المفاهيم والأذواق والمعارف المبدعة التي تنشئها القوى الحضارية.[5]

إن العولمة الراهنة بقيادة الولايات المتحدة الأميركية شر في كل ظروفه وأحواله، كون سياسة الحزبين في الإدارة الأميركية تتجه اتجاهات عدوانية من أجل الهيمنة والسيطرة على مقدرات العالم، والدول العربية في مقدمة اهتماماتها، بسبب النفط وأمن «إسرائيل»، بالإضافة إلى السوق

الاستهلاكية، لهذا يحتم أولًا إبداع ثقافة جديدة تعبر عن ظروف العصر من احتلال وقهر وتجزئة وظلم اجتماعي، وتخلف، وتغريب، ولامبالاة، وثانيًا كسر حدة الانبهار بالغرب ومقاومة قوة جذبه، وذلك برده إلى حدوده الطبيعية، والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية، وثالثًا عن طريق قدرة الأنا على الإبداع بالتفاعل مع ماضي الأمة وحاضرها، بين ثقافتها وثقافة العصر، ولكن ليس قبل عودة الثقة للأنا بذاتها، وليس قبل التحرر من الانبهار بالآخر كنقطة جذب لها وإطار مرجعي لثقافتها.[6]

إن السؤال الذي يطرح نفسه، هل نحن في اتجاه تكوين ثقافة عالمية واحدة؟ تخضع للتمايز في داخلها بين ثقافة شعبية، وثقافة طبقة سائدة نخبوية، أم في اتجاه صراع بين ثقافة نخبوية مسيطرة، مرتبطة بسيرورة العولمة، وثقافات وطنية محتفظة بديناميكيتها، ومستمرة في مقاومة ثقافة العولمة.[7]

ينظر إلى العولمة باعتبارها عملية لبلورة العالم في مكان واحد، وأن يفضي ذلك إلى ظهور حالة إنسانية عالمية، والحالة الإنسانية هذه يفترض أنها لا تتعارض مع الهوية، أو الهويات، وعدم تذويبها قسريًا، ولكن قد تكون للعولمة القدرة على تضمين الهويات وليس دمجها إذا استبعدنا فكرة الهيمنة، ويرى كثيرون أن الهوية يمكن التعبير عنها من خلال سمات كثيرة ومختلفة من خلال الدين أو اللغة أو الدولة الوطنية أو القومية، ونجد أن الهوية تعني الذات، وهذه تفسر ذات الشيء لحقيقته وخاصيته، وعلى الرغم أن أكثر الهويات محافظة تدينًا وأصالة ولا تستطيع أن تعزل نفسها

عـن الخـارج، ولا بـدَّ أن تخضـع لـدرجات معينـة مـن العولمـة والعلمنـة والتحـديث، حيـث لا توجـد مناطق نائيـة أو معزولـة وبعيـدة عـن التـأثيرات الآتية من الخارج، لذا لا بدَّ من التفكير بكيفية التعامل والعيش مع الآخر دون سيطرة وهيمنة أو الشعور بعقدة النقص أو الخوف.(8)

إن موقف رفض السيطرة الثقافية، والكشف عن آليات التبعية، وتشديد الصراع ضدها، هو المنبع الرئيس لإرادة الاستقلال والمشاركة الحضارية الفعالـة، ومـن دونـه لـن يكـون في مقـدورنا بنـاء أي ذاتيـة فاعلـة، أي مشـروع خـاص يقتضـي الـوعي والإرادة والمـوارد الثقافيـة الخاصـة للمشـاركة في الحضـارة، ولكـن وضـع هـذا الصـراع في إطـار الاعـتراف بقصـور ثقافتنـا وتنظيماتنا، هو الذي يدفعنا إلى توجيه القسم الأكبر من نشاطنا ضد الهيمنة الثقافية، نحو بلورة حلول مبدعة وجديدة لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، أي لإعادة بناء الذات، لا للدفاع عنها والتغزل بمزاياها والاعتزاز بماضيها والتشهير بخصومها.(9)

تعتـبر الثقافـة المعـبر الأصـيل عـن الخصوصـية التاريخيـة لأي أمـة مـن الأمم، وتعبر عـن نظـرة هـذه الأمـة إلـى الكـون والحيـاة والمـوت والإنسـان ومهامه وقدراته وحدوده، وبالتالي لا بدَّ من وجود ثقافات متعـددة ومتنوعـة تعمل كـل منهـا بصـورة تلقائيـة، أو بتـدخل إرادي مـن أهلهـا للحفـاظ علـى كيانها ومقوماتها الخصوصية، ولهذا يخطـئ مـن يتصـور التبـادل الثقـافي بـين ثقافتين غير متكـافئتين، ويخطـئ مـن يعتقـد أن الاحتكـاك الثقـافي والانتشـار يسـاعد الـدول الفقيـرة في تخطـي مرحلـة التخلـف، فالثقافـة الأدنـى تفقـد

تدريجيًّا مقومات استمرارها، وبذلك تتفكك وتنهار أمام حالات الاختراق أو الغزو، وما يجب الانتباه له أن ليس كل ما نستورده من الخارج يمثل الشر بعينه أو الخير بعينه، فإن ما لا يلائم من هذه النماذج المستوردة لطبيعة احتياجات دول العالم الثالث المستوردة يشكل خطرًا على ثقافتها وهويتها القومية.

إن الدفاع عن هويتنا لا يتحقق من خلال الحفاظ عليها كما هي، ولكن من خلال بنائها من أفق المستقبل وفي إطار الثورة العلمية في شتى العلوم والمعارف، ويمكن للكفاءات والخبرات العربية أن تعوض الحاجة إلى العلم والتكنولوجيا الأجنبية إلى حد ما؛ لأن التقليل من الاعتماد على الكوادر الخارجية مسألة مهمة لتعزيز الإرادة العربية المستقلة والاستقلالية، وإلا فإن العولمة ستكون هويتنا وتحكم ماضينا وحاضرنا، وتمحو تراثنا وفكرنا، حيث تهدف لربط الجماعات الوطنية بعالم اللاوطن، واللاأمة واللادولة، وبعبارة أدق إلغاء النسيج الحضاري والاجتماعي.[10]

هذا الصراع المزدوج ضد السيطرة الخارجية وضد الذات وضعفها، في الوقت نفسه هو الذي يضمن عدم تحويل المقاومة إلى تجميد للذات، وعدم تحويل النقد الذاتي إلى تنكر واستلاب، ذلك أن كليهما يضع حدًّا للآخر وبهذا يتحقق الحد الأدنى من التوازن وأصالة الفعل.

إن ما يسود حاليًا وعالميًّا هو حضارة وثقافة رأسمالية الطابع بالأساس، كما أن هذه السيادة هي المسؤولة عن التحولات التي حدثت في جميع أقاليم العالم، والتي أفرغت من مضمونها جميع الثقافات القديمة السابقة،

بما فيها ثقافة الغرب القديمة، وخاصة في أوربا وأمريكا الشمالية واليابان، هذا بينما كان انتشار الرأسمالية لم يلغ أثر الثقافات القديمة في مناطق الأطراف، ولم تفلح الرأسمالية في توظيف الثقافات السابقة توظيفًا فاعلًا وشاملًا، كما صار الوضع عليه في المراكز، ويرجع ذلك إلى أشكال التوسع الرأسمالي، الذي أنتج تفرقة أساسية جديدة وتضادًا بين مراكز وأطراف المنظومة، والعولمة ثمرة تطورات موضوعية مرتبطة بالثورة التقنية العلمية، لكن هذه التطورات ليست مستقلة عن الاستراتيجيات الدولية من جهة، ولا تعمل من دون الأهداف التي تحددها لها من جهة أخرى، إنها تحولات تقنية وعلمية، واستغلال استراتيجي لها في الوقت نفسه، وهذه الاستراتيجيات ليست واحدة، ولكنها تختلف باختلاف مواقع الجماعات ومواردهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية وثقافتهم وأخلاقياتهم.

إنه من المفيد أن نفهم أن العولمة واقع موضوعي، شأنها في ذلك شأن جميع الظواهر الاجتماعية، والوقائع الموضوعية لا تفرض نفسها على المجتمعات فرضًا حتميًّا، بحيث لا يكون للمجتمعات خيار سوى الاندراج في سيرورتها، وأن التفاعل مع الواقع الموضوعي يجب أن يكون إيجابيًّا، فلا يصح أن نتجاهل الواقع، والتقوقع ورفض التفاعل مع الثقافات الأخرى استراتيجية محكومة بالفشل، والعولمة ظاهرة جديدة، وليست مجرد امتداد للأشكال العالمية التي أقامتها الإمبريالية سابقًا، وهي تحمل في طيها ميلًا إلى إلغاء أو تخفيض دور الدولة الوطنية في أن تكون الإطار

الأساسي، الذي ترسم في حدوده السياسة الاقتصادية المستقلة، فتحدد بدورها أشكال ومضمون الخصوصيات المحلية ومنها الثقافة بالطبع.[(11)]

تطمح العولمة على الصعيد الثقافي إلى صياغة ثقافة كونية شاملة تغطي مختلف النشاط الإنساني، وباتجاه يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية، وإن ارتفاع الوعي الثقافي والسياسي بالمشكلات والتحديات، التي يواجهها العالم في القرن الحادي والعشرين، يدفع في طريق إبداع الحلول لمختلف المشكلات الاقتصادية والسياسية والثقافية، التي تواجه هذا العالم، وتحتاج إلى حشد الطاقات وتعبئة الموارد، والتخطيط المتقن، والتنفيذ الفعال، والمتابعة المستمرة.[(12)]

إن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة الوطنية، والاستقلال الوطني والإرادة الوطنية والثقافة الوطنية، وتعني العولمة مزيدًا من تبعية الأطراف إلى المركز، تجميعًا لقوى المركز وتفتيتًا لقوى الأطراف، بما في ذلك الدولة الوطنية، التي قامت بدور التحرر الوطني، وتحديث المجتمع، وقاومت شتى أشكال الهيمنة القديمة والجديدة، حتى انهيار المعسكر الاشتراكي، وباسم المثاقفة يتم انحسار الهويات الثقافية الخاصة في الثقافة المركزية، ويعني القضاء على ثقافة لصالح أخرى، ابتلاع ثقافة الأطراف داخل ثقافة المركز، وتنتهي أسطورة التعددية، التي قامت عليها حضارة المركز، وعبر عنها وليم جيمس في (عالم متعدد)، لصالح عالم أحادي الطرف، ثقافة تبدع وثقافات تستهلك، ثقافة تصدر وثقافات تنقل، وبطريقة لاشعورية، وتحت تأثير تقليد المركز

والانبهار بثقافته، يتم استعمال طرق تفكيره ومذاهبه، إطارًا مرجعيًّا للحكم دون مراجعة أو نقد، وتتبنى ثقافة الأطراف كل ما يصدر في المركز من أحكام خاصة صدرت في المركز بناء على ظروفه الخاصة.[13]

يتعرض انتماء المواطن العربي لتراجع في سياق التدفق الإعلامي – إذاعة وتلفاز – الاستهلاك المحكوم بتقانة الإنتاج والاستهلاك الغربيين، وحين تعجز الدول العربية عن المساهمة في كسر الاحتكار لتكنولوجيا الاتصال لطرح مشروعها الثقافي الخاص بالحفاظ على ثقافتها وهويتها العربية، تكون قد دفعت مواطنيها إلى الفوضى والاختراق، وفقدان السيطرة، تسهم في تمزيق النسيج الاجتماعي داخل الدول المتلقية، لتدفع بقطعان الجماهير للبحث عن وعيها الخاص وذاتها المفردة، والتي لا تخلو غالبًا من الخلاص الفردي والأنانية والنفعية، إن لم يكن في اعتبار الفساد في السلوك والممارسة، ضرورة للدفاع عن البقاء، في سياق عدم التكافؤ الاجتماعي، إن التدفق الإعلامي الغربي يعرض الهوية الثقافية العربية للخطر والانحلال، حيث تبدو المهمة الرئيسة للإعلام الأميركي صياغة القيم بواسطة الإعلام، وتمريرها لصورة القيم الأميركية والغربية، في ظل تراجع التأكيد على الخصائص الوطنية والقومية والهوية العربية، وهشاشة المتلقي للإعلام الغربي وانبهاره به، وتقبله تحت حجة غياب البديل.[14]

يشير محمد عابد الجابري إلى أنه يمكن مقاومة العولمة عن طريق الثقافة العربية، الرصيد الأول للمقاومة العربية ولبقاء العرب في التاريخ، وللجابري عشر أطروحات لتحقيق ذلك هي:[15]

- ليست هناك ثقافة عالمية واحدة بل ثقافات.
- الهوية الثقافية على مستويات ثلاثة: فردية، وجمعوية، ووطنية قومية، والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسًا بنوع الآخر الذي تواجهه.
- لا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعيتها جماع الوطن والأمة والدولة.
- ليست العولمة آلية من آليات التطور الرأسمالي، وهي أيضًا وبالدرجة الأولى أيديولوجيًّا تعكس إرادة الهيمنة على العالم.
- العولمة شيء والعالمية شيء آخر، العالمية انفتاح على الآخر والعولمة نفي للآخر.
- ثقافة الاختراق تقوم على جملة أوهام وهدفها التطبيع مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري.
- نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية في محتوى، ويدفع إلى التفتيت والتشتيت، ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة، أو يغرقهم في أتون الحرب الأهلية.
- العولمة تكريس الثنائية والانشطار في الهوية الثقافية العربية.
- إن تجديد الثقافة، أي ثقافة، لا يمكن أن يتم إلا من داخلها: باعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها، تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل.

- إن حاجتنا للدفاع عن هويتنا الثقافية بمستوياتها الثلاثة لا يقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات، التي لا بدَّ منها لدخول عصر العلم والثقافة وفي مقدمتها العقلانية والديمقراطية.

إذا كانت هناك ثقافة سياسية كونية آخذة في التبلور والذيوع والانتشار تركز على الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، فهل المجتمع العربي قادر على الانتقال من الشمولية والتسلطية بكل أشكالها إلى الديمقراطية مع تعدد صورها، مع الأخذ بعين الاعتبار، هل هناك قابلية لتعميم النموذج الغربي في ظل الغزو والاحتلال الأنجلو أمريكي إلى العراق والانحياز الكامل للممارسات الصهيونية على أرض فلسطين.

إن محاولة الولايات المتحدة الهيمنة على العالم من خلال نشر ثقافة العولمة باءت بالفشل، منذ أن انطلقت هذه السياسة؛ لأن دولة تدّعي الحرية وتمارس الكبت والإرهاب، وتدّعي الديمقراطية في ظل انتخابات مزيفة تحت حراب الاحتلال، وتدعي حقوق الإنسان أمام المذابح اليومية في شوارع العراق، ومساندة الإرهاب الصهيوني في حق المواطنين الفلسطينيين العزل، لا يمكن لرائدة العولمة أن تخترق المجتمعات العربية وهي تتمتع بأكثر دول العالم كراهية، ومع ذلك علينا أن نتعامل مع العولمة بإيجابية بحيث نأخذ ما ينفع تطلعاتنا نحو التقدم مما ينتج الغرب عمومًا وفي مقدمته الولايات المتحدة دون أن ندوس على قيمنا ومعتقداتنا وتاريخنا الذي يحتاج إلى غربلة تظهر الغث من السمين فيه.

المراجع

1. برهان غليون، سمير أمين، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سورية، (1999)، ط1، ص45.
2. عبد الجليل كاظم والي، جدلية العولمة بين الاختيار والرفض، : المستقبل العربي، السنة 24، العدد، 275، (كانون الثاني/ يناير/ 2002)، ص73.
3. غليون، مصدر سابق، ص47.
4. نبيل علي، ثورة المعلومات: الجوانب التقانية، كتاب دراسات الوحدة العربية، العرب والعولمة، (1998)، ص104.
5. غليون، مصدر سابق، ص49–50.
6. حسن حنفي، صادق جلال العظم، ما العولمة؟ دار الفكر، دمشق، سورية، (1999)، ص53–55.
7. غليون، مصدر سابق، ص52.
8. حيدر إبراهيم، العولمة وجدل الهوية الثقافية، عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثاني، (أكتوبر/ ديسمبر/ 1999)، ص102–104.
9. غليون، مصدر سابق، ص56.
10. مها ذياب، تهديدات العولمة للوطن العربي، المستقبل العربي، السنة الرابعة والعشرون، العدد 276، (شباط/ فبراير/ 2002)، ص161.
11. غليون، مصدر سابق، ص205-208.
12. السيد ياسين، العولمة والطريق الثالث، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، (1999)، ص45-47.

13. حسن حنفي، صادق جلال العظم، ما العولمة؟ دار الفكر، دمشق، سورية، (1999)، ص46-55.

14. عدنان سليمان، مقارنة أولية لتداعيات العولمة على المجتمع العربي، الفكر العربي، السنة 19، العدد 93، صيف (1998)، ص154.

15. محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، المستقبل العربي، السنة 20، العدد، 228، (شباط/ فبراير/ 1998)، ص14ـ22.

العولمة الثقافية

ظهرت العولمة الحديثة في سنوات (1990– 1991)، وفكرة العولمة ليست جديدة، فتبادل السلع والخدمات، وانتقال رؤوس الأموال، وانتشار المعلومات والأفكار بين الأمم عرف منذ الرومان واليونانيين والعرب والمسلمين، إلا أن العولمة –بمعنى فرض النموذج الحضاري في مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة– أمر جديد، فنحن إذًا أمام عولمة اقتصادية وفكرية اجتماعية وسياسية وثقافية.

تهدف العولمة إلى محو هوية الأمم الثقافية، وإلى إذابة كل الثقافات الموجودة في ثقافة واحدة هي الثقافة الغربية بصفة عامة، والثقافة الأميركية بصفة خاصة، عن طريق النموذج الأميركي، المتصف بالعنف، والفوضى الخلاقة، وثقافة الاستهلاك، وأمركة الأكل والشرب والملبس.

كما تسعى إلى إذابة بقية الحضارات الأخرى، التي تحمل قيمًا مضادة لحضارة الغرب، خاصة الحضارة الإسلامية والصينية.

تعني كلمة (ثقافة) حضارة كل أمة، من فكر، وحركة، وأسلوب حياة، فالثقافة هي المبادئ والمعتقدات والعادات والتقاليد التي تحدد سلوك الأمة ومشاعرها، وقد ظهرت العولمة الثقافية بعد فترة من الاستعمار. .

ومن أنواع العولمة الثقافية التي مورست على البلاد المستعمرة: الاستشراق، والتنصير، والبعثات الدراسية، وفرض وسائل الإعلام. .

ونتيجة لضعف دول العالم الثالث والعالم الإسلامي سخّر الغرب وسائل الإعلام المتطورة لنشر أفكاره في هذه البلاد المستعمرة، وأدت عدم قدرة هذه البلاد على بث أفكار مضادة للفكر الغربي إلى ظهور العولمة الثقافية، وكلما انتشرت وسائل الإعلام، وتطورت أدى ذلك إلى تثبيت العولمة الثقافية، وخاصة بعد ظهور الأقمار الصناعية والحاسوب والإنترنت.[1]

العولمة ليست ظاهرة اقتصادية، أو مسخًا من صنع الإمبريالية الغربية، بل هي ظاهرة ذات أبعاد سياسية وثقافية. والأكثر دلالة على تعقيدها تنوع تفسيراتها للتحولات الجارية في العالم، والأبحاث على كثرتها تسوق وجهات نظر متباينة حول جملة أبعاد العولمة ومنابعها ونتائجها، ويبقى تفسيرها عملًا قيد الإنجاز، وهي اليوم تتراوح بين نظرية الليبرالية الجديدة (المؤسساتية الليبرالية الجديدة)، ونظرية الدولة العالمية (الكيان السياسي العالمي)، ونظرية الثقافة العالمية.

تشهد القراءات المختلفة للعولمة على عدم وجود إجماع حول محاسنها ومساوئها، أو فوائدها ومضارها، تشير إلى ظاهرة خلافية عالمية بامتياز. فإذا كان المتفائلون يبشرون بسيناريو وردي تتعاون في صياغته بلدان العالم سلميًّا في سوق عالمية واحدة، تسعى إلى تحقيق مصالحها مع تقاسم جملة الالتزامات بالقيم الإنسانية الأساسية، من خلال ما سوف تنطوي عليه لبرلة العالم من ازدهار وإشاعة للديمقراطية من شأنها تبادل التبعية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي وخلق مصالح مشتركة تساعد

على الحيلولة دون وقوع صراعات مدمرة، تساهم في رعاية القيم المشتركة وترسيخها، وتحقق التضامن الذي سيجلب الثروة من جراء نشر السياسات القائمة على السوق ودعم الكيانات السياسية الديمقراطية والحقوق الفردية، مما يعد برفع مستوى ملايين البشر.

يواجه هذا السيناريو الوردي، سيناريو أسود، يرى في العولمة طاغوتًا يتجسد في رأسمالية سائبة بلا قيود ولا حدود، تدفع العالم إلى الخضوع لحكم شركات عالمية لا همّ لها سوى الربح، يلعب فيها تبادل التبعية الاقتصادية دورًا يجعل البلدان أكثر هشاشة أمام التأثير المدمر لتقلبات السوق، وتعريض النسيج الاجتماعي بين البشر في سائر أنحاء الكرة الأرضية للتوتر بتضييق واختزال قدرة الدول المنفردة على تقرير مصائرها، عدا عن اختلال صيرورة العولمة بفرضها معايير ومبادئ سياسية وثقافية غربية على سائر المناطق الأخرى، وتطمس الفروق الثقافية بدلًا من إنعاش التمايزات الثقافية التقليدية.[(2)]

بدأ الحديث عن العولمة في المستوى الاقتصادي وهذا لسبب بسيط، وهو أن العولمة اعتُبِرت، وهي -كذلك في الواقع- درجة متقدمة من تداخل الأنظمة والأنساق الاقتصادية، والاندراج في العولمة على مستوى العالم -بشكل عام- بدأ اقتصاديًا، ولذلك كان الاهتمام به في البداية من الناحية الاقتصادية، ولكن بسرعة لامس قضية كبيرة، هي قضية الهوية الثقافية التي وجدت نفسها، أو وجد أصحابها أنها مهددة وفي خطر.

لذلك وقع الحديث عن تهديد العولمة للخصوصيات الثقافية والهوية الوطنية وللسيادة الوطنية باعتبار أن العولمة –حتى كاقتصاد– هي فعلًا تدخل في الأسواق الوطنية، إلى حد أن السلطة الوطنية تتقلص قدرتها أو سلطتها على مراقبة السوق الوطنية، فلذلك اعتبر من هذه الناحية أن العولمة هي مهدِّدة لهذه الهويات، وما نلاحظه هو أن الاندماج الاقتصادي والاندماج الثقافي غير متوازنين حاليًا، يعني ليس لهما نفس الإيقاع بقدر ما هناك اندراج في النظام العالمي، ما يسمى بالنظام العالمي الجديد –وهو قديم– لكن ما يسمى بالعولمة اليوم؛ لأن النظام الاقتصادي الاجتماعي السياسي الذي وقع اختياره عالميًّا –بشكل عام– في هذه اللحظة هو اختيار ليبرالي.

شيء طبيعي أن يقع هناك اندراج اقتصادي، لكن الثقافة لها إيقاع مختلف مثل إيقاع الخصوصيات، فإن ما نلاحظه الآن هو أن هناك جيوب مقاومة –إن صح التعبير– وجيوب المقاومة ليست في الوطن العربي فقط، بل في أمريكا اللاتينية، في أوربا نفسها، بدأت هناك ردود فعل على هذه العولمة الشرسة التي لم تراعِ مصالح الفئات الاجتماعية وخاصة الطبقات الفقيرة والمسحوقة.

العولمة الثقافة هي مجموعة من الرؤى. . مجموعة من الرؤى والقيم وحتى في السلوكيات بمعناها الثقافي، إضافة إلى المعلومات والمعطيات، هذه المجموعة مرتبطة بالنظام الرأسمالي، النظام الليبرالي الذي له قوة الانتشار والعمل على توزيعها في مختلف أنحاء العالم.

ثمة عملية إعادة بناء كبيرة للقيم وللسلوكيات وللمفاهيم السائدة، ولكن دائمًا الاحتراز الأساسي هو أن هذه القيم هي ليست -بالضرورة- قيمًا ذات طابع إنساني أو طابع كوني ولذلك أخطر من عولمة الثقافة ثقافة العولمة، بمعنى أن هذه الثقافة تصبح بسرعة أيديولوجية، ومشكلة الثقافة العربية، هي أنها أقرب ثقافة للغرب ومخالفة له، وعلماء الأنثروبولوجيا يسمونها هذه المسافة المناسبة (La bonne distance) لأن القبائل قبل كانت دائمًا تشتغل بطريقة أنها لا تقترب أكثر مما يجب حتى لا تتصارع، ولا تتباعد حتى لا تضيع أي إمكانية للتعاون ولذلك دائمًا نلاحظ أن مثلًا (هنتنجتون) في (صدام الحضارات) يركز على الثقافة العربية الإسلامية على أساس أنها من الثقافات التي ستبقى تناور وتواجه العولمة، أو تقود الصراع بين -ما يسميه هو- الغرب والشرق.[3]

- **مجال العولمة الثقافية**

للعولمة منظومةٌ متكاملةٌ يرتبط فيها الجانبُ السياسيُّ بالجانب الاِقتصاديّ، والجانبان معًا يَتَكَامَلاَنِ مع الجانب الاِجتماعي والثقافي، ولا يكاد يستقل جانبٌ بذاته، وعلى هذا الأساس، فإن العولمة الثقافية هي ظاهرةٌ مدعومةٌ دعمًا محكمًا وكاملًا، بالنفوذ السياسي والاِقتصادي الذي يمارسه الطرف الأقوى في الساحة الدولية.

إن المجتمعات الفقيرة المحرومة، تمثّل أحد المجالات الحيوية للعولمة، فكلما ضعفت المناعة الاِقتصادية، ضؤل تأثير المناعة الثقافية

لدى الشعوب، مما يجعل السقوط والإنهيار تحت مطارق ضربات العولمة الثقافية أكثر احتمالًا في ظل هذه الأحوال، ولذلك فإن العمل المخطَّط والمدروس في هذا المجال الحيوي، من خلال القنوات المتخصصة، وبتضافر الجهود في إطار العمل المشترك، هو واجبٌ من الواجبات المهمة التي تقع على كواهل الجميع، والتي لا يُعفى منها أحد.

إن من شأن سدّ الفجوة الكبيرة بين الغِنى والفقر في العالم، وتحقيق تنمية اقتصادية متوازنة ومتكاملة وشاملة، أن يحدَّ من المجال الذي يعمل فيه نظام العولمة الثقافية، وأن يقطع الطريق على القوى المهيمنة التي يسعى القائمون عليها إلى إكراه الحكومات والشعوب على الإذعان لها والرضوخ لإرادتها والذوبان في العولمة الثقافية. ومن أجل ذلك لا يصح عقلًا ولا شرعًا، أن نظل مكتوفي الأيدي، مقيّدي العقول أيضًا، أمام التقدم المطّرد الذي يعرفه اكتساح العولمة الثقافية للعالم الثالث. ونعتقد أن العمل في هذا المجال الواسع، ينبغي أن يكون هو العمل الذي تحشد فيه القوى وتُعبّأ القدرات وتُستحث الهمم.[4]

يقول محمد عابد الجابري في تعريفه للعولمة الثقافية بأنّها: «نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد، وأنّها نظام عالمي يشمل المال والتسويق والمبادلات والاتصال، كما يشمل أيضًا مجال السياسة والفكر والأيديولوجيا».[5]

ويعرفها صادق جلال العظمة قائلًا: «العولمة هي وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريبًا إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة

التبـادل والتوزيـع والسـوق والتجـارة إلـى عالميـة دائريـة الافتتـاح، وإعـادة الإنتـاج ذاتهـا، أي أن ظـاهرة العولمـة التـي نشـهدها بدايـة عولمـة الإنتـاج والرأسـمال الإنتـاجي، وقـوى الإنتـاج الرأسـمالي، ونشـرها في كـل مكـان مناسـب وملائـم خـارج مجتمعـات المركـز الأصـلي ودولـه، وهـي حقبـة التحـول الرأسـمالي العميـق للإنسـانية جمعـاء، في ظـل هيمنـة دول المركـز وبقيادتها، وفي ظل سيادة نظـام عـالمي للتبـادل غيـر المتكـافئ، ممـا يعنـي أن بداية المصطلح كانـت اقتصادية». (6)

ويضيف حيدر إبراهيم: «إن العولمة لا تهـدد الهويـة أو الهويـات الثقافيـة بالفناء أو التذويب، بـل تعيـد تشـكيلها؛ لأنهـا ارتبطـت بالاقتصـاد والسياسـة والثقافـة، وإذا تحـول العـالم إلـى لغـة مشـتركة، فـإن هـذه اللغـة سـتكون الإنجليزية بطبيعة الحال، أو لغة أوربية أخرى، وهي لغة الاقتصـاد والبحـث والتكنولوجيا، وإذا كان يتحرك بمعايير مشـتركة في مجـال الأمـان والنوعيـة، فسـتكون هـذه المعـايير أمريكيـة، أمـا القـيم فتكـون قيمًـا يرتـاح لهـا الأميركيون». (7)

لقد تقدم أن مجال الثقافة أحـد مظـاهر العولمـة وجوانبهـا، وتتفـق كلمـة عـدد مـن البـاحثين علـى أن الثقافـة مـن أخطـر الأوجـه الحضـارية المتـأثرة بظـاهرة العولمـة، ويقـول د. سـيار الجميـل: «ولـم ينحصـر الأمـر في الاقتصـاديات المعولمـة، بـل طالـت وبسـرعة شـديدة ونسـبية عاليـة هـذه العولمة ثقافات الشعوب وقيمها وعاداتها وتقاليدها». (8)

ويعدها د. طلال عتريس أكثر صعوبة وتعقيدًا، ذلك أن الثقافة -كما يقول- محصلة التفاعل بين ثلاث علاقات مع الله (العقيدة والذات) ومع الآخر (المجتمع والطبقية) ومع الذات الرغبات والغرائز والحاجات.[9]

- إن الثقافة لا تقتصر على مجرد المعلومات والتصورات الذهنية لدى كل فرد، بل تطال مجموع الشخصية الإنسانية ومدى تفاعلها مع البيئة والكون.
- إنها لا تعكس تصورًا فرديًّا محضًا، بل هي صورة لمجتمع كامل وأمة بأسرها.
- إن الثقافة تعبر عن الخلفية الإنسانية التاريخية، وهي في الوقت نفسه أحد طموحات النفس البشرية.

وإذا كانت العولمة في معناها البسيط تعميم الشيء وتوسيع دائرته فشأن الثقافة أوغل في هذا الميدان لأن التأثير الثقافي أسرع من أي تأثير آخر، وذلك بحكم تفاعل النفس البشرية مع الغير، ولذا يعد دافيد روتكويف أن طغيان ثقافة واحدة وعالمية وتهديد ثقافة المرء يصبح تهديدًا لدينه وأسلافه، ومن بعد تهديدًا لجوهر هويته.[10]

وإذا كانت عالمية الشيء هي قابليته للتعميم والانتشار فإن العولمة قمة تلك العالمية؛ لأنها نتاج الحركة التفاعلية التي تنعكس آثارها على الآخر وتتوغل في ذاته وكيانه ورصيده الفكري، ولذا يعبر د. الجابري عن عولمة الثقافة -ببساطة- بأنها الاختراق الثقافي.[11]

هذا وإذا انتقلنا إلى مجالات التأثير المباشرة للعولمة الثقافية نجد أنها – من حيث كونها أداة لتحقيق السيادة– ضربت بعمق في أهم مكونين للسياسة الثقافية الفردية والجماعية وهي التربية والتكوين وقد كان التأثير مباشرًا في الأسرة والمدرسة، وقد ساعد على تمهيد الكشف للاختراق الثقافي المذهل في هاتين المؤسستين ضعف البنية التحتية لهما في مجتمعاتنا العربية فيما عبر عنه عبد الإله بلقزيز: إخفاق النظام التعليمي، وتفكك بينة الأسرة.

لكننا إذا فرقنا بين عالمية الثقافة وعولمة الثقافة عرفنا البون الشاسع بين مجرد الانفتاح الثقافي العالمي وبين فرض الهيمنة على العقلية الاجتماعية البشرية، فعالمية الثقافة تجسدها تكنولوجيا الاتصالات والحواسب والتشابك الاقتصادي، بينما تشكل العولمة الثقافية فرض نهج بذاته ومصالح وقيم ثقافية بذاتها، وكل ما تراه القوة ذات الهيمنة أمرًا نافعًا وضروريًّا لها وفاء لمصالحها.

إن ثقافة العولمة فرضت تحديًا عظيمًا على الثقافات العالمية التي تحققت عبر مسيرة الشعوب والأمم التاريخية وكان يمكن أن تستمر من خلال التبادل الثقافي على أساس أن عولمة الثقافة تدخل من باب تفاعل المتعدد الثقافي الكوني، وليس من باب تضاده وتصارعه وبخاصة أن الثقافة تقترب من الحقل الإنساني، لتجمع المجتمع البشري، على عكس ما يفعله الاقتصاد والسياسة اللذان يفرقانه. لكن التبادل والحوار والتفاعل الثقافي بحاجة إلى مكان تتم فيه عملية عولمة الثقافة دون تدخل قسري، فيما السياسة العالمية التي تفرض نموذج الغرب ارتباطًا بالمصالح الاقتصادية

للمركز العالمي، تبدو في عجلة من أمرها، وهذا ما يدفع عديدًا من الدول المركزية في العالم إلى محاولة الوقوف في وجه ثقافة العولمة الأميركية، من خلال القيام بالعديد من الإجراءات للحفاظ على هويتها الثقافية.

ولعل أحد أهم مظاهر التداخل الثقافي، وحتى عولمة الثقافة، هو أنه بدأ يتم توجيه المجتمعات شيئًا فشيئًا، إن كان تلقائيًا أو بفعل التخطيط من قبل المركز، حيث تتم الآن صياغة برامج إقليمية لمجموعات الأطراف، أي تجاوز الحواجز الثقافية بين المجموعات البشرية، وبخاصة تلك المتعلقة بعاملي الدين واللغة. «وتقرير اليونسكو حول ثقافة القرن الحادي والعشرين يؤكد أن التربية الأولية يجب أن تساعد الأطفال والراشدين على تفهم أفضل لثقافتهم الخاصة، الماضي منها والحاضر، في نطاق مجتمعي أوسع، مجتمع أممي يعتبر فيه انفتاح الثقافات الخاصة بعضها على بعض، وحوارها في ما بينهما، هما الوسيلة الوحيدة لازدهار كل منها».[12]

وربما قد لا يبدو اليوم الذي تتحول فيه الإنجليزية إلى اللغة الرسمية، أو الأولى في كل مناطق العالم، مع تحول اللغات القومية إلى لغات ثانية، كما كانت حال بعض لغات الشعوب في ظل الدولة القومية الحديثة، وهذا ما يتضح من خلال بدء كثير من الدول والمجتمعات بتعليم الإنجليزية منذ الصف الابتدائي الأول، أو حتى قبل ذلك.

ومثل هذه الثقافة ستأخذ شكلها من خلال برامج ومناهج التعليم، ليس تلك المرتبطة فقط بالجامعات العالمية أو التعليم عبر الإنترنت وحسب، ولكن قد يتم التعميم بتنحية أو إخراج مادة الدين من المناهج. وقد تتحول

مناهج التعليم إلى تقديم مجمل الأديان لطلابها، حتى يختاروا ما يشاؤون منها، أو حتى باعتبارها مادة لاهوت، أو ميتافيزيقيا، كانت تشكل جزءًا من الوعي البشري لذاته في مرحلة سابقة، وإذا كان الفارق بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، هو أن الأولى تعني ذلك التشكل الثقافي المترافق مع ظهور حركة العولمة، وأن الثانية تعني ذلك الجهد القائم على أساس الجمع بين الثقافات القومية المتحققة، باعتبارها منجزًا تاريخيًّا يتطلب الحفاظ عليه استمرار وجوده في دائرة الفعل الحديث والمعاصر، فإنه لا بدَّ من القول بأن جل ما ينجم من مشاكل مترافقة مع ظاهرة العولمة، إنما تعود لسببين:

الأول: محاولة فرض العولمة بسرعة وبقوة القهر، التي يقوم بها مركز العولمة الأميركي على المستوى الطبقي الرسمي والمركزي.

الثاني: رفض العولمة من قبل القوى الاجتماعية المتخلفة عن العصر، وبين الفرض والرفض يتجه العالم إلى انتصار واضح للعولمة الرأسمالية على بقايا ظواهر الدول القومية وتشكيلات ما قبل الرأسمالية، لكن يدخل بالضرورة في أتون صراع كوني، حيث إن عولمة شعبية مضادة تتشكل في مواجهة مركز العولمة الرأسمالي.(13)

ويرى غليون أن هناك تحديين للثقافة العربية الأول هو الاستسلام الذي يؤدي في نظره إلى الانحلال والتفكك، والثاني هو الرفض والاحتجاج وبالتالي نكون بمثابة الثقافة المضادة لثقافة العولمة.

ويفضل غليون أن تأتي مواجهة العرب للعولمة في إطار إعادة تعريف الذات ومقاومة العولمة كجزء من منظومة عالمية، هذا يستدعي حسب

وجهة نظر غليون الاعتراف بقصور أنظمتنا الاجتماعية والثقافية، وأن نكسر آليات التبعية وننطلق نحو العالمية بهدف القضاء على هامشيتنا الحضارية.

أما الدكتور سمير أمين في ورقته المعنونة «ثقافة العولمة وعولمة الثقافة» فكان متسقًا مع ذاته القديمة فطرح لنا موضوع ثقافة العولمة على أنه استمرار للثقافة الرأسمالية المهيمنة منذ قرون. وجوهر ورقة أمين على حد تعبيره يتعلق بموضوع «المعارضة في العلاقة التي تحكم الأمور السياسية والاقتصادية في مجتمعات العالم المعاصر، وبين الخصوصية الظاهرة التي تحكم الحياة الثقافية». [14]

يقول عبد الإله بلقيز: ليس صحيحًا أن العولمة الثقافية هي الانتقال من حقبة –ومن ظاهرة– الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هي الثقافة العالمية أو الثقافة الكونية، على نحو ما يدّعي مسوقو فكرة العولمة الثقافية، بل إنها – بالتعريف– فعل اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات. إنها رديف الاختراق الذي يجري بالعنف –المسلح بالتقانة– فيُهدر سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها عملية العولمة. وإذا كان يحلو لكثيرين أن يتحذلقوا بإفراط في الرد على هذا الفهم للعولمة الثقافية، فيرجمونه بتهمة الانغلاق الثقافي أمام تيارات العصر، والدعوة إلى الانكفاء والتشرنق على الذات (والهوية، والأصالة، ومشتقاتهما...)، وإذا كان يحلو لهم أن يعيدوا على أسماعنا مواويل الانفتاح الثقافي غير المشروط على (الآخر) للانتهال من موارده ومكتسباته وكشوفه المعرفية... إلخ، فإنه يطيب لنا أن نلفت انتباههم إلى وجوب وعي الفارق

بين التثاقف والعنف الثقافي من جانب واحد، ليست العولمة سوى السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات، بواسطة استثمار مكتسبات العلوم والتقانة في ميدان الاتصال. وهي التتويج التاريخي لتجربة مديدة من السيطرة بدأت منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعماري منذ قرون، وحققت نجاحات كبيرة في إلحاق التصفية والمسخ بثقافات جنوبية عديدة، وبخاصة في إفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، ولعل هذا يؤكد أن العولمة لا تؤرخ لنهاية عصر الدولة القومية، بل تعلن عن ميلاد حقبة جديدة من تمددها المستمر، وليس ما يدعى بالعولمة الثقافية، اليوم، إلا مظهرًا من مظاهر ذلك التمدد خارج الحدود، الذي هو آلية طبيعية في نظام اشتغال الدولة القومية الحديثة.[15]

على أن هذه السيطرة الثقافية الغربية العامة تنطوي -في داخلها- على علاقة أخرى من السيطرة تجعل ثقافات غربية عديدة في موقع تبعي لثقافة أقوى تتمدد أحكامها على امتداد سائر العالم، أما هذه السيطرة التي نعني، فهي التي يمكننا التعبير عنها بعبارة الأمركة (Americanisation)، والعولمة -في ما نزعم- هي الاسم الحركي لها، ليست الأمركة أسطورة جديدة من أساطيرنا السياسية، ولا هي شماعة نعلق عليها إخفاقاتنا وعجزنا، بل هي حقيقة مادية تعيشها أوربا نفسها، وتحتج عليها، وتنظم مقاومتها ضدها، وتعتبرها خطرًا استراتيجيًّا يهدد استقلالها الاقتصادي والسياسي وهويتها الثقافية.[16]

ما الذي في وسع مجتمعات وثقافات أخرى -خارج أوربا- أن تفعله في مواجهة هذه العولمة/ الأمركة بإمكانياتها الشحيحة؟

ليست هناك معجزات في الأفق، ولكن، من المفيد القول إن فعل العدوان الثقافي -أي عدوان ثقافي- لا يحتل المشهد وحده، بل هو غالبًا ما يستنهض نقيضه، بسبب ما ينطوي عليه عنفه الرمزي من استفزاز لشخصية المعتدى عليه، ومن تشبث بثقافته وهويته، ماذا يمكننا أن نسمي -مثلًا حالة الانكفاء الثقافي للمغلوب إلى منظوماته المرجعية التقليدية؟ إنها تراجع معرفي ما في ذلك شك، غير أنها -في منظور علم اجتماع الثقافة- شكل من الممانعة الثقافية ضد الاستسلام، ومحاولة للبحث عن نقطة توازن في مواجهة عصف التيار الثقافي الجارف، إنها محاولة للاحتماء من عملية اقتلاع كاسحة، وهي وإن كانت دفاعًا سلبيًّا عن الثقافة والأنا الجمعي، إلا أنها تظل -في النهاية- مظهرًا من مظاهر المقاومة الثقافية المشروعة، وإن كان من الواجب القول إن معركتها مع العولمة خاسرة في آخر المطاف إن لم تتحول إلى مقاومة إيجابية تتسلح بالأدوات عينها التي تحققت بها الجراحة الثقافية للعولمة.

إن مقاومة العولمة الثقافية ليست دعوة رجعية لقطع آصرة التفاعل الثقافي مع العالم الخارجي، بل هي طريقة للقول إن الثقافة العالمية الحقيقية هي ثقافات سائر المجتمعات من دون استثناء، فالكونية هي التميز في مجال الرموز. وكل نزعة توحيدية في هذا الباب مدماك جديد لبناء صرح التوتاليتارية.[17]

إن بلادنا من بين الأمم التي توجد في حالة دفاع عن هويتها الثقافية المهددة من أكثر من جانب، وفي مثل هذه الحالة الدفاعية لأمة ذات ماضٍ عريق وحوافز حضارية متجددة في طليعتها الدين الإسلامي وحاضنه الأساسي المتمثل في اللغة العربية، يمكن أن يشكل هذا التهديد فرصة تاريخية لصياغة شروط تعزيز هذه الهوية من خلال مواجهة التحدي الثقافي بشكل يتجاوز عوامل التخلف وعقد الماضي المتخلف.. والنظر إلى الهوية برؤية جديدة أصيلة مرنة حية واقعية وأصيلة ليصبح فيها مفهوم الأمة مرادفًا للثقافة، وهي ثقافة عربية إسلامية، جوهرُها وحقيقتها هما ثوابت الأمة التي اصطبغت بالإسلام منذ أن دانت به جميعًا، فأصبح هو ولغته «الهوية» الممثلة لأصالة ثقافتها، وهو الذي طبع ويطبع، وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته، فعاداتها وتقاليدها وأعرافها وآدابها وفنونها وسائر علومها الإنسانية والاجتماعية، ونظرتها للكون، وللذات، وللآخر، وتصوراتها لمكانة الإنسان في الكون مِنْ أين أتى؟ وإلى أين ينتهي؟ وحكمة هذا الوجود ونهايته، ومعايير المقبول والمرفوض، والحلال والحرام وهي جميعها عناصر لهويتنا، تحمل القيم الإنسانية السمحاء للإسلام، ، ويتسع مفهومها الوارف الظلال منذ قدوم الفاتحين الأوائل ليشمل كل المكونات ويستوعب الخلافات والفروق، ليحتفظ بالإيجابي منها، ويتجاوز السلبي، ويكون مستندًا إلى المشاعر الشعبية العميقة والأصيلة، المكتملة بالوعي الناضج، الذي يبني مفهومًا جديدًا يسعى لأن يحقق أكبر قدر من التضامن والوحدة، مع أكبر قدر من حرية الاختيار والاقتناع.

إن هويتنا في هذه المرحلة تملك مفهومها المصحح للمفاهيم المنحرفة التي فرضت عليها منذ مطلع القرن الماضي فهي كيان معنوي له تاريخ ومستقبل، يعيش في أعماق الضمائر والعقول لسكان الأرض المحليين، وأساسه تاريخهم المشترك والتحديات المشتركة التي تواجههم وقبل ذلك كله لغاتهم المحلية وفي مقدمتها لغتهم العربية التي هي اللغة الأصلية للسواد الأعظم منهم واللغة الوطنية لبقية المكونات دون أن ينفي ذلك ضرورة تمسك هذه المكونات بلغاتها التي هي مصدر إثراء وتنوع للجميع، ومصدر افتخار لهم . إن هذا المنظور الثقافي يحظى بكل عوامل الرسوخ كلما ابتعدنا عن المنظور الثقافي الغربي الرابض في اللغة الكولونيالية التي قدمت مع وافديرب ريني كايي وكورو وكابولاني ومن تابعهم في تكريسها من المنتفعين بهذه الثقافة وملامح هويتها الغربية الهجين.[18]

المصادر

1. عبد الرافع حمد الأمين، «الإسلام والعولمة» موقع شبكة المشكاة الإسلامية، (30/ 11/ 2007).
2. سعيد زكريا، «العولمة الثقافية هي الصيغة الأكثر ألفة وحميمية. . وخطرًا»، الشرق الأوسط، (12/ مايو/ 2005)، العدد 9662.
3. الجزيرة، «العولمة الثقافية وثقافة العولمة»، مقدم الحلقة محمد كريشان، ضيف الحلقة، الطاهر لبيب، تاريخ الحلقة، (20/ 4/ 1999).
4. باسم علي خريسات، «العولمة والتحدي الثقافي»، دار الفكر العربي، بيروت (2001).
5. عبد السلام ولد حرمة، «الثقافة والهوية»، موقع شبكة الدرب، (22/ 12/ 2007).

وانظر محمد عابد الجابري، «العرب والعولمة»، (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت، (1988)، ص792- 892.

6. صادق جلال العظم، «ماهية العولمة»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، (1996).
7. حيدر إبراهيم علي، «العولمة وجدل الهوية» سلسلة الثقافة السياسية، مفاهيم وقضايا، مركز الدراسات الإسلامية، الخرطوم، (2001).
8. سيار جميل، «الثقافة الإسلامية والاختراق الثقافي في ظل العولمة»، مجلة الكلمة، بيروت، السنة الخامسة، العدد 18.

9. طلال عتريس، «العرب والعولمة» مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (يونيو/ 1992).
10. ناصر بن سليمان السابعي، «البعد الثقافي لمفهوم العولمة، وأثره على الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية»، موقع مجلة الخيمة العربية.
11. المصدر السابق.
12. رجب أبو سرية، «جدل العولمة، الوصف الموضوعي بين الفرض الإمبريالي والرفض الأصولي»، موقع الكاتب الصحفي رجب أبو سرية.
13. سعد محد رحيم، «استراتيجيات العولمة وأطروحات ما بعد الحداثة» مجلة المعلم، موقع العرب أون لاين.
14. برهان غليون، سمير أمين، «ثقافة العولمة وعولمة الثقافة»، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، (1999).
15. عبد الإله بلقيز، «الإسلام والعولمة ـ صراع أم حوار؟ العولمة جدل العدوان والمقاومة» موقع البلاغ.
16. حسن حنفي، صادق جلال العظم، «ما العولمة؟» مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، (1999).
17. دانييل دريز يز، «ياعولمي العالم اتحدوا»، ترجمة عبد السلام رضوان، مجلة الثقافة العلمية، عدد 85، (ديسمبر/ 1997).
18. محمد عمارة، «مخاطر العولمة على الهوية الثقافية»، (1999)، موقع الإصلاح.

ثقافة الإقصاء

ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله فأصبح من الخاسرين .

واستمرت هذه الثقافة وعانى منها الكثيرون، فهذا نبينا يوسف -عليه السلام- يعامل من إخوانه، الذين استخدموا تلك الثقافة بإتقان، قال تعالى: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين، إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفي ضلال مبين، اقتلوا يوسف، أو اطرحوه أرضًا، يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قومًا صالحين».

وهذا رسولنا الكريم -صلوات ربي وسلامه عليه- يعامل بالثقافة نفسها أيضًا، فقد اجتمع زعماء مكة في دار الندوة للقضاء عليه، وقد سجّل القرآن الكريم ما دار في ذلك الاجتماع، قال تعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا، ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرينز».

هذه الثقافة ستظل ما دام هناك من لا يريدون الاستماع للآخر، فهي كفيلة بالقضاء على كل الأصوات، ما عدا ذلك الصوت القوي، الذي يريد أن يكون أوحد.

يستخدمها الكثيرون لأنها في غاية السهولة، فهي باختصار هروب من المواجهة واستخدام أرعن للقوة، وقد استفحلت هذه الثقافة في مجتمعنا،

وطغت في تعاملاتنا، فالكل يريد أن يكمم أفواه الآخرين، باستخدام كل السبل المشروعة، وغير المشروعة أيضًا، مستغلًا وجوده في موقف القوة.

قال أحد المتصوفة قديمًا: لي في الأرض ما ليس للهِ في السماء!

ظاهرة الإقصاء هي سمة للثقافة «الموحدة» والواحدة، التي لا تعترف بالآخر، ومن ثم لا تقبل به بطبيعة الحال، وهذه الظاهرة ارتبطت تاريخيًّا في الثقافة السياسية، التي اعتادت أن » تنفي «الآخر خارج البلد، أو في غياهب السجن، وبالمؤسسة الدينية، التي تنفي »الآخر «خارج المنظومة الدينية، مستخدمة أسلحتها المعهودة، إضافة لإثارة العامة، لكن» العامة ، وهم غير المنتمين لهاتين المؤسستين، لم تصدر منهم إشارات للإقصاء السياسي والديني.

في حقيقة الأمر الإقصاء وتكميم الأفواه، لم يكن أمرًا شائعًا في الثقافة العربية، وقد نقلت لنا الكتب أخبار مجالس الخلفاء، والتي غالبًا ما كانت تحفل بالمناقشات الثرية، والاختلاف في وجهات النظر، وحرية الرأي كانت مكفولة بشكل عام للجميع، وإلا لما كانت تلك الحضارة والازدهار المعرفي والحضاري، صحيح هناك بعض الحالات المسجلة للاعتداء على حرية الرأي، لكنها لا تعدو عن كونها حوادث فردية، لا يمكن إثباتها كحالة عامة أو شائعة في تلك العصور، ظاهرة الإقصاء وتكميم الارآء، هي غالبًا مرادفة للتخلف، والانغلاق والتخلف، في جميع النواحي الفكرية والثقافية

والحضـــارية، كلهـــا لا تظهـــر إلا في بيئـــات تفصـــل بينهـــا وبـــين الحضـــارة مسافات[1].

يتساءل الكاتبان (ألموند وفيربا)، عن لماذا تـنجح الديمقراطيـة في بعـض البلدان، بينما تفشل في البعض الآخر؟ ومن خلال دراسة مقارنـة للوضـع في عدة بلدان، كانت الإجابة تتلخص، في أن المتغير المؤثر في هـذا الشـأن، هـو وجود أو عدم وجود ما سمياه بالثقافة المدنيـة، فـإذا كانـت الثقافـة السياسـية هـي مجمـوع تلـك القـيم والمشـاعر والغايـات، التـي تحـدد نظـرة الفـرد والجماعـة إلـى الشـأن السياسـي، ومـن ثـم السـلوك السياسـي، فـإن الثقافـة المدنية، بصفتها جزءًا من الثقافة السياسية لهـذا المجتمـع أو ذاك، هـي قـيم من نوع خاص، قيم تقوم على التسامح واحترام الآخر، في العلاقة بين أفـراد المجتمع الواحد بصفة خاصة[2].

وما يسميه ألموند وفيربا بالثقافة المدنية، هو بالتالي الأساس الـذي يقـوم عليـه مفهـوم آخـر، هـو القـدرة المدنيـة، والتـي تعنـي مـدى تحمـل وتقبـل المجتمع وثقافته للتغيير، وطبيعـة العلاقـة بـين مكونـات المجتمـع الواحـد، من حيث طبيعة العلاقة بينها، احتواء أو إقصاء انظر[3]:

(1) http//al–zuhir.com.

(2) G. A ALMOND AND SIDNEY VERDA, THE CIVIC CULTURE. PRINCETON (UNIVERSITY PRESS,1963).

(3)(KERRY KENNEDY, CIVIL SOCIETY, CIVIC INSTITIONS AND LOCALCULTUERS; BUILDING CIVIC CAPACITY INTO THE SCHOOL CURRICULM, (UNIVERSITY OF CANBERR 2005).

ومن هنا فإن الثقافة المدنية، تعتمد على توافر مجموعة معينة من القيم، يطلق عليها بعض المتخصصين الفضائل المدنية، وهي تنقسم إلى ما يلي:

- فضائل عامة: الشجاعة، طاعة القانون، الإخلاص.
- فضائل اجتماعية: الاستقلالية، الانفتاح.
- فضائل اقتصادية: أخلاق العمل، القدرة على تأجيل المتع الذاتيه، القابلة للتكيف مع المتغيرات الاقتصادية والتقنية.
- فضائل سياسية: القدرة على احترام الآخرين، الاستعداد للمشاركة في الشأن العام.

ويضيف بعض الباحثين فضائل وقيمًا أخرى، ممكن إيجازها وتلخيصها في خمس أساسية هي العقلانية والتسامح والفردية والإخلاص وطاعة القانون، وهذه الفضائل وغيرها، هي الأساس الروحي إن صح التعبير، لأي مجتمع فاعل، ولا يمكن أن ينشأ مجتمع فاعل دون هذه القيم، ولو نظرنا إلى الحالة العربية، في ظل هذه الفضائل والقيم، لوجدنا فقرًا شديدًا في وجودها بشكل عام، وبنظرة سريعة للتاريخ العربي في هذا المجال، يمكن القول إن الدولة العربية ما زالت فئوية في بنيتها وسلوكها، حتى وإن لم يعلن ذلك في اسم الدولة، ففي الأنظمة الملكية والجمهورية العربية، الحديثة منها، أو المحافظة على السواء، هناك دائمًا عائلة حاكمة، بمعنى من المعاني، أو طائفة مهيمنة أو مميزة، بحيث يمكن الحديث عن النمط العربي للحكم، إنه قائم على عدة أركان: الركن الأول: هو وجود مؤسسة تقليدية تهيمن، والركن الثاني: هو وجود مؤسسة حديثة، تساير

الشكل الديمقراطي، تعتبر واجهة للحكم والهيمنة، والركن الثالث: هو وجود زعيم يقف على رأس المؤسستين، بحيث يلعب دور زعيم القبيلة، أو الزعيم الروحي، أو التمنطق بالدين، والركن الرابع: الزعامة الاجتماعية السياسية، أي أن الزعيم يوصف بأنه الأب والمرشد والمعلم والمصلح الاجتماعي، أما الركن الخامس: والأهم تأثيرًا سلبيًّا على الثقافة المدنية الاجتماعية العربية، وهو الإيمان بأن الزعيم لا يخطئ[1].

ثقافة «إقصاء الآخر» هي الركيزة الأساسية للاستبداد، وهي تعبر عن مجتمعات ما قبل الحداثة؛ لأن أحد منجزات الحداثة هي ثقافة الاعتراف بالآخر، وحرية الأفراد، وتأسيس الدولة المدنية الحديثة، وإن أي مجتمع لا يعترف بالتعددية، وبحرية مواطنيه، ويطابق بين الجزء والكل، أو بين الواحد والكثرة، كما هي حال المذاهب الطائفية والليبراليين الجدد، هو مجتمع سكوني غير قابل للتطور والحياة، وأن منابع ثقافة إقصاء الآخر تعود إلى الموروث الثقافي، وما يحمله من بنى قبلية وإقطاعية، وتراث ثقافي وديني مذهبي استبدادي، كان سائدًا خلال قرون عديدة، خلال فترة الحكم العثماني، وفشل المشاريع النهضوية العربية ابتداء من محاولات محمد علي، وكذلك فشل رجالات التنوير مثل محمد عبده والأفغاني. . في تشكيل حركة نهضوية عربية، تنقل مجتمعنا إلى الحداثة بشكل طبيعي، وتجعل من الموروث مصدر ثراء وغناء، هذا الفشل أدى إلى دخول

---

(1) إبراهيم قويدر www.dribrahimguider.com.

المجتمع إلى بوابة الحداثة، عبر الاستعمار، النظام الإمبريالي العالمي، وما أفرزه من استعمار وتهميش وقتل وإقصاء لشعوبنا بالكامل، والذي حل بديلًا عن الاستعمار العثماني، والذي ساهم بدوره في التطور المشوه للمجتمع، وكان يمكن لأحداث الاستقلال عن الدولة العثمانية، ومن بعدها الاستعمار الأوربي أن تشكل عجينة وطنية، وتفرز قوى سياسية قادرة على تأسيس دولة وطنية حديثة، تقبل وتعترف بكل أبنائها كمشاركين على قدم المساواة في بناء الدولة والمجتمع، لو كانت الرأسمالية الوطنية غير ضعيفة وتابعة للمراكز الإمبريالية.

بالإضافة إلى تحالفها مع الإقطاع، مما جعلها عاجزة عن القيام بالدور الثوري، الذي قامت به البرجوازية الأوربية، وجعلها تنبذ العقلانية والعلمانية، وبالوقت نفسه كان على حكومات الاستقلال أن تعيد بناء الوطن من جديد، وتعمل على حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي واجهتها، بالإضافة إلى مواجهة المشاريع «الإسرائيلية» وحلفائها، بعد نكبة العرب وهزيمتهم في (1948)، وهذا كله دفع إلى تشكيل النقيض.

تشكلت حركات المقاومة الوطنية الداعية ليس إلى الاستقلال فحسب، إنما إلى اجتثاث الاحتلال والنظام الرأسمالي برمته، وحمل هذا المشروع القوى الوطنية والقومية واليسارية في كل البلدان العربية، ضمن هذا المناخ بدأت تتشكل الحياة السياسية في الأقطار العربية وكانت ثقافة إقصاء الآخر هي القاسم المشترك عند التيارات السياسية كافة.

وثقافة الإقصاء وأساليب التسلط أدت إلى انتقال الأجهزة الأمنية من كونها موظفة بنيويًّا في خدمة السياسة، إلى حالة الإشراف العام على الحراك السياسي والاجتماعي، ثم إلى ابتلاع تدريجي لهذا الحراك، مما أدى إلى طغيانها على جميع مظاهر الحياة وقتلها، فتحولت الدولة إلى دولة أمنية، تسحق كل من يتنفس دون إذنها[1].

ثقافة الإقصاء تعني عدم رؤية الآخر وعدم تقدير مواقفه وآرائه، والنظر إليه على أنه خائن وعميل ولا يملك رؤية لحلول أزمتنا، بل والنظر إليه على أنه يتاجر بقضايا أمته لمجد شخصي، مع اتهام واضح في النيات ينفيه أهل ثقافة الإقصاء والتعامل مع الآخر، وكأنه جرثومة يجب وأده واستئصاله وحدوث ما يمكن تسميته بفوبيا حديث أو منطق الآخر.

ومن سمات هذه الثقافة، أنها سريعة الغضب وتتهم الآخرين في نياتهم، وترفض أي حق جاء به الآخر؛ لأنه منها، وتشكك دومًا في أفعال ومواقف الآخر، وترى نفسها أحق وأولى بالعمل من غيرها، بل اعتبار الآخرين، تجار سياسة يبحثون عن مصالحهم الذاتية، ويهدرون المصالح العامة للأمة.

ويتجمع أفراد هذه الثقافة على شكل شلل فكرية، تتجادل انطلاقًا من ثقافة التخوين والاستعداء والتشويه، مما يعزز من مساحة الاختلاف الإقصائي، بديلًا عن اختلاف التنوع الضروري، الذي يحتاجه المجتمع

(1) علي عثمان (2006)، ثقافة إقصاء الآخر، دار التكوين، دمشق.

لإثـراء البيئـة الثقافيـة بالتبـاين في الطـرح الفكـري الـلازم لمناقشـة القضـايا الاجتماعية المختلفة... وتجمعهم بعض السمات التي قلما يخطئها متابع، ومن ذلك مثلاً[1]:

- إثـارة الجـدل والخلافـات، وتصـيد الشـبهات، وتضـخيم الأخطـاء وتجاهل الحسنات.
- تهوين العظيم وتعظيم التوافه.
- الحديث عن الأشخاص بالغمز واللمز دون الاهتمام بالأفكـار التـي تخدم الأمة.
- الهدم لا البناء، هدم ما يفعل الآخرون، لا بناء فكر يحمـي الأمـة مـن أخطارها.
- الاهتمام بالشكل على حساب المعنى.
- دغدغة مشاعر العامة لاستمالتهم.

يطرح الكاتب السعودي محمد محفوظ[2] مـدير مجلـة الكلمـة إشـكالية موضوع الآخر في المشهد السياسـي والثقـافي والحضـاري المعاصـر، والتـي دأب المفكـرون علـى تناولهـا مـع بـروز العديـد مـن التحـولات السياسـية والفكرية التي يشهدها الواقع العربي المعاصر.

---

(1) سيد يوسف (2008)، ثقافة الإقصاء السياسي، مجلة العصر، منتدى العصر.

(2) محمد محفوظ، الآخر وحقوق المواطنة، حسن الشيخ (إيلاف)، (2005).

ويرى محفوظ في كتاب (الآخر وحقوق المواطنة) أن الآخر يختلف من موقع لآخر ومن دائرة لأخرى، ونحن بحاجة إلى تصور جديد أو صياغة أخرى للحل والمعالجة، لا تلغي حق الاختلاف ولا التمايز في الأفكار والتنوع والتعددية، كما أنها لا تشرع للعزلة أيضًا، ويضع آليات التعايش المشترك، التي هي: نبذ المساجلات، صيانة حقوق الإنسان.

ويتناول الكاتب العلاقة مع الآخر ومشروع التعايش، حيث يوضح الأسباب التي تؤدي إلى التصادم والعنف في التاريخ الإنساني، والتي اختصرها الكاتب في نفي الآخر، ويقرر أن نفي الآخر هو منشأ الحروب والصراعات البشرية.

ويؤكد أن مصدر قوة المجتمعات وقوام الحضارات يتمركز في قوة النظام الداخلي للعلاقات الإنسانية، وحينما يكون النظام الداخلي يشرع للقطيعة، فإن قوة المجتمع تتراجع لغياب الترابط العميق بين أفراد المجتمع.

ويدعو الكاتب إلى نبذ ثقافة الإقصاء والكراهية، ويرى أن الحاجة ماسة اليوم إلى تفكيك هذه الثقافة، من أجل الأمن وحماية المكتسبات، ويؤكد أن ثقافة الكراهية هي منبع للتطرف والإرهاب، ويرى أن الإصلاح هو طريق الاستقرار للشعوب والدول والحضارات، ولا يمكن أن يأتي

الإصلاح من دون ثقافة نقدية، قوامها حرية الرأي والتعبير، والفاعلية الاجتماعية، والانفتاح الإيجابي[1].

ويرى د. إبراهيم أبو جابر أن «سياسة الإقصاء تعصف حاليًا بالعالمين العربي والإسلامي، وأنها مورست من قبل بأنواعها: الدينية والفكرية والسياسية والعائلية دونما استثناء، ولا تزال تمارس على مستوى الأفراد والحركات والمؤسسات»، والأهم أن بعضها نمارسه نحن في ما بيننا، وبعضها يمارسه علينا الآخر الحضاري. سياسة الإقصاء هذه مدمرة للشعوب وحركاتها الفكرية ورموزها الوطنية والقومية والدينية وهناك من يتعهدها لخدمة الغرب وداخل بلاد العرب والمسلمين؛ لأنها تبث الشكوك وتؤدي إلى الفرقة والتناحر وتفكيك قوى الأمة وإمكانية تحالف قواها الحيّة، ولا تخدم إلا أعداء الأمة والمنتفعين الذين يسيرون في ركب هؤلاء الأعداء.

لقد عانت الجماهير كثيرًا من وطأة استبداد سياسي وقمع أمني وفساد اجتماعي واقتصادي واستشرى على جميع الأوساط قهر وتهميش أو قل إقصاء للشريحة الكبرى من أبناء المجتمع، فتدار الأمور دون أن يعلم الجمهور عنها شيئًا، أو حتى يكون من حقهم الاستفسار ما يجري في بلادهم، ولقد وصلت حالة حرب ضد الجميع فلا عجب أن يتسلط أصحاب القوة (الثروة والسلطة) على الأفراد دون رادع ولا عجب أيضًا أن

(1) محمد محفوظ، مركز الراية للتنمية الفكرية بسوريا.

يتسلط الخارج علينا دون مقاومة، فنحن منغمسون في سياسة الإقصاء لأبنائنا الذين يملكون رأيًا وفكرًا نختلف معهم فيه وإن كان لخدمة الوطن، وتجد تحالفًا أجنبيًّا مع السلطة لوقف عجلة النمو والتطور والتقدم من خلال حركة المجتمع وإثرائها بالرأي والرأي الآخر واحترام إنسانية الإنسان[1].

(1) وسام فؤاد، الشريعة وترشيد الإقصاء السياسي والثقافي، يوميات

Skyrock_com. Htm wessamfauad' blog .

ثقافة الخوف

القلق والخوف هو الوقوع فريسة لأفكار معينة، والميل نحو القيام بعمل أو سلوك معين، كرد فعل لموقف أو ظرف معين حدث فعلًا، أو على وشك الحدوث، ويعتبر شيئًا طبيعيًّا في حياة الإنسان اليومية، حيث إن هذه المشاعر حسب رأي خبراء الصحة النفسية ما هي سوى صمام الأمان، والذي يقوم بتحذير الإنسان من وجود خطر ما يهدد الجسم، وضرورة تجنب هذا الخطر، من خلال سلوك أو ردود فعل معينة، وفي الواقع فإن الجسم يقوم عند حدوث مشاعر الخوف والقلق، بسلسلة من التغييرات الفيزيولوجية الداخلية، والتي من شأنها مساعدة الإنسان على التعامل مع موقف الخطر الوشيك، سواء بالهرب من الموقف، أو مواجهة الموقف.

عندما تصبح مشاعر الخوف والقلق شيئًا دائمًا في حياة الإنسان اليومية، وتزداد حدتها، إلى درجة التأثير سلبيًّا على قدرة الإنسان، على القيام بوظائفه اليومية الحياتية بصورة طبيعية وبالكفاءة المعتادة، فإن هذه المشاعر السلبية تتحول إلى مرض، أو بالأحرى مجموعة من الأمراض، تسمى مجتمعة بأمراض القلق النفسي، وهذه الأمراض متفاوتة في الشدة، وفي درجة الخطورة، التي تشكلها على صحة الإنسان الجسمية (البدنية) أو النفسية.

إن الخوف هو حالة مرضية نعيشها بكامل إرادتنا، ولكن يجب أن نتنبه إلى الأمر الآخر في الخوف، ألا وهو الخوف المتوارث، أو بمعنى أدق

ثقافة الخوف، التي تكثر في المجتمعات المغلقة، وغير المتحررة، أو تندرج تحت نظام معين من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، وليس هناك أي شعب في الوجود إلا وتأثر بهذه الظاهرة أو المرض، وتختلف هذه الظواهر من منطقة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر، وذلك حسب مكان الإقامة، وزمانه، وأدوات أخرى، هي التي تسبب هذه الظاهرة المرضية المتوارثة.[1]

تتحدد ثقافة الخوف بمثابتها نتاجًا مكثفًا مزدوجًا للطغيان: طغيان السلطة الاستبدادية، وطغيان الموروث الثقافي، عندها يدخل المجتمع نفق الرعب، القوة، البطش، وكلما ازداد البطش استفحالًا ازدادت النفوس خواء وفقرًا، وتؤثر ثقافة الخوف على الإنسان الفرد أو الجماعات.

ولثقافة الخوف أسباب عديدة: الموروث الثقافي، والنظام التربوي والأبوي، والرقابة الرسمية، التي تجسدها ممارسات الأجهزة الرقابية لسلطة الدولة في مجالاتها المتعددة، إضافة إلى الرقابة غير الرسمية، وأغلبها رقابة دينية تمارسها مجموعات متنوعة تدّعي حرصها على القيم الدينية، وكلها لا تخلو من التعصب والتطرف، وفي هذا السياق، تكمن مشكلة المثقف العربي في الموقف الصعب ما بين قول كلمة الحق، وهذه هي مهمته الأساسية، وبين الخوف من انتقام السلطات، وتعتبر الثقافة التنويرية أحد أهم أشكال المقاومة الحضارية لتجاوز الواقع الذي أفرزته ثقافة الخوف، وبالتالي تخطّي العوائق للمضي قدمًا نحو المستقبل، تحقيقًا للذات في إطار الإنسانية، ويجب أن ندرك جميعًا أن التغيير في العالم العربي

يبـدأ مـن سـيادة دولـة الحـق والقـانون، وأنّ أحـدًا لـيس فـوق القـانون الديمقراطي، ودون ذلك سنظل نسير من سيئ إلى أسوأ.

إنّ ثقافة الخوف، بكل تجلياتها، تعاني اليوم حالة انكشاف واضطراب، ربما من جراء احتدام تنافس الأوصياء على السيادة والسيطرة، أو لعل السبب يعود إلى ارتقاء وعي البشر، وقد صاروا يتحسسون جيدًا وزنهم، ويستشعرون الدوافع الحقيقية وحسابات المصالح الضيقة، التي تقف وراء دعوات احتكار القيم والوصاية عليها، الأمر الذي يحث الغيارى على أوطانهم ومستقبل مجتمعاتهم لإعلان حملة مقاومة جدية لآليات الخضوع، أيًّا كانت أشكالها، نحو تعميم ثقافة تحررية يكون الإنسان مركزها وغايتها، وخير ما يخلخل بنيان ثقافة الخوف وينصر ثقافة الحريات، واحترام التنوع والتعددية والرأي الآخر، تقدم ظواهر دالة على الرشد الاجتماعي، مثل العقلانية والاعتدال، وتحاشي الغلو والتعصب والتطرف .

ومن المؤكد أن لا سبيل إلى التخلص من الخوف إلا بإحياء مؤسسات المجتمع المدني وما تقتضيه من: التعددية الفكرية والسياسية، وحقوق الإنسان، ودولة الحق والقانون، والديمقراطية، وإلا فإنّ الخوف سيعشش ليس في خلايا المجتمع فحسب، بل وفي خلايا الإنسان، الذي تضمحل إنسانيته إلى المستوى الرعاعي.[2]

تتميز المجتمعات الإنسانية بميزات ثقافية وسياسية واقتصادية وتاريخية، ولها أنماط معينة في الإنتاج المادي والثقافي، قد تتشابه أو تختلف

باختلاف النظام السياسي والاجتماعي القائم، كما تتميز نظمها السياسية بإنتاج أنماط معينة من الخوف، إذ يمتلك النظام السياسي -بحسب الفيلسوف ميشال فوكو- مكونات تدبير الخوف والرعب، وتوزيعهما بنسب ووتائر فارقية، ما يسمح بالقول إن النظم السياسية والاجتماعية تنتج أنماطًا معينة من الخوف، وبما يشبه إلى حدّ بعيد أنماط إنتاجها للخيرات وللحقائق.

ويفسّر الخوف بوصفه استجابة طبيعية للنزعة الحيوانية للسيطرة، بمعنى أن الخوف يوجد حيث توجد إرادة السيطرة والاستحواذ، وبالتالي هو نتاج لعلاقات القوة في المجتمع الإنساني، ونخص بالذكر الخوف السياسي، لكن ظاهرة الخوف ترتبط بمدى التطور الاجتماعي، بحيث يمكن للإنسان التخلص من الخوف، بالتخلص من رواسب اللاوعي الجماعي الإنساني، وذلك عبر إقامة مجتمع أكثر إنسانية، وإنصافًا للبشر، ومتحكم بقوى الطبيعة، ولا شك في أن أي إنسان يمتلك في داخله قدرًا معينًا من محركات الخوف ومحرضاته، كالخوف من الموت، والخوف من اللامتوقع، أو الخوف من المجهول...إلخ، وتتجسد مركباته إلى مشاعر تختلج داخل النفس الإنسانية، وبازديادها تتراجع مشاعر الجرأة والشجاعة والحكمة والحبّ والودّ وسواها.

ويغدو الخوف ثقافة في المجتمع، عندما تتضافر جملة من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، ففي بعض البلدان، حيث القمع والاستبداد يبلغان درجات قصوى، ينتشر الخوف، ينتشر بشكل

عـامودي وأفقـي في المجتمـع، وتعمـم ثقافتـه ومظـاهره علـى الأفـراد والجماعات، بحيث يُنتج بوصفه مكونًا أساسيًّا من مكونات الحياة، وثقافة سائدة، فالخوف يبدأ مع الطفل، ثم يترافق من الأب والأخ الأكبر، مع الخوف من معلم المدرسة وعقاب مديرها، ومن رجل الأمن أو الشرطي، أو حتى من المخبرين والأزلام، وينمو الخوف من التقاليد الاجتماعية والدينية، خصوصًا الخوف من التكفير، ومن عذاب الآخرة ونار جهنم، والخوف من المجتمع ولسانه وعيونه، ليتكلل مع الخوف من السلطة، والنظام السياسي الحاكم.

وتتحدد ثقافة الخوف بوصفها منتجًا من منتجات الاستبداد والقمع المرافقين للسلطة بوجهيها، السلطة السياسية والسلطة الدينية، إذ يدخل الفرد والمجتمع في دوامة من الرعب، يحدوها الخوف من القوة ومن البطش والملاحقة والإقصاء، ويغدو الفرد فاقد الكرامة والشخصية أمام رعب القوة، فلا يشعر إلا بالخواء والدمامة والفقر، ومن الطبيعي أنه حين تنعدم الحريات أو لنقل حين تسلب الحريات، فلا مفر من سيادة العتمة والظلام، التي تكثر في ظلهما الإشاعات والخرافات والأقاويل، ويتناسل الوشاة والمخبرون والدساسون، ومنتجو المؤامرات ومسوقوها.

ويسود جوّ من الشك والريبة من القريب والبعيد في ظل سلطة الاستبداد، ولا يتوقف الأمر على عامة الناس، بل يطول الحاكم ذاته، إذ يتحول إلى أسير لإرادة القوة، التي يظن أنها تحميه، فيفقد الثقة بجميع من حوله، حتى أقرب المقربين منه، لذلك يتحولون جملة من المخبرين

بعضهم على بعض، وكما أشار عدد من الفلاسفة والحكماء، فإن قوة الحاكم المستبد تغدو نتاجًا لضعفه، ولشهواته، ورغباته، وميوله العدوانية في الهيمنة والسيطرة.

ولا شك أن انتشار ثقافة الخوف، وضعف ثقافة الحريات، وثقافة الحقوق، ينعكس كله بشكل مباشر على تحديد التخوم الأخلاقية والقانونية للنقد والرفض والمساءلة، فنحن نعيش في مجتمع يتداخل فيه الديني والدنيوي، كانعكاس مباشر لتأميم السلطة التنفيذية، ومصادرتها لغيرها من سلطات الدولة، ومحاولة أطراف دينية متعددة، فرض حال من الاستعلاء في الخطاب والقانون على الدنيوي والمعيشي.

إن من أبرز الأسباب التي تؤسس لثقافة الخوف سلطة خطاب على خطاب بواسطة الاستقواء، والنفوذ، والهيمنة بأي حال من الأحوال، وإن الخطاب الإعلامي في قنواته المقروءة، والمسموعة، والمرئية، يأتي في مقدمة الخطابات، التي تروّج لتسويق ثقافة الخوف.

إن الخوف على أي مستوى من مستوياته، وفي أي نوع من أنواعه ذات العلاقة بالثقافة، يولد صورًا من الرهبة والحذر، ومنهما يولد العقم الثقافي، وإذا نظرنا إلى الثقافة المعرفية بوصفها المحرِّك لغيرها من الفعل العملي، فإن تفعيلها تفعيلًا متطورًا سيحقق وظيفتها، ومهماتها في ما له علاقة بمصالح الشعب، والأمة، فمن الأمن الثقافي تنبثق صور الأمن الاجتماعي، والسياسي الوطني، والغذائي، وغير ذلك من صور الأمن، التي يجتمع الناس في البحث عنها.

فإذا لم يكن الخلل في مستوى الثقافة النوعي، فإن الخلل يكمن في منتجي ثقافة الخوف، من حيث وسائل الإنتاج وطرائقه، وهذا وثيق الصلة بمستوى الوعي الذاتي الثقافي، الذي إذا صلح صلحت الثقافة، واستقامت رؤيتها للكون بكل مكوناته.[3]

نتاج ثقافة الخوف إنسان خائف، والإنسان الخائف هو إنسان سلبي، لا يفكّر، ولا يفعل إلا إذا أذن له بذلك، وقلّما يؤذن له، يفكّرون بالنيابة عنه، ويفعلون بالنيابة عنه، وليس أمامه إلا إحناء الرأس، والخضوع، وإلا عدّ عاصيًا فاسقًا مارقًا، والإنسان الخائف تحاصره المحظورات الكثيرة، فتكبته وتسكته وتلجمه وتغتاله، وتجعله يدمّر نفسه، ويدمّر غيره، ولا يجد طريقًا للاحتجاج إلا في اللاشعور.

الإنسان الخائف لا يستطيع أن يختار حياته؛ لأنها محدّدة سلفًا بأطر ضيّقة، يعدّ الخروج عنها انتحارًا اجتماعيًّا، والإنسان الخائف إنسان خائر العزم، لا يؤمن بنفسه؛ لأنّه يعتقد أن مواهبه ستذهب سدى، في ظلّ مجتمع لا يقدّرها، بل ويرتاب منها، وثقافة الخوف كفيلة بقتل أيّ شكل من أشكال الابتكار والإبداع، أو على الأقلّ حصرها في أضيق نطاق ممكن؛ لأنّ الإبداع لا يكون إبداعًا إلا إذا كانت فيه جرأة، والجرأة تثير في نفس من تربّى على الخوف أسئلة عديدة.[4]

وعلى المستوى الفردي بمقدار ما تزداد مساحة الخوف في الداخل الإنساني، كلما ضاقت مساحة الشعور بالحب، والشجاعة، والإحساس بالكرامة، والتوادّ والرحمة، حيث يلعب الموت دورًا محوريًّا، إذ يتم من

خلاله –حسب هوبز– الفرار من التساوي أمامه، إلى تمايز يؤمن البطولة والشهادة والخلود، وهنا يتدخل الشأن الإلهي، لتأسيس قانونيته القائمة على الأمر والطاعة.

أما على المستوى الاجتماعي/ السياسي، فتحدد ثقافة الخوف، وفق معيار درجة ديمقراطية الحياة الاجتماعية والسياسية، أو الهيمنة الشمولية الطغيانية، وتتحد ثقافة الخوف، بمثابتها نتاجًا مكثفًا مزدوجًا للطغيان، طغيان السلطة الاستبدادية وطغيان ثقافة الأغلبية، عندها يدخل المجتمع والسلطة معًا نفق الرعب، القوة، البطش، وكلما ازداد البطش استفحالًا، ازدادت النفوس خواء وفقرًا، فقيرة تلك النفوس، التي تنظر إلى داخلها فلا تجد إلا الخواء، فتملؤها بالبطش والعنف، وغياب دولة الحق والقانون، وشخصنة السلطة هي السمة المميزة للنظم المتخلفة، وتكون ثقافة الخوف، هي الثقافة الجامعة، والموحدة للحاكم والمحكوم، حيث الخوف يعشش في صدور الحاكمين والمحكومين على السواء، المجتمع يخاف السلطة، والسلطة تخاف المجتمع، وكلهم في فلك الرعب يسبحون.

تحدد عناصر بنية ثقافة الخوف، بأنها البنية المؤسسة على التفكير المزدوج، فما هي هذه العناصر؟ إنها: أن تعرف وأن لا تعرف، أن تعي حقيقة صادقة كل الصدق، وترى بدلًا منها كذبات موضوعة بعناية، وأن يكون لديك في نفس اللحظة وجهتا نظر متباينتان، وأنت تعتقد وتؤمن فيهما كليهما، وأن تستخدم المنطق ضد المنطق، وأن تنكر الفناء بينما تدعيه، وأن

تعتقد بأن الديمقراطية غير ممكنة، وفي الوقت نفسه تنادي بأن الحزب الحاكم هو حامٍ للديمقراطية.

الخوف لا يقتل الأنا الأخلاقية في الفرد فحسب، بل يقتل الأنا القانونية في داخله، عندما يكون جوهر العلاقات الحاكمة للنظام المستبد، هو الاعتباطية المقيدة على حد تعبير حنة آرندت، فإن كل شيء يغدو ممكنًا في ظل دولة، جوهر نظامها الاستبدادي غياب القوانين، ولأنها اعتباطية، تتيح بعض الحرية، حتى ولو كانت فوضوية، ففي دولة غياب القوانين ليس كل شيء ممكنًا فحسب، بل أيضًا يغدو كل شيء مستحيلًا، وعلاقة الممكن بالمستحيل، تحددها درجة القرب أو البعد من مركز القمع/ الخوف. .

لا سبيل إلى تصفية الخوف إلا بإحياء مؤسسات المجتمع المدني، وما يشتق عن هذا المفهوم العام، (التعددية، حقوق الإنسان، دولة الحق والقانون، الديمقراطية)، وإلا فإن القمع/ الخوف، سيعشش ليس في خلايا المجتمع فحسب، بل وفي خلايا الإنسان، الذي تضمحل إنسانيته.[5]

ثقافة الخوف، بما هي فعل ثقافي، تهيئ الشروط والظروف لنماء الاستعداد لتقبل الخوف لدى المتلقي، فهي تستهدف فيه شل إرادته، وإعادة تكوينه إنسانًا سلبيًّا محاطًا بشبكة عنكبوتية من النواهي والمحرمات، هذا النوع من الثقافة في مجتمعاتنا الشرقية للأسف الشديد مزدهر إلى حد كبير، وهو يشمل طيفًا واسعًا من المنتجات الثقافية، بدءًا من أبسطها، الشفاهي منها، إلى أعقدها وأكثرها تأثيرًا، الثقافة الدينية والسياسية.

إن الثقافة التي تنمي في الشخصية الاستعداد للطاعة، والتقبل، هي ثقافة تسلطية بامتياز، إنها ثقافة للخوف، وبما هي كذلك فهي ثقافة تقتل الأسئلة، تقتل القدرة على التساؤل، تعيد إنتاج الشخصية كموضوع للفعل، بعد أن تقتل فيه إرادة الفعل، تتفاقم هذه الوضعية كثيرًا في المجتمعات المتخلفة، وخصوصًا في ظل الأنظمة السياسية المستبدة، والثقافة المنتجَة في ظروف الخوف، فهي نوعان:

نوع يمكن تسميته اصطلاحًا بثقافة المعارضة أو التمرد، والنوع الثاني هو صورة عن ثقافة الخوف متمثلة، ومعيدة إنتاجها على شاكلتها، لكن دون إكراه ظاهري، وتنشط ثقافة المعارضة على الفجوات التي لا تستطيع السلطة المستبدة أن تسدها، ويغلب عليها التقية والتورية (للجدران آذان، أو العين بصيرة واليد قصيرة)، أما الثقافة المعيدة لإنتاج الخوف، في حركتها العكسية، فهي تعيش دومًا هاجس الرقيب الداخلي، بعد أن احتل موقعه المحصن في الداخل، مع أنه عند مستوى معين من تأصيل الخوف على نطاق الكل الاجتماعي، بفعل الرقيب الخارجي، يعمل على التستر خلف ركام هائل من اليقينيات اللفظية، أو المصالح، حتى يبدو وكأنه غير حاضر أو موجود، وإن المنتج الثقافي في هذه الحالة، يفيض عن اقتناع منتجه، ويغلب على هذا النوع من الثقافة، التي تسمى عادة بثقافة السلطة، الكذب، والديماغوجيا، والمبالغة، والمنطق التبريري... إلخ.

وما أسهل أن ينقلب منتجو هذا النوع من الثقافة على منتجاتهم الثقافية ذاتها، بعد رحيل سلطة الخوف السياسية، ويصطلح عليهم في حالتهم هذه

مصطلح «المرتدون» أو «المنشقون»، وهم في ولائهم السابق، أو في ارتدادهم عليه، لا يبدلون طبيعتهم التي شكلها الخوف، فهم في كلتا الحالتين انتهازيون، وفي ظل السلطة المستبدة، يتحول الأمن (بمعناه الضيق) إلى صنم، يعود في دورة تأثيره العكسي، بعد أن يكون قد حاز على درجة عالية من الاغتراب، والاستقلالية عن الأجهزة المولدة له، والمتابعة لشأنه (أي تحوله إلى رقيب داخلي)، إلى التحكم بنمط الخطاب، وبالسلوك الفردي، والجماعي، وبالفعل لا يحتاج المرء إلى جهد كبير، ليكتشف مدى حضور وفعالية الرقيب الأمني الخارجي، أو شقيقه التوأم الرقيب الداخلي، في جميع مجالات حياتنا، يزرع الخوف فينا، يشل إرادتنا.[6]

المصادر

1. عكو، مسعود، ثقافة الخوف، http:hembredband.net

2. كوكش، عمر (2006)، هل توحد ثقافة الخوف مجتمعنا العربي؟

Voltair.net.org

3. الحارثي، محمد بن مريسي (2006)، ثقافة الخوف، جريدة الرياض، 4 مايو (2006)، العدد 13828.

4. المطوي، أبو معاذ (2008)، من تحت الرماد تنهض العنقاء، ثقافة الخوف. http.underash. blogspot.com

5. عيد، عبد الرزاق (2007)، ثقافة الخوف، شبكة العلمانيين العرب،

http. www. 3almani.org

6. خدام، منذر (2006)، ثقافة الخوف، الحوار المتمدن، العدد 1486، (3/ 11/ 2006).

الرأسمالية المتوحشة وإنتاج ثقافة الخوف

إن غزو العراق واحتلاله قد زاد من حجم الخوف الذي يلامس حياتنا، على مستوى الفرد والجماعة وصولًا إلى الأمة بأسرها، مما نشاهده من حجم البطش الذي يمارس في فلسطين والعراق، ومن أشكال القمع والبطش والتجويع، التي شردت الشعوب، وجعلت من الخوف جزءًا من مخزونها الثقافي.

إن الولايات المتحدة رائدة الرأسمالية المتوحشة تملك أقوى جيش في العالم، لذا فإن الخطر الأيديولوجي الرئيس يأتي من الأفكار اليمينية، التي يعتنقها ممن يطلق عليهم في الحزب الجمهوري بالمسيحية المتصهينة/ المحافظون الجدد، وهو ما عبرت عنه الإدارة الأميركية ولاية بوش الابن الأولى والثانية، وخاصة بعد أحداث سبتمبر (2001)، وشعارات من ليس معنا فهو ضدنا، ونزع أسلحة الدمار الشامل، والحرب على الإرهاب، والتي كلها هرطقات سياسية، نشرت الرعب والخوف في قلوب العالم عامة، وأبناء الوطن العربي والعالم الإسلامي خاصة.

إنه لمن الجدير بالذكر أن نعمد على تحديد مفهوم مصطلحات مثل الثقافة والخوف وثقافة الخوف في ما يلي:

الثقافة: «مجموعة معقدة تشمل المفاهيم والمعارف والمعتقدات والفنون والقوانين والأخلاق والأعراف، وجميع القدرات الأخرى، والعادات التي يكتسبها الإنسان، بوصفة عضوًا في المجتمع». إدوارد برينت تيلور (1871).

الخوف: «أداة يستشعر الفرد عبرها المعاناة في القلب، ويستدمجها في نفسه، ويستوعبها، إنه قناة الطاقة التي تسلك عبرها الطريق إلى القلب البشري، يبقى أن تأثيرها لا يقع ظرفيًّا، ولكنها متراكمة في الخاصية، فهي لا تتم لمرة واحدة أو دفعة واحدة، ولكنها تتكشف بصورة ثابتة». ثيودور أدورنو.

ثقافة الخوف: «مصطلح مقترح في العديد من الطروحات السوسيولوجية، التي تجادل بأن مشاعر الخوف والقلق تهيمن في الخطابات والعلاقات العامة المعاصرة، وتتغير بحسب علاقة أحدهما بالآخر، كأفراد وكجماعات اجتماعية، وهي ظاهرة جديدة بدلالات شديدة الأهمية والخطورة».

تعتمد الرأسمالية على مجتمع المباحث والمخابرات، ومجتمع لوبيات الحرب وباعة الأسلحة، وهذه تفرض ثقافة خوف ملتهب، تسعى لإشباع مسامات البنى الاجتماعية، والإنسان الخائف والقلق يجد نفسه لا يشعر بالأمان، وإجمالًا يفقد صوابه، ويتكئ نجاح الخوف في العالم ويسعى للهيمنة على المجتمعات والشعوب.

الرأسمالية المتوحشة بثوب العولمة الأميركية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الإعلام، وقد أصبحت قنوات البث الإعلامي وسيلة من وسائل نشر الثقافة، التي تبث الرعب والخوف في نفس الإنسان المتلقي لثقافة الخوف هذه، وأصبحت قناة من قنوات إنتاج الخوف، وأصبح الخوف مفتاحًا لتكنولوجيا الرأسمالية المتوحشة، المنطلقة من واشنطن، وإدارة البيت الأبيض، وقد أصبح لوسائل الإعلام الأميركية دور بارز في نشر ثقافة الخوف، وتغذية مصادرها، من خلال تقديم أحداث تجمع بين الرعب والخوف والإثارة، وتفشي الرعب والإثارة لدى الجمهور، ويمنع المؤسسات والمواطنين من تقبل فكرة تصحيح أي أخطاء ذات علاقة بالخوف، ويؤكد الأميركيون أنهم يعيشون في ظروف استثنائية عصيبة، وفي استطلاعات الرأي ظهر أن حوالي 75٪ من الأميركيين يشعرون بمخاوف غامضة لا يعرفون مصدرها، وتشير الدراسات إلى أن النخبة الحاكمة تتآمر على الشعب الأميركي بهدف تعظيم مصالحها الخاصة، وهو ما جرى في أعقاب أحداث سبتمبر، وغزو أفغانستان ومزاعم امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وقد استطاعت قيادة الرأسمالية المتوحشة، من خلال العمل على الترويج لثقافة الخوف من خداع الشعب الأميركي، في الترويج لمبررات الغزو واحتلال العراق، من خلال قنوات الإعلام وإنتاج أفلام الرعب والمعارك الهائلة، ومن خلال الدور الذي لعبه قادة الرأسمالية في واشنطن ولندن.

إن المجتمع العراقي الذي ابتلي بالغزو والاحتلال، قد دبت في أوصاله ثقافة الخوف، التي زرعها المحتل الإمبريالي الأميركي، وتماهى معه في ممارسات الميليشيات الطائفية، التي قدمت على ظهر الدبابات الأميركية.

إن صناعة الخوف تستبطن صناعة الهيمنة، فعندما تسن الإدارة الأميركية تشريعات ضد الإرهاب، تهدف من ورائها زرع مشاعر الخوف، من أجل أن تبرر تضييق مجالات الحريات العامة، وتوسيع مجالات الهيمنة، هيمنة الدولة على المجتمع، كما أن مسلسل القتل والإجرام من قبل القوات الأميركية، وشركات الأمن والحماية، وأساليب التعذيب اللاإنسانية في السجون والمعتقلات الأميركية على أرض العراق، وممارسة القتل والاغتيال ومسلسلات التهجير الواسعة في العراق، باتت كلها لا تتنافى مع ثقافة الحرية والديمقراطية، التي تدعيها الولايات المتحدة الأميركية.

إن الصمت المريب إزاء عدوان خارجي يقلل من مصداقية الذين يمارسون دور الضحية؛ لأنهم يغطون في هزائمهم الداخلية، بسبب ما تشربوه من ثقافة الخوف، التي ثقفهم عليها المحتل مسبقًا، في الإعداد لجريمة الغزو والاحتلال، وإن ما يتلبسهم من رعب وخوف داخلي من الجماهير، ما يدفعهم إلى التشبث ببقاء الاحتلال لحماية خوفهم، ولمزيد من تعميق ثقافة الخوف من قبل المحتل لنفوسهم، والتي تمارس القمع والقتل في صفوف المواطنين، تعبيرًا عما يعشش في نفوسهم المرعوبة.

إن ثقافة الخوف قد أصابت جنود الاحتلال نفسه بسبب عنفوان المقاومة، وكذلك هي كامنة في نفوس أزلام السلطة، الذبن جاؤوا مع الاحتلال، خوفًا من انتقام الجماهير، إلى جانب أنها أصابت قطاعات واسعة من الشعب، أدت إلى التهجير القسري داخل العراق وخارجه وهو ما يتنافى مع كل الشعارات التي ترفعها الإدارة الأميركية في ما يتعلق بالديمقراطية والعمل على نشرها؛ لأن هذه مع تغلغل ثقافة الخوف لا يمكن أن تنبت في الأرض، ولا أن تورق حياة أمن واستقرار، ولقد تعدت ثقافة الخوف حدود النزاع، فقد أصابت العالم بأكمله، من رعونة الممارسات الأميركية، وبشكل خاص ما أصاب النظام العربي الرسمي، من رعب وخوف من سطوة هذا الطاغوت المجرم، الذي يمثل قمة البشاعة في السلوك الإنساني، وهو ما أعطى وصفًا حقيقيًّا للرأسمالية المتوحشة وسلاحها الذي تشهره في وجه الإنسانية، وتغرسه في نفوس البشر وعقولهم، مما يتعلق بثقافة الخوف.

يقول جون ديوي في كتابه «الحرية والثقافة» إن التهديد الخطير الذي يواجه ديمقراطيتنا، ليس هو وجود دولة تسلطية شمولية خارجية، بل إن الوجود داخل مواقفنا الشخصية، وداخل مؤسساتنا، وهو الذي يعطي انتصارًا للسلطة الخارجية، والنظام والهيمنة والاعتماد على الزعيم، ومن ثم فإن ساحة المعركة هنا داخل نفوسنا ومؤسساتنا (ص15)، ويرصد فروم في بداية كتابه، حيث إن مبادئ الليبرالية الاقتصادية والديمقراطية السياسية،

والاعتناق الديني الذاتي، والنزعة الفردية في الحياة الشخصية، التي عبرت عن الشوق للحرية، ويبدو في الوقت نفسه أنها تقرب البشرية أكثر من تحقق الحرية، سرعان ما ظهرت أنظمة جديدة تتنكر لكل شيء، يؤمن البشر بأنهم كسبوه خلال قرون الصراع، وذلك لأن جوهر هذه الأنظمة الجديدة، التي تتولى قيادة الحياة الاجتماعية والشخصية الكلية للإنسان، هو خضوع الكل ما عدا حفنة من الناس تتمتع بسلطة لا يتحكمون فيها، (ص14).

هذا الذي أشرنا إليه يعني أن بلاء الرأسمالية من داخلها، وشرورها تكمن في الجوهر الذي تقوم عليه، وهو جوهر الاستغلال والهيمنة والسيطرة بكل الوسائل، وأن كل ما تقوم به الإدارة الأميركية من داخل أروقة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، أو من خارجها، ومن خلال قرارات الإدارة وسياسة البنتاجون ووزارة الخارجية وتشريعات الكونجرس، هو ما تسعى إليه من إخضاع العالم كله، من أجل مصالح حفنة من الناس، الذين يتحكمون في امتلاك الرأسمال المتراكم بين أيديهم، ومن خلال اللوبيات التي توجه القرارات السياسية للإدارة الأميركية، وما ثقافة الخوف إلا وجه من أوجه هذه السياسة المتبعة، لتحقيق الأهداف التي تسعى إليها.

الرأسمالية المتوحشة تتعمد صنع الكوارث وإشعال الحرائق، في جميع أطراف الكرة الأرضية، حتى تجني الأرباح الطائلة من ورائها، ولهذا تجدها وراء كل صراع عسكري، تدعم وتشجع النزاعات الدولية والإقليمية، لا يهمها ما تخلفه هذه الحروب والنزاعات على الإنسان ومنجزاته

الحضارية، فالذي يعنيها الربح، من خلال ما تقدمه من تقنيات عسكرية وأسلحة دمار، يصاحب ذلك ما تبثه من ثقافة، باتجاه إقناع الطرفين المتنازعين، كل بأحقيته في ديمومة الصراع حتى يحقق أهدافه، وما هو إلا أداة ووسيلة من أدوات الرأسمالية المتوحشة، التي غرست في ذاته ثقافة الخوف من الآخر.

إن الرأسمالية مستعدة لابتلاع العالم كله في القرن الحادي والعشرين، وهي تولد كثيرًا من عدم الأمان، فهي دائمًا غير مستقرة، وتنزع إلى الأزمات وإلى اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية، بين العالم المتقدم ودول العالم الثالث؛ لأنها قائمة على الاستغلال ونهب الثروات للشعوب الفقيرة، تحت ستار المساعدة في التنمية والتقدم، ونشر الثقافة الإنسانية المزعومة، من حقوق الطفل والمرأة وثقافة السلام. . . إلخ، وكلها من أجل التدخل في شؤون الدول وبث ثقافتها، التي ترتكز على خلق حالة الإحباط وعدم القدرة والثقة بالنفس من إمكانية تبني ثقافة المقاومة والممانعة، لمحاولات السلب والقهر، التي تهدف الرأسمالية للوصول إليها، من أجل السيطرة والهيمنة، مغلفة بثقافة الخوف من المواجهة، ونتائجها المدمرة على الأمم والشعوب، التي تتبنى طريق المقاومة، وتنزع لتحصين مجتمعها بثقافة المواجهة، بعيدًا عن ثقافة الخوف والهيمنة.

إن الرأسمالية المتوحشة بثوب العولمة الأميركية، تسعى للسيطرة على العالم، من خلال القتل والتدمير، وبث ثقافة الرعب والخوف في نفوس

شعوب الأرض ومجتمعاتها، وهي تعمل في سبيل ذلك باتجاهين داخلي في صفوف مجتمعاتها، حتى يسهل عليها اتخاذ القرارات دون معارضة، التي تدفع بها لتحقيق أهدافها، وخارجي حتى توقع الرعب والخوف في الدول والمجتمعات المستهدفة بشكل خاص، حتى يتم تعميم ثقافة الخوف، بديلًا عن ثقافة الممانعة والمواجهة، إلى جانب أنها لا تتورع عن تخويف حتى حلفائها، وأقرب الدول والمنظمات ذات العلاقة بها، وهي تستخدم كل ما توصلت إليه من تقدم لفرض الثقافة الأميركية، التي لا تقبل مبدأ المشاركة، بل تفرض ثقافة الهيمنة، من خلال شعار بوش الشهير من ليس معنا فهو ضدنا، وقد أدت إلى فوضى عالمية، هزت مشاعر الكون كله، من خلال اصطلاحاتها وهرطقاتها السياسية والثقافية، مثل شعار الفوضى الخلاقة، التي تعني الحرية في تدمير كل شيء، له علاقة ببنية المجتمع وأمنه واستقراره، وتمزيق النسيج الاجتماعي، والدوس على كل قيم الإنسان ومعتقداته، وتعميم حالة الضياع لدى أفراد المجتمع، كل ذلك من أجل أن يصل المجتمع إلى حالة الإنهاك والتعب، ومن ثم التسليم بما تمليه عليه قيادة الرأسمالية المتوحشة، من شروط حياة قاسية ومهينة، لا تليق بحياة إنسان، لأنه مجرد آلة تسخر لخدمة الأهداف الإمبريالية الجديدة، والعولمة تناهض كل قيم الحرية والعدالة، وتدوس على المعايير الوطنية والقومية لأمم الأرض وشعوبها.

إن ثقافة الخوف خطيرة جدًّا على الإنسان، وعليه مقاومتها؛ لأنها تجرده من إنسانيته، ومن كرامته، وبالتالي تقضي على كل منجزاته، التي ناضل من أجلها لعقود طويلة جدًّا وعليه أن يستبدلها بثقافة الممانعة والمقاومة، التي تعيد له اعتباره كإنسان، وشعوره الذاتي الوطني، يجد فيه ما يستحق التضحية من أجله.

ونحن في الوطن العربي كأمة مستهدفة بإنسانها وثرواتها وموقعها، علينا أن نحصن أنفسنا من ثقافة الخوف، التي تبدأ بالإنسان نفسه وبالجماعات والنظم السياسية فالأمة باسرها؛ لأن لا بديل أمامنا إلا أن نطرد هذه الثقافة التي تهدف سحقنا والقضاء علينا، ونستبدلها بثقافة الممانعة والمقاومة، فمخزوننا الثقافي والديني يساعدنا على النجاح في المقاومة، وهذا المخزون فيه من الأصالة الكثير، يملك القدرة على إزاحة ثقافة الخوف من بين صفوفنا، وعلى جميع مؤسساتنا الرسمية ومنظمات المجتمع المدني، أن تسعى جاهدة في أداء دورها، في اتجاه طرد ثقافة الخوف من نفوسنا، وتعزيز ثقافة الممانعة والمقاومة، لإحلالها مكان هذه الثقافة الهجينة والطارئة علينا، والتي توطنت في نفوس الكثيرين منا، كما علينا أن نسعى لغربلة ما لدينا من ثقافة، تخللها الكثير من المقولات الداعية إلى الاستسلام والخنوع، ورثناها في ظل عهود سابقة، كانت الأمة فيها تغط في سبات عميق، بسبب هيمنة الآخرين عليها.

نعم ثقافة الخوف خطيرة وخطيرة جدًّا، لا بدَّ من النضال للخلاص منها، حتى نستطيع أن نزيل الخوف الذي لامس حياتنا، أفرادًا وجماعات، وصولًا إلى الأمة بأسرها.

ثقافة الإرهاب

الإرهاب ليس مفهومًا جديدًا، فإن أول قنبلة أنفاق انفجرت في لندن زرعها عضو إحدى الجمعيات الأيرلندية عام (1883)، وأول هجوم انتحاري كان على رئيس وزراء روسيا عام (1906)، وأول شحنة ديناميت وُضعت في طائرة كان عام (1907) من قبل المتطرف بوريس سافنكوف.

أما انفجار أول سيارة مفخخة فقد كان في وول ستريت في نيويورك عام (1920)، وبوصفه محاضرًا في شؤون الإرهاب، نشر البروفسور ميسروف في الثمانينيات من القرن التاسع عشر في صحيفة «دبلن» واصفًا الإرهاب بأنه «أقوى من مليون خطاب».

على خلاف ما يمكن أن يقوله بعض السياسيين والخبراء، فإن الإرهاب ليس أيديولوجيًّا أو عقيدة أو سياسة أو حالة سيكولوجية، بل هو سلاح، وسلاح قديم قِدَم الحرب نفسها، هذا ما يعتقده مؤلف كتاب «الدم والغضب: التاريخ الثقافي للإرهاب» مايكل بورليه، الذي يؤكد فيه على أن أغلب كتب التاريخ مليئة بصور العنف، فمن الفايكنغ حتى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، كان إرهاب العدو يشكل جزءًا لا يتجزأ من تحقيق النصر.

يستهل مايكل بورليه موضوعه في تاريخ ثقافة الإرهاب بالهجمات الأيرلندية في بريطانيا منتصف القرن التاسع عشر، مباشرة في أعقاب

اكتشاف السويدي ألفريد نوبل إمكانية الاحتفاظ بالنتروغليسرين كعجينة. كانت هذه العجينة «الديناميت»، أول تقدم في عالم تكنولوجيا الإرهاب، التي بمقدورها أن توفّر قتلًا جماعيًّا لأولئك الذين لا يمتلكون جيشًا نظاميًّا، ويرى بورليه أن تأثير الإرهاب قد عزّزته وهوّلت منه وسائل الإعلام؛ لأن جوهر الإرهاب لا يكمن فقط في أعداد الضحايا التي يتسبب فيها، وإنما في حجم الضربة والضجة التي يحدثها من حوله.

إنه يعرّف الإرهاب على أنه «تكتيك يُستخدم في الأساس من قِبَل أشخاص غير معروفين لخلق مناخ من الخوف والرهبة، تعويضًا عن السلطة الشرعية السياسية التي لا يمتلكونها»، لكن مفردة «الشرعية» تتطلب السؤال عن من ذا الذي يشرّع التكتيك أو الأسلوب؟ ضمن هذا السياق يعتبر الأميركيون والبريطانيون القصف من أجل إحداث الصدمة والرهبة على الأهداف المدنية في بغداد وبلغراد مسألة شرعية، ولكن ماذا عن ضحايا هاتين المدينتين؟[1].

مع بداية مجيء الأوربيين عام (1607) ونزولهم في فرجينيا وفي نيويورك، مارسوا الإرهاب ضد المجتمعات القائمة هناك، حيث يذكر المؤرخون أنهم قضوا على قرابة الـ80 مليون إنسان؛ لأنهم تبنوا ثقافة

---

(1) كامل، نامق (2009)، تاريخ ثقافة الإرهاب، جريدة الشرق الأوسط، العدد 11006، لندن.

الإرهاب ومارسوها بكل الوسائل والطرق عبر إنشاء المستوطنات بدءًا من نيويورك على حساب السكان الأصليين وهم الهنود الحمر من قبائل الجونغيان الهندية والأوركيوس أو مجموعة القبائل الخمس؛ حيث لم يبقَ من قبائل الشايان سوى 2000 شخص فقط في ولاية أريزونا، كما يرجح ذلك بعض المؤرخين؛ لأن هؤلاء الأوربيين أرادوا الاستيلاء على الأراضي، وبقتلهم السكان الأصليين ضمنوا عدم المطالبة بها.

إن أمريكا دخلت ما يقارب الـ 130 حربًا، وقتلت الملايين من البشر؛ ففي فيتنام وحدها قتلت 3 ملايين، وكذلك فعلت في كوريا، أما في إندونيسيا، ففي عام (1965) قتل مليون إنسان وظلت الجثث هناك لمدة ثلاثة أشهر دون دفن، وفي اليابان في (6/ 8/ 1945)، رمى الأمريكان قنبلة هيروشيما وزنتها 4. 5 طن فخلفت سبعين ألف قتيل، ومثلهم من الجرحى الذين مات معظمهم لاحقًا متأثرين بالتسمّم الإشعاعي، وبعدها بثلاثة أيام في (9/ 8/ 1945) استخدموا قنبلة ناجازاكي لتبيد غالبية سكانها والبالغ عددهم ما بين 380 إلى 420 ألفًا.

إن في الولايات المتحدة الأميركية أكثر من 380 منظمة إرهابية في داخل أمريكا منها 70 منظمة إرهابية في لوس أنجلوس وحدها، و800 عصابة لا تستطيع أمريكا الاقتراب منها، وفي نيويورك وحدها 4 منظمات إرهابية من الطراز الأول، إحداها عصابة لوشير، وهي متخصصة في ابتزاز الأسواق

المالية، كما أن بعض هذه العصابات متخصصة في الأعمال الإرهابية، والتزوير، والاغتيالات، ونقل النفايات النووية[1].

لا شك أن منطقتنا العربية حافلة بعوامل الاحتقان واليأس، فهناك ارتباط وجداني عميق وعلاقة لا تنفصل مع ما يحدث في فلسطين والعراق، وليس من جدل في أن كثيرًا من الظلم والجور الذي لحق بالقضايا العربية، والتحيز الفاضح وغير العادل من قبل الإدارات الأميركية المختلفة لصالح «إسرائيل»، والعدوان على العراق الذي انتهى باحتلاله، وحملات التهديد المستمرة بحق عدد من البلدان العربية، قد ألقت جميعًا بظلال ثقيلة على أوضاعنا.

إن الإرهاب هو عمل تآمري، صفته السرية، وينطلق من التسليم بسيادة التوجيه من الأعلى إلى الأسفل، والأوامر أو التوجيهات التي تصل من القمة إلى القاعدة غير خاضعة للسؤال أو المناقشة والحوار، وما يجعل الالتزام بها سهلًا هو وجودها في مجتمع منغلق، يجرم فكرة التنوع وتنتفي فيه مفاهيم التعددية واحترام الرأي الآخر، مع رفض قاطع لمشروعية حق الاختلاف في ظل الوحدة. إنه يتطلب تماهيًا وخضوعًا كاملًا، وتغييبًا للعقل، وتقديسًا للأصنام، وجمودًا في تفسير النصوص، واتهامًا لمن يؤمن

(1) العصيل، عبد الرحمن بن عبد اللطيف (2005) الإرهاب.. مصادره ومنابعه.. رؤية إسلامية، منتدى الثلاثاء الثقافي، القطيف، السعودية.

بـالحوار بالجهـل والهرطقـة إن لـم يكـن بالخيانـة، وهكـذا تهمـش ثقافـة الإرهاب الرأي الآخر وتحاول إقصاءه، وإذا ما أتيحت الفرصـة، في مجتمـع تسود فيه هذه الثقافة لنوع من الحوار.

إن ثقافة الحوار نقيضة للإرهاب، إنها تقف بحسـم وشـجاعة في مواجهـة القواعـد الفكريـة للإرهـابيين، وتهـدف إلـى التحـرر والانعتـاق والتعبيـر الإيجابي عن مختلف الـرؤى والأفكـار والمنطلقـات في المجتمـع، وصـولًا إلـى صـهر جميـع الأفكـار وتفاعلهـا في بوتقـة واحـدة، واسـتخدامها كـدليل ومرشـد في مشـروع النهضـة والبنـاء، في حـين يضـيق فكـر الإرهـاب بتعـدد الآراء، ويغيـب برنـامج العمـل والإصـلاح، وتسـود الخـزعبلات والـدجل والخرافـة، وتفتقـد النظـرة الموضـوعية والمواقـف الرصـينة مـن الأشـياء، والآراء لا تحتمل الاختلاف، ويجري تكفير المجتمع وتقسيمه بشكل حـاد إلى مؤمن وكافر، حيث لا تحتمل الحياة تعدد الألوان[1].

لا شك أن المعايير التي يحتكم إليها البعض قد أصابها نـوع مـن الخلـل، فمن غير المعقول المتاجرة بالدين من أجل تحقيق أهداف ومآرب عدوانيـة بربرية لا تمت إلى الدين بصلة، ومن غير المعقول المتاجرة بالوطنيـة تحـت ذريعة ممارسة القمع الأمني والسياسي، فالذي يفقد بوصلة النضال الـوطني

---

(1) مكي، يوسف (2005) نحو مواجهة ثقافة الإرهاب، editor@arabrenewal.com

والقومي والديني يقع في حفر التواطؤ مع اللاوطني واللاقومي واللاديني، وهو يخدم العدو في السعي لتحقيق أهدافه.

ثقافة الإرهاب هي ثقافة الانحراف ورفض الآخر والادعاء بمعايير لا أخلاقية على الصعيدين الأمني والسياسي من خلال تجريد الآخر من معاييره الإنسانية حتى يتم إباحة قتله أمنيًّا وسياسيًّا حتى الوصول إلى الاعتداء على حياته دون وازع من ذمة ولا ضمير.

الإرهاب لا يتمثل بقتل المدنيين الأبرياء فقط، بل هناك الإرهاب الفكري والسياسي، ومحاربة الناس من خلال تجريدهم وحرمانهم من حقوقهم المدنية والسياسية، وهو صادر عن أشخاص وحركات ومنظمات وأجهزة دول تمارسه في حق المعارضين لها والذين يقفون في خنادق النضال من أجل بناء مجتمعاتهم على أسس سليمة، والوصول بحال أممهم إلى تحقيق أهدافها المنشودة.

ثقافة الإرهاب، ثقافة الانحراف عن المعايير الدينية والوطنية والقومية، والتي تبيح التعامل مع الآخر بأسلوب القمع والقتل والتدمير وتكميم الأفواه، وكثيرًا ما يختفي الإرهابيون تحت شعارات قريبة من عواطف الناس، نظرًا لما حل بهؤلاء من قمع وظلم واضطهاد أمني وسياسي، ولكن هذه الثقافة المنحرفة التي تجذب الناس المحرومين والمضطهدين والمقموعين، يجب أن تواجه أن القمع لا يعالج بالقمع، وأن القتل لا

يواجه بالقتل، وأن الاضطهاد لا يعالج بالاضطهاد، فهذه ليست وسائل يمكن أن تعيد للمحرومين والمقموعين والمضطهدين حقوقهم.

إن الإرهاب ثقافة بلا دين، ولا وطن، وهو موجود في كل زمان ومكان، ومن يدعي أن الإسلام مصدره، أو أن العرب فرسانه، فهو متآمر على العرب والمسلمين؛ لأن التاريخ العربي الإسلامي في مجالات حقوق الإنسان، أكثر نقاء من تاريخ الأوربيين والأمريكان والصهاينة، والإرهاب الدولي اليوم هو إرهاب أمريكي صهيوني دون منازع، أما الحركات الطائفية أو المنظمات الدينية التي تمارس الإرهاب باسم الإسلام، فهي صنيعة الأمريكان وتتحالف مع الكيان الصهيوني لتدمير الأمة، وإعاقة تقدمها.

إن شيوع الديمقراطية وتعزيز دور الإنسان، وتقليص دور الأجهزة الأمنية في مجالات حياة الناس، وتعزيز دور مؤسسات المجتمع المدني، هذه تساعد كثيرًا على تجفيف مصادر الإرهاب، وتبعد الشباب خاصة عن الانزلاق في تبريرات الإرهابيين؛ لأن الإرهابيين يستغلون مآسي الناس لتوظيفها من أجل خدمة مصالحهم، والإرهاب الدولي الذي تمارسه الدول والحركات أكبر خطرًا على الإنسانية، فالولايات المتحدة في حروبها العدوانية، والكيان الصهيوني في ممارساته اللاإنسانية تشكلان أكبر تبرير وأرضية صالحة، وتربة قابلة لزراعة ثقافة الإرهاب؛ لأن هذه الحروب العدوانية بما تمتلكه من قدرات عسكرية هائلة، تدفع بالإرهابيين أن العدو الذي بهذا الحجم لا بدَّ من مواجهته بشتى السبل والطرق، حتى لا يتم

التمييز بين العدو الحقيقي والمتواطئين معه، وبين المواطنين الأبرياء الذين لا ذنب لهم في ما يجري، بالإضافة إلى أن العدو يقوم بتوظيف هذه الأعمال الإرهابية لتشويه صورة المقاومة الوطنية التي تهدف لدحره والخلاص منه.

إن فرقًا شاسعًا ما بين الإرهاب والمقاومة، وهدف الإرهاب يلتقي مع هدف العدو في تشويه صورة المقاومة على أرض فلسطين والعراق، فالمقاومة حق مشروع لجميع شعوب الأرض، التي يتم غزوها واحتلالها، ولأن الاحتلال يصل إلى حد الهزيمة، فإنه يبذل قصارى جهده لتشويه صورة المقاومة من خلال العمليات الإرهابية التي تطال المدنيين، حتى يتم تدمير حاضنة المقاومة من الجماهير الشعبية، التي تسند المقاومة وتحميها وتمدها بكل متطلبات الدعم لتحقيق أهداف الشعب في الوحدة والحرية والتحرير.

لقد جرب الاستعمار الفرنسي في الجزائر العمليات الإرهابية، وجرب الأمريكان ممارسة العمليات الإرهابية في فيتنام، وفشلت كل هذه الممارسات اللاأخلاقية، وها هم الأمريكان وعملاؤهم في العراق يمارسون الإرهاب بشتى صنوفه في حق المواطنين الأبرياء من أجل تجفيف قنوات الدعم الشعبي عن المقاومة للإجهاز عليها وتدميرها، وفشلت الصهيونية في ممارسة ذات الدور، كما ثبت فشل قوات الغزو الإمبريالي الأميركي وعملاؤه.

إن إرهـاب الدولـة الـذي تمارسـه الإدارة الأميركيـة في العـراق والكيـان الصهيوني في فلسطين يجب أن تدفعنا إلى تقديم كل الدعم المالي والبشـري والإعلامـي لمقاومـة هـذا الإرهـاب والعـدوان لأن مقاومـة الاحـتلال حـق مشروع، ويجب ألا تخدعنا الممارسـات الأميركيـة في توظيفهـا للمنظمـات الإرهابية التي تستهدف المدنيين الأبرياء في السعي لتشويه صورة المقاومة.

إن شعبنا في فلسطين والعراق وعلى امتداد الوطن العربي يميز جيدًا بين الإرهـاب والمقاومـة، فالإرهـاب صـنيعة الاحـتلال والمقاومـة صـنيعة الجماهير الشعبية، ومن أجل ذلك يجـب ألا نغفـل عـن إدانـة قتـل المـدنيين الأبرياء سواء أكـان ذلـك في مـدن العـراق أو فلسـطين، أو في شـرم الشـيخ أو عمـان، وألا تحرفنـا هـذه العمليـات عـن توجيـه أصـابع الاتهـام للإرهـاب الدولي المتمثل بالإدارة الأميركية والكيان الصهيوني.

إن الإرهاب يشكل خطرًا على الإنسانية، ولا بدَّ من وقفة دوليـة في وجـه الاستكبار العالمي الإمبريـالي الأميركـي الصـهيوني، وأن يسـعى العـالم إلـى تحديد مفهوم الإرهاب ومفهوم المقاومة الوطنية، وأن يكون أكثر حذرًا مـن الانسـياق وراء المفهـوم الإمبريـالي الأميركـي الصـهيوني في تفسـيرهما للإرهاب؛ لأنهما يستهدفان المقاومة الوطنيـة المشـروعة؛ لأن العـالم الـذي تخلـص مـن الاسـتعمار القـديم، قـد بـدأ يعـاني مـن العصـر الاسـتعماري الأميركي الصهيوني الجديد على أرض فلسطين والعراق.

إن الأمة بكل منظماتها الشعبية على وجه الخصوص بقدر ما هي مطالبة بإدانة الإرهاب، الذي يشوه تاريخنا وقيمنا وديننا، فهي مطالبة بالوقوف إلى جانب المقاومة الوطنية في العراق وفلسطين، ورفض سياسة فرض الأمر الواقع والتعامل مع رموز الاحتلال وإفرازاته في ما يتعلق بالعراق، مع رفض التطبيع مع الكيان الصهيوني في ما يتعلق بفلسطين[1].

(1) فريجات، غالب (2007) جريدة المحرر الإلكترونية، أستراليا.

ثقافة العيب

يتفاعل المجتمع العربي مع غالبية القضايا والمشكلات الاجتماعية بأسلوب خاطئ، وتنحصر حلوله بملامسة القشور دون الغوص فيها، ويعود السبب في ذلك إلى نمط الحياة البيئية، التي تربينا عليها، وإلى كيفية نمط تفاعل الاتجاه المقابل، سواء كان على مستوى الفرد أو المجتمع، وسياسة العيب طالت مختلف أحداث شؤون الحياة الاجتماعية.

سياسة العيب وصلت بمجتمعنا العربي إلى حد حرمان الأبناء من حق تقرير المصير، وفرض الرأي على غالبية شؤونهم مثل: وضع فرمانات وخطوط حمراء أمام بعض التخصصات العلمية، التي يرغب أبناؤنا بالالتحاق بها، مثل (التمريض، الفنون كالرسم أو الموسيقى... إلخ)، وإرغامهم على الالتحاق بمهن يكرهون مزاولتها، لينتهي المطاف بنا إلى خسارة كفاءتهم الإبداعية، في المجالات التي كانوا يودون الالتحاق بها، وتتغلل سياسة العيب لتطال مختلف شؤون حياة الأبناء، سواء على الصعيد الاجتماعي، أو صعيد الحياة العملية، وللأسف فهذه السياسة، تدمر وتؤذي حياة أبنائنا.

هل العزوف عن المهن اليدوية مردّه وجود «ثقافة العيب» فعلًا؟ أم أن ذلك المصطلح قد استُحدث في الحقيقة من أجل إقناع الشباب بارتياد المهن الدنيا؛ لأن المهن العليا ليست متاحة للجميع؟

ويطالب البعض من المسؤولين، من باب إثبات جديتهم في مكافحة «ثقافة العيب»، بأن يوظفوا أولادهم عمالًا في المصانع، أو في ورش البناء، أو حتى عمالًا للنظافة، أم أن جميع أبناء المسؤولين أذكياء ومبرزون، بحيث يحصلون على بعثات دراسية وينالون خلالها شهادات عليا، ثم يعودون لتولي المناصب، وكأن حصولهم على شهادات ارتبط بتفوقهم، لا بالواسطة والمحسوبية، بل إن أبناء المسؤولين هؤلاء يتعاملون حينها مع الموظفين الآخرين من عامة الشعب، على أنهم جهلة ومحدودو المعرفة، كونهم لم يطّلعوا على ثقافات الشعوب المتحضرة، مثلما اطلعوا هم، وبالتالي لا يحق لهم المطالبة بتولي وظائف عليا.

ثمة اتجاه، إذًا، بين هؤلاء الشباب، للربط بين مقولة «ثقافة العيب»، وضعف «تكافؤ الفرص» بين المواطنين، وكأنهم يعتبرون أن تلك المقولة ابتدعها المسؤولون، بغرض دفع عامة الناس لقبول مهن لا يرضاها هؤلاء المسؤولون أنفسهم لأبنائهم، هل هي إذًا، ثقافة «التمييز في الفرص» التي تنتهك العدالة وحقوق المواطنة، وليست «ثقافة العيب»؟

إن البعض يرى أن المجتمع ليس فيه «ثقافة عيب»، «ما في عيب إلا العيب»، وأن مصطلح «ثقافة العيب»، مصدره رغبة بعض أنشطة ومؤسسات القطاع الخاص في تبرير تدني الأجور، وطول ساعات العمل فيها، وضعف الامتيازات التي تقدمها، والتهرب من تحسين ظروف العمل، وهو ما يؤدي إلى إبقاء الوضع على صورة سجال لغوي وفكري، من دون أن يثمر نتائج تجاه واقع البطالة، بدليل أن مؤتمرات البطالة لم تكن

تستضيف أصحاب العلاقة، وهم المتعطلون عن العمل، لمناقشتهم، والاستماع لوجهة نظرهم، والذي يعتقد أن هذا المصطلح تسرّب للخطاب الرسمي[1].

لقد احتلت ثقافة العيب مساحة كبيرة من عقلية أغلب الشرائح الاجتماعية، وأصبحت تشكل سببًا رئيسًا في تفاقم أزمة البطالة بين الشباب، وأدت هذه الثقافة الغريبة على مجتمعنا، إلى عزوف كثير من الشباب عن بعض المهن، خوفًا من نظرة المجتمع الدونية لها، إضافة إلى خشيتهم من غضب الأهل، أو ازدراء الأصدقاء، وتختلف نسبة العيب باختلاف المهنة، والمنطقة، ومن الشباب إلى الفتيات.

إن ثقافة العيب في المجتمع تضرب بقوة في عمق المجتمع، الذي تقوم ثقافته على كثير من القيود والحواجز، وتعمل جهات متعددة في المجتمع على تأصيلها، والإبقاء عليها، وتقويتها، للإبقاء على الحياة بشكل مصطنع ومزيف، أمام الكثير من التغيرات الحضارية والاجتماعية، ويرى البعض أن مفهوم «العيب» ليس ما يتعارض مع عادات المجتمع وتقاليده، التي لا تقوم على أساس علمي أو شرعي، بل أصبح هذا المفهوم يقوم على خرافات وتقاليد بالية، عفا عليها الزمن، ولم تعد تتماشى مع متطلبات العصر الحاضر، وإن العيب هو ما يتعارض مع الشرع، أو مع مصلحة

(1) http://www.alfrasha.com.

الوطن العامة، أو يسرق فرصة مواطن آخر مستحق، وما يتعارض مع النظام الذي تقوم عليه سياسة الوطن، باعتبارنا مواطنين فيه وننتمي إلى ترابه.

إن تعريف العيب تحوّل إلى موروث اجتماعي، ولا يوجد اتفاق عام على: ما هو العيب؟ والعيب عند مجتمع ليس عيبًا عند مجتمع آخر، والعيب في بيئة، ليس عيبًا في بيئة أخرى، وعن أسباب عزوف الشباب عن بعض المهن بسبب مفهوم العيب، فإن الوضع الاقتصادي له دور كبير في تخطي الكثير من المسائل المتعلقة بمفهوم العيب؛ لأن الكثير من العيب، يصبح لا عيب، حين يعرف الشاب أو الشابة أن هذه المهنة تحديدًا هي المتاحة، والتي ستجلب له عيشًا كريمًا، وستخلصه من البطالة، وسيصبح صاحب دخل، وأن الواقع العملي والتطبيقي، سيخرج المجتمع من مسألة العيب، حيث إنه في السابق كان عمل الممرضة عيبًا كبيرًا، والآن نجد ممرضات من جميع الطبقات، والعائلات؛ لأن الناس أصبحت تعي أن عمل الممرضة عمل جليل، ومطلوب وراق، ويرى البعض أن الأيام هي التي ستخرجنا من هذا المفهوم -العيب- الذي نحدد به وسيلة الارتباط بالمهن، وعن علاقة البطالة بالعيب، نرى أن ارتفاع نسبة البطالة لدى الشباب، لا يرتبط بثقافة العيب، وإن كان لا يعفي ثقافة العيب من بعض الأثر، وأن هذه الثقافة بلا شك تمنع بعض الشباب من الانخراط في بعض المهن، بسبب اعتقادهم أن العمل في هذه المهن من العيب، وتنقص من قيمة الشخص، وتحط من شأنه واعتباره وأهله وعشيرته، وهناك سبب أشد أثرًا وهو الاتجاهات السلبية، التي لدى الشباب نحو العمل المهني، والتي

تكونت لديهم بسبب التنشئة الاجتماعية، والأسلوب التربوي الذي نشؤوا عليه، فقد نشؤوا معتمدين على والديهم، وظهروا للحياة بمفاهيم خاطئة تجاه العمل.

إن بعض العيب لا يكون عيبًا من الأساس، وإنما نما من المجتمع ذاته، وقد يكون نتاج تقاليد وأعراف، نتاج قناعات عقلية تجاه بعض الأمور، واستمرت قراءتها عيبًا من قبل المجتمع، وأن العيب المهني موجود منذ الزمن الجاهلي، وهو من مساوئ القبلية، مع أن الإسلام قام بتصحيح تلك النظرة للمهن، لكننا نجده في وقتنا الحاضر استفحل مرضه، وعاد بقوة، حتى امتد لمهن كثيرة يحتاجها المجتمع، لكن للأسف خوف بعضنا من نظرة المجتمع، تجعله يعزف فعليًّا حتى عن المحاولة بدخول مجال المهنة التي يريد.

ومن الناحية النفسية، هناك إمكانية علاج المشكلة، وإزالة هاجس العيب؛ باستطاعة علم النفس كسر هذا الحاجز، وتغيير هذه الاتجاهات السائدة عند أفراد المجتمع، بواسطة الكثير من البرامج المعرفية والسلوكية، التي تعمل على تغيير الاتجاهات السائدة عند الشباب على وجه الخصوص، فعندما ينجح علم النفس في مثل هذه البرامج، يصبح للمجتمع موقف مغاير في التعامل مع ثقافة العيب، ويصبح العيب مقبولًا بدل الرفض الذي يلقاه اليوم، ولكي ينجح علم النفس في ذلك، لا بدَّ من مساعدة

جهات معينة، لما يقوم به علم النفس، من ضمن هذه الجهات وزارات الإعلام والعمل والتربية والتعليم، والجامعات[1].

هذه الثقافة بدأت وشارفت على الانتهاء في مجتمعات معينة، لكنها تزدهر في مجتمعاتنا بعمق، وتتأصل كموروث يتم نقله تلقائيًّا، من الأجداد إلى الآباء ثم إلى الأبناء...

ومن أسوأ هذ الصور، والتي تحيط بنا في واقعنا الاجتماعي، أن يضع بعضنا حجر هذه الثقافة عائقًا في الحصول على مصدر العيش الكريم، وهنا فإن هذه الثقافة لا تقف عند كونها مصطلحًا سلبيًّا فحسب، بل تتجاوز ذلك لتكون حاجزًا يعوق مجتمعنا عن النهوض والتقدم، وتؤثر على حياة الفرد، عن طريق الحد من فرص العمل المتاحة، وبالتالي تقليل دخله، فكم من وظيفة شريفة ومحترمة، تعد (غير مقبولة) اجتماعيًّا، ولا محببة عند الإناث والذكور أيضًا، في كثير من مجالات العمل المهنية والحرفية، أو في مجال الإنشاءات والخدمات وغيرها؟ حيث خضعت لسلم التصنيف الاجتماعي، ولذا لا يلجأ إليها أكثر الناس حاجة إلى العمل، بسبب نظرة المجتمع الدونية للعاملين فيها. . فالعمل في هذه المهن البسيطة «عيب».. وقلة حياء.. ناهيك عما يسمى بخصوصية المجتمع، والسياج القوي المحيط بها، والذي لا يسمح لأحد باجتيازه، أو الخوض في ما داخله من تفاصيل.

---

(1) http://www.alfrasha.com.

ففي مجتمعاتنا ينظر إلى العمل على أنه نوع من الوجاهة الاجتماعية، التي لا بدَّ منها، من أجل تحقيق سمعة ومكانة جيدة بين الناس، ولذلك يحاول الشباب استخدام جميع الوسائل الممكنة، من أجل الحصول على وظيفة مرموقة.

الشاب قد يبحث عن العمل في مجال (غسيل الأطباق) في أوربا، ولكن لا يمكن أن يقبل بهذه الوظيفة في وطنه، وذلك خشية نظرة المجتمع الدونية لهذه الوظيفة، وهنا الاختلاف الكبير من حيث النظرة إلى قيمة العمل، وأهميته، وكيفية التكيف مع الواقع ما بين الغرب وجزء من الشرق، فالنظرة إلى قيمة العمل في الدول الغربية، التي بها نوع من التحرر والقدرة على التكيف مع مشاكل المجتمع، بالإضافة إلى دور المؤسسات الاقتصادية في تلك الدول، التي تعود الشباب على التفكير الحر، وتشجيعهم على البدء في العمل الحر، وهو ما تفرضه طبيعة المجتمعات الغربية، التي يكاد ينعدم فيها القطاع العام، حيث تعتمد هذه الدول على الاقتصاد الحر، وهو ما يعنى أنه لا يوجد من بين الشباب من ينتظر الوظيفة الحكومية.

ولا يجب إغفال الجانب التعليمي في القضية، حيث يتعود الشاب في الغرب على التفكير والنقد، الذي يكون قد تعود عليه حين يشب، ليبدأ في التفكير في مستقبله بشكل عملي، بعيدًا عن التفاخر الاجتماعي.

ولا يكفي أن ننتقد ثقافة «العيب» فحسب، بل يجب على كل منا تبني مسؤولية محاربة هذه الثقافة، لتخطي المشاكل التي تسببها، فالكثير من أفراد المجتمع، قد ترسخت ثقافتهم على الكثير من القيود والحواجز، التي

لـم يعـد لهـا قيمـة في ظـل التغيـرات، والتطـورات السياسـية والاجتماعيـة والثقافية، ويمكن بقليل من الجهد النفسي التغلب على هـذه القيـود، وإقنـاع الآخـرين بمـا تحتمـه التطـورات والوضـع الاقتصـادي، كمـا أن باسـتطاعة الشـاب العامـل كسـر هـذا الحـاجز، وتغييـر هـذه الاتجاهـات السـائدة، عنـد بعـض أفـراد المجتمـع، عـن طريـق التوعيـة الثقافيـة والاجتماعيـة، وذلـك بتعـاون الجهـات المعنيـة، مـن إدارات حكوميـة، ووسـائل الإعـلام، والجامعات، ووزارة التربية والتعليم، ومؤسسات فاعلة أخرى.

إن التقاليد الاجتماعية، وغياب الإيمان الحقيقـي بقيمـة العمـل أيًّا كـان، تعتبر من الأسباب الرئيسة لتفشي ثقافـة «العيـب»، داخـل مجتمعاتنـا المليئـة بالتقاليد، أكثر من ملئها بقيم الحياة الإنسانية، التي تعتبر الإنسان، هو محـور كل الأشـياء، وليسـت الوظـائف أو المـال أو السـلطة أو الوجاهـة والسـمعة، ليتأكد بذلك أن مجتمعاتنا تعاني الكثيـر مـن الأمـراض، التـي تؤخـرهـا لـيس فقط على الصعيد الاجتمـاعي والاقتصـادي، ولكـن علـى الصـعيد الإنسـاني أيضًا، ليظل السؤال متى سوف تكون نقطة البدايـة، للـتخلص مـن كـل تلـك الأوهـام والأسـاطير، التـي نضـعها أمامنـا، لتعوقنـا علـى مواصـلة السـير في طريـق أراده الله لنـا بالكفـاح والعمـل، ولـيس بالسـلطات والمـال والجـاه والواجهة الاجتماعية[1].

(1) عقيل بن عبد الخالق بن إبراهيم اللواتي، شبكة النبأ المعلوماتية، 2008.

توصف السياسات، التي تتبعها الحكومات بالسياسات الناجحة، من خلال الثمار، التي يتم جنيها، نتيجة تطبيقها، فسياسة التوظيف أو التعيين المعتمدة، وكذلك حصر عمليات التوظيف لبعض المسابقات المفصّلة عادة، على قياس بعض الأشخاص دون سواهم، وعمليات الترشيح التي لا تعد ولا تحصى[1].

ثقافة العيب التي تنتشر بين شبابنا، وخاصة حملة الشهادات، فهذه الثقافة المعششة في عقولهم، لا تجيز أي عمل لا يتناسب مع أوضاعهم الاجتماعية والثقافية، على مبدأ العيب الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، دون أن يدركوا بأن عملًا يسُد الرمق خيرٌ من شهادة على قارعة الطريق، وتفضيل الجلوس بانتظار الفرصة الذهبية، حتى تدق الأبواب، وتبني الأحلام من ورق، ضمن فلسفيات ما أنزل الله بها من سلطان، متوسدين الهواء، حالمين بمستقبل أفضل، والحق دائمًا على القدر والحظ السيء.

أما الحق لا تشوبه شائبة، فهو كلام الإمام الشافعي:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا[2].

---

(1) عشاوي العشاوي، 2006، a_ashawi@maktoob.com.

(2) a_ashawi@maktoob.co.

المراجع

1. سعيد خالد الحسن، مداخلة في مؤتمر مؤسسة الفكر العربي حول «العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة»، مراكش، (2 / ديسمبر/ 2004).
2. المصدر السابق نفسه.
3. شبكة نداء القدس، بين حزيران العربي (1967)، وحزيران الفلسطيني - اللبناني 2002، ثقافتا الهزيمة والمقاومة بكلام جديد، (16/ 4/ 2002).
4. المصدر السابق نفسه.
5. محمد صهيب محمد الشامي، شمولية مفهوم المقاومة، محاضرة ألقيت على مدرج المركز الثقافي في حلب، (19/ 8/ 2006).
6. زينات أبو شاويش، كيف نبني ثقافة المقاومة، موقع إسلام أون لاين، (12/ أكتوبر/ 2003).
7. ـ المصدر السابق نفسه.
8. إسماعيل أبو البندورة، المقاومة تكتب مفردات ثقافتها، جريدة المجد الأردنية.
9. علي عقلة عرسان، المثقف بين الحوار والرشق بالنار.
10. حسين قبلاوي، ثقافة المقاومة في مواجهة أسلوب الهيمنة.

د. غالب عبد المعطي الفريجات

كاتب وأكاديمي أردني، ولد في محافظة الطفيلة/ الأردن، حصل على درجة البكالوريوس في اللغة العربية في جامعة بيروت العربية سنة 1971، ثم الماجستير في التربية في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1983، فالدكتوراة في التخطيط التربوي في جامعة بتسبرغ في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1986.

عمل مخطِّطاً تربوياً في وزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة (1987 – 1990)، وباحثاً في المركز الوطني للبحث والتطوير التربوي في الأردن (1991 – 1993)، ومديراً إدارياً في شركة خاصة (1993– 1996)، وعضو هيئة تدريس في جامعة تعز باليمن (1996– 1997)، ومديراً إدارياً في المكتب البيضاوي للدراسات والأبحاث في الأردن (1997– 2000)، وعضو هيئة تدريس في جامعة عمان العربية – الأردن (2000– 2001) ومشرفاً وعضو لجنة كلية الدراسات العليا في جامعة الفاشر في السودان (2000 –2003)، وخبيراً تربوياً في وزارة التربية والتعليم في الأردن 2011.

له إصدارات عدة في مجال التربية والتعليم منها:

1. التخطيط التربوي في دولة الإمارات العربية المتحدة، دبي، 1989.

2. التربية والتعليم في الأردن واقع ومؤشرات: د. أحمد بطاح، د. غالب الفريجات، د. فكتور بله، المركز الوطني للبحث والتطوير التربوي، 1992.
3. تدريب المعلمين في الأردن: د. تيسير النهار، د. أحمد بطاح، د. غالب الفريجات، المركز الوطني للبحث والتطوير التربوي، 1992.
4. التعليم والتدريب المهني، دراسة تقويمية للتعليم والتدريب المهني في الأردن، سلسلة منشورات المركز الوطني للبحث والتطوير التربوي، 1993.
5. تدريب وتأهيل المعلمين أثناء الخدمة في الوطن العربي، مجلة الفكر التربوي العربي، العدد الثالث، بغداد، العراق، شباط، 1999.
6. إشكالية المشاركة في الحياة السياسية ودور التربية في الوطن العربي، مجلة الفكر العربي، لبنان 1999.
7. الشباب العربي، مشكلات وتحديات، مجلة الفكر التربوي العربي، العدد الخامس، بغداد، العراق، كانون الثاني 2000.
8. الإدارة والتخطيط التربوي، عمّان، 2000.
9. الارتقاء بمهنة التعليم، بغداد، 2001.
10. الانتفاضة والتربية، ندوة اتحاد التربويين العرب، تحت عنوان «الانتفاضة والتربية»، العراق، 2002.

11. دور التربية في حماية هوية الأمة وثقافتها، ندوة اتحاد التربويين العرب، تحت عنوان «الانتفاضة والتربية»، بغداد، 2002.
12. تنمية وتطوير الأطر التربوية، مجلة التربية، وكالة الغوث، عمّان، 2002.
13. التطبيع الثقافي والتربوي، التطبيع: المخاطر وسبل المواجهة، بغداد 2001، مجلة دراسات العلوم الاجتماعية، بيت الحكمة، بغداد ، 2002.
14. التعليم الأساسي وكفايته التعليمية، تطبيقات عن الأردن، عمّان، 2002.
15. آفاق وتطلعات نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان، دمشق، 2002.
16. التربية القومية سياج الأمة وعنوان وحدتها، 2003.
17. على طريق التنمية السياسية، عمّان، 2005.
18. التربية وتنمية المجتمع، عمّان، 2006.
19. التخطيط التربوي وتنمية القوى البشرية، عمّان، 2007.
20. إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات التربوية، مؤتمر جامعة الطفيلة، 2007.
21. قضايا تربوية، عمّان، 2008.
22. المؤشرات البيئية في مناهج المرحلة الثانوية، بيروت، 2008.
23. جنوح الشباب ومشكلات الانحراف، المجلس الأعلى للشباب، 2008.
24. لغتنا العربية والتعليم الجامعي، مؤتمر جامعة سمية، 2009.
25. التعليم العالي، واقع وطموح، 2009.

26. ثقافة البحث العلمي، عمّان، 2011.

27. مدخل إلى تكنولوجيا التعليم، عمّان، 2011.

28. إضاءات على النظام التربوي، عمّان، 2012.

29. استخدام البيانات والمعلومات في تحسين الأداء الإداري التربوي، عمّان، 2013.

30. الممانعة والمواجهة في خدمة معركة الأمة، عمّان، 2013.

31. التعليم الجامعي والتحديات التي تواجهه، عمّان، 2013.

32. مهارات الدراسة الجامعية، عمّان، 2014.

33. التفكير والإبداع والتفكير الإبداعي، عمّان، 2015.

34. الإصلاح والتطوير التربوي، عمّان، 2016.

35. الإدارة والقيادة التربوية، عمّان، 2016.

36. التربية والتنمية المستدامة، عّمان، 2018

الفهرست

تعدُّ الثقافة مشروعاً تحررياً، ولأنها كذلك، فلا بدَّ أن يعي كل إنسان ينزع إلى الحرية الدور الذي يمكن أن تلعبه الثقافة. والحرية ليست نزعة فردية، بل هي نزعة وطنية وقومية وإنسانية، فالشعوب المضطهَدة المقموعة، تنزع إلى الخلاص من إيقاعات القمع والاضطهاد، والأمم التي تخضع للتجزئة والتفتيت، لا بدَّ أن تنزع نضالاتها من أجل نيل حريتها، إلى بناء وحدتها ومشروعها القومي. وعلى الأمة العربية أن تسعى، من أجل تحقيق دولتها القومية إلى التحرر من التجزئة والتبعية والتخلف.









الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS
عمّان - شارع الملكة رانيا
عمارة البيجاوي (69) طابق 3
نقّال: 7162720 79 962+
alaan.publish@gmail.com